
סיפורו של אדם ששמו אילן
A story of a man who named ELAN
رواية
إيلان
سارة شوقي العقاري
المكتبة العربية للنشر والتوزيع

إيـــلان

رواية

سارة شوقي العقاري

اسم الكاتبة: سارة شوقي العقاري
اسم الكتاب: إيــلان
تدقيق لغوي: د. ريما الغزاوي
تصميم الغلاف: ريهــام محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 /





١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١



إهـــــداء

إلى تلك المرأة التي كثيراً ما حبستني في غرفتي وأنا صغيرة واضعةً معي بعض القصص معلنةً أنني لن أخرج من محبسي إلا بعد قراءتي لها.. غير مكترثةٍ لبكائي وعويلي قائلة :-

- اقرئي حتى تكوني شيئاً !

إلى المرأة نفسها التي لطالما أخفت عني الكتب والروايات وأنا شابة قائلة :-

-اهتمي بدروسكِ أولاً حتى تكوني شيئاً"

أتمنى يا أمي أن أكون أصبحتُ ذات الشيء الذي كنتِ تحلمين به.

الإهداء الثاني

إلى كل مَن يحتاج إلى هدية.. لكل مَن أثقلته حياته ظلماً.. إلى هؤلاء الذين خيّمت عليهم الأحزان.. وأثقلت قلوبهم الهموم.. إلى كل مَن وقف في شرفته ليلاً يتذكر موقفاً مع شهيدٍ أو ينتظرعودة لغائبٍ أو أسيرٍ.

إلى شهيدٍ لم نعرفه.. إلى مدافعٍ لم يذكر اسمه أحد.. إلى مجاهدٍ لم تصله أضواء الشهرة.. إلى أولئك الذين يبثون في نفوسنا الأمل.. ويزرعون فينا بذور الخير..وينيرون في عتمتنا ألف قنديلٍ وقنديلٍ .

إلى كل مَن أنار في طريقنا شمعة ومضى.. إلى الطيبين في هذا العالم الذين يثبتون الأرض في مدارها.. إلى كل مجهول في الأرض .. معروف في السماء.. إلى غيث بطل قلبي اطمأن.. أهدي هذا العمل.

الفصل الأول

عند منتصف الليل..

"إيلان كوهين إريائيل" أو كما يطلقون عليه صقر الموساد، رجل إسرائيل الأول وأشهر ضابط مخابرات إسرائيلي، وأذكى ضباط الموساد على الإطلاق، رغم صغر سنه إلا أن عقله الواعي يتقد خبرة وذكاءً، ويكن قلبه للعرب عامة وللفلسطينيين خاصة من الكره ما لو وزع على أهل الأرض لكفاهم، لذلك رأت المخابرات الإسرائيلية في كوهين مشروع جاسوس جيد، فتمّ تجنيده لصالح الموساد منذ أن كان في السابعة من عمره.

قام بإنجاز عمليات مخابراتية عديدة، يعجزعن القيام بها المخضرمون من رجال المخابرات، تجسس لأكثر من ست سنواتٍ على الأجهزة الحكومية في لبنان، رغم أن عمره الآن لا يتجاوز الثامنة والعشرين عاماً.. وكما أنه قام بتهريب يهود وأموال إلى الكيان الوليد، فكانت عملياته بمثابة أهمّ لبنة بناء في تاريخ إسرائيل.

ولد إيلان كوهين إرائيل لأبوين يهوديين بالغي الثراء من الطبقة الأرستقراطية بمدينة " بيونس آيرس " في الأرجنتين، في مثل هذا اليوم منذ ثمانيةٍ وعشرين عاماً.. وقضى الشطر الأصغر من عمره بالأرجنتين ثم هاجر لاحقاً إلى إسرائيل مع والديه.

عُرف عنه منذ الصغر النشاط الزائد والذكاء الحاد والانخراط في كل الأنشطة الممكنة كالسباحة والرماية وقيادة كل أنواع المركبات حتى الطائرات والغواصات منها، فكان إيلان بمثابة جيش بمفرده، كما أن بطلنا العظيم يتحدث أكثر من أربع لغاتٍ عالميةٍ بخلاف اللغة العبرية، بالإضافة إلى لغةٍ خامسة كان هو السبب في ابتكارها حتى

يتحدث بها ضباط الموساد وحدهم، وذلك منعاً لتسريب أسرار الموساد العسكرية والمخابراتية.

ونحن بصدد الحديث عن إنجازات السيد إيريائيل لا يفوتنا الحديث عن والدته السيدة إيريائيل، ألا وهي سيدة يهودية عريقة، لطالما ضحت بمالها ووقتها وجهدها من أجل بناء الوطن الجديد، بعدما كان العرب الفلسطينيون هم السبب في قتل زوجها وابنتها قبل مولد السيد إيلان بأيامٍ قليلةٍ في حادثٍ إرهابي خسيس يطلق عليه المسلمون العمليات الفدائية، ويزعمون أن ضحاياهم في تلك العمليات شهداء فيدخلون الجنة بلا حسابٍ أو سابقةِ عذابٍ.

معذرون، عقولهم أصغر من حباتِ السمسم، يُنهي أحدهم حياته وحياة غيره ثم يخبرك بعد ذلك أنه من الشهداء، ألا لعنة الله على كل العرب.

نعود مجدداً إلى حديثنا عن بطل الموساد العظيم، والقائد الذي كان وراء مجزرة حي الزيتون التي قمنا فيها بذبح أعدادٍ ليست هينة من الفلسطينيين، وعلى رأسهم الصحفيون.. من يومها، والسيد كوهين لم يعد مجرد ضابط مخابرات إسرائيلي مقر عمله مبنى الموساد فحسب.. بل قرر البطل أن يشنّ الغارات عليهم بنفسه.. أن يهبط إلى شوارعهم من السماء، ويخرج لهم من الأرض ليعلم في ماذا يفكرون؟ وعن أي شيءٍ يتحدثون؟.

لقد كان نزوله إلى الشارع الفلسطيني بمثابة نقطة فارقة في تاريخه الأمني، ولذلك فقد نوهت أجهزة الموساد منذ أن تمّ تجنيده وهو طفلٌ في السابعة على عدم نشر أية

صورة تخصه أو تخص غيره من رجال المخابرات، ولذلك لم يعرف أحد هوية السيد كوهين حتى الآن.

لقد نجح الجهاز في إخفاء شخصه عن الجميع، فلا أحد يعرف مَن هو إيلان كوهين إريائيل، هو بالنسبة للجميع بطل خارق لم يروه من قبل ولن يروه بعد، فهو بالنسبة لهم مجرد بطل يتحمل من أجل إسرائيل ما لم يتحمله أحد.. يعرّض نفسه للموت كل يوم آلاف المرات باندماجه وسط الفلسطينيين؛ ليحصد أرواحهم؛ ليقدمها هدايا لنا في أعياد الفصح والغفران.

وهنا نصل لختام التقرير الذي نعرضه لكم في مثل هذا التوقيت من كل عام احتفالاً بميلاد صقر الموساد.

نتلقى اتصالاتكم الهاتفية؛ لتهنئة البطل بمولده لكن بعد الفاصل كان معكم "حاييم ليفي" من القناة الأولى للتلفزيون الإسرائيلي.

****

استيقظت مبكراً كعادتها.. نظرت للسقف نظرةً طويلةً ناعسةً قبل أن تغلق المنبه الذي يستقرعلى الكمود المجاور.. تدثرت بالغطاءِ الثقيلِ جيداً بطريقةٍ توحي بأنها لا تنوي التحرك في هذا الطقس البارد..

زفرت زفرةً حارةً ثم تمتمت قائلة:

-ألا لعنة الله على الاحتلال.. اعتدلت في فراشها وكأنها تنفض عنها غبار النوم، وبخطواتٍ سريعةٍ اتجهت نحو دورة المياه، وكأنها تخشى أن تغير رأيها.. المياة المتجمدة في

الصنبورأنبأتها بأن الثلج بالتأكيد يتساقط بالخارج.. توضأت ببقايا ماء في أحد الأوعية، وقبل أن تكمل ارتداء ملابسها تناهى إلى أذنها صوت بوق سيارة تعرفه جيداً.

إنها السيارة الخاصة بالمحطة.. بالتأكيد وصل جميع الزملاء، الكل لديه حماسٌ عجيبٌ لتقريراليوم إلا هي، تعلم جيداً أن السلطات الإسرائيلية لن تسمح للصحفيين بالاقتراب من منزل الشهيد، وإن سمحت وبالفعل نجحوا في إجراء اللقاء المنتظر، فلن تسلم القناة من قطع الإرسال عنها لأيامٍ طويلةٍ قد تصل لعدة أشهر.. علي أيةِ حالٍ، ليس أمامها إلا المحاولة، وليفعل الله ما يشاء.

وضعت حجابها على عجلٍ، أغلقت باب البيت، وهبطت درجات السلم في بطءٍ يوحي بعدم حماسها لمهمة اليوم.. جلست في المقعد الأمامي للسيارة، دون أن تلقي التحية أو تنبس ببنت شفة كما هو معتاد منها في الأيام الأخيرة.

نظرت إليها "سلمى" في عطفٍ ثم قالت بحرصٍ:

-أما آن الأوان أن تخلعي عنكِ ثياب الحداد هذه، وأن تعودي لطبيعتكِ يا جهاد؟

نظرت إليها جهاد نظرة لومٍ، ولم تجب..

هتف ياسين من المقعد بآخر السيارة:

-لا تقلقي يا "سلمى"، إنها تقيم الحداد، وتعلن الحرب في مثل هذا الشهر من كل عامٍ، إنه الشهر ذاته الذي استشهدت فيه زهرة، وبمجرد أن ينقضي هذا الشهر تعود لطبيعتها لبؤة مفترسة، لا هم لها إلا أن تأخذ بالثأر.. لم تستمع جهاد لبقية الحديث.. شردت ببصرها عبر زجاج السيارة، تتأمل البرتقال المتساقط على الأرصفة، وتستنشق عبيره في لامبالاة، وكأن حديث الزملاء لا يخصها في شيءٍ.

انتبهت من شرودها على صوتِ سائق السيارة وهو يقول:

-انتبهوا، هناك دورية إسرائيلية.. هدأت السيارة من سرعتها، وحبس الجميع أنفاسهم، وأخرج كل منهم الإذن الخاص به.. وضعت جهاد حزام الأمان حول كتفها كإجراءٍ روتيني لابد أن يحدث.. نظرت إلى الجندي الواقف في تحفظٍ، ودون أن تنطق مدت يدها عبر نافذة السيارة؛ لتناوله الإذن الخاص بهم جميعاً.

وبصوتٍ هادرٍ كأنه الرعد قال الجندي:

- هناك أوامرُ عليا، تمنع التصوير لمدة ثلاثة أيام بالمنطقة.

ترك "حسام" المقود، وترجل في عنفٍ، ثم ضم قبضة يده موجهاً إياها للجندي، ولكن استوقفتها يد ياسين قبل أن تصل قبضته إلى هدفها، ثم هتف في هدوءٍ:

-لا تنس أن معانا سيدات.. الوقت ليس وقت شجارٍ أو قتالٍ.

رجع حسام للمقعد خلف عجلة القيادة مرةً أخرى.. نظر إليهم الجندي نظرة ظفرٍ.. استدارت السيارة عائدة من الطريق نفسه الذي جاءت منه.. وفي الثانية ظهراً، كانت جهاد تدير مفتاح شقتها بالباب، ودون أن تخلع حذاءها أو تبدل ملابسها، أمسكت بالآلة الكاتبة؛ لتكتب بعض المنشورات التي من المفترض أن توزع مساء اليوم، وقبل أن تنتهي من كتابة الفقرة الأخيرة، سمعت صوت طرقات على الباب.

حاولت "جهاد" أن تخفي الآلة الكاتبة في سرعةٍ قبل أن يمل الطارق، ويشعر أن في الأمر خطباً ما.. لابد أن الطارق أحد جنود الاحتلال، جاء ليستجوبها عن زيارة الصباح التي لم يُكتب لها النجاح.

بيدٍ مرتعشةٍ حاولت فتح الباب، بعد أن زادت الطرقات عنفاً، لكنها كانت المفاجأة، لم يكن الطارق سوى طارق ابن العم محمود.. نظر إليها "طارق" شذراً بطرف عينيه ثم قال:

-"جهاد"، والدي يريدكِ.

لم ترد عليه.. فقط أغلقت الباب، وصارت خلفه في خطواتٍ وئيدةٍ.. أخذت تنظر له من الخلف وتتأمل، كيف لهذا الكائن العجيب ألا يحوي داخله إلا الكره لها والحقد عليها.. وهي التي لم يرَ منها إلا كل خير، فإذا به يُكافئها، ويفعل كل ما هو قبيح تجاهها، وكأنها واحدةٌ من نسل إبليس.

انتبهت من شرودها على صوت باب الحديقة يفتح، دخل منه طارق أولاً.. صعد الدرج وهي تتبعه.. وجدت الجميع يلتف حول المائدة..

هش العم محمود في وجهها قائلاً:

-ماذا سيحدث لو أتيت للعيش معنا يا ابنتي، الجميع هنا يحبك.. انهض عن كرسيك يا طارق، جهاد هي مَن ستجلس بجانبي اليوم.. زفر طارق بعنفٍ ثم غادر كرسيه رغماً عنه.

أتت الأم، وابتسامة ودودة تزين وجهها.. وضعت صحاف الطعام على المائدة، وأخذت توزع الطعام في الأطباق قائلة:

-لا تمنحي تصرفات طارق الكثير من الاهتمام، حتى نحن يا ابنتي لا نجيد التعامل معه.

ضحك "طارق" ملء شدقيه ثم قال ساخراً:

-الحديث عني أصبح أهم من الحديث عن القضية الفلسطينيّة.

قال الوالد في أسى:

-لأنك من أهم أسباب سقوط القضية.

قال طارق مستنكراً:

-أنا!!!

وأخذ الحديث مساراً آخرَ غير محمود، فقالت الأم آمرة:

-كفوا عن الحديث، تناولوا أطباقكم بصمتٍ.

قال العم محمود:

-إلى متى سنصمت لابد من تقويم ابنكِ، إنه يعادي الفتاة، وكأنها قتلت كل أهله.

قال طارق ساخراً:

-مَن يدري؟ ربما هي بالفعل كانت السبب الرئيس لموت الكثيرين منهم، وآخرهم ابنتكِ.

نظر إليها نظرة ًنارية، ثم قال بصوتٍ عابث:

-بالمناسبة، الفتاة اليهودية زارتني في مكتبي بالأمس، وأخبرتني أنها تريد مقابلتكِ لأمر ضروري وعاجلٍ جداً، ولا يحتمل الانتظار، ولولا المراقبة الشديدة عليكِ؛ لطبيعة عملكِ كصحفية لقابلتكِ بنفسها في بيتكِ، لكن هذا حتماً سيكون فيه هلاكها، لذلك إن كنتِ تستطيعين مقابلتها الليلة في الثانية صباحاً عند أشجار الزيتون في آخر الحي بالطريق الغربي فلا ترددي، أخبرتني أنها ستكون بانتظاركِ هناك.

ثم قال موجهاً الحديث لأبيه:

-أجبني يا أبي، ترى ما الذي وراء هذه الفتاة اليهودية التي زارتني أكثر من خمس مراتٍ لمقابلة جهاد؟ ترى هل تريدها من أجل حل القضية الفلسطينية؟ّ! ثم أدارعينيه نحوها قائلاً:

-أم لأنكِ خائنة يا "جهاد"؟!

نهضت عن كرسيها في عنفٍ، لكن يد الأم استوقفتها بقوةٍ، ثم قالت في توسلٍ بنبرةٍ حانيةٍ:

-سامحيه يا ابنتي، أقسم لكِ إلّم يعتذر لكِ الآن؛ لتبرأتُ منه حتى يوم القيامة.

تناول طارق ملعقة من طبق الحلو، وكأن الأمر لا يعنيه.. أزاح كرسيه للوراء بهدوءٍ، ثم قال ساخراً:

-"جهاد"، لماذا هذه الكلمة بالذات تثير غضبكِ ألأنكِ بالفعل خائنة؟!

قال العم محمود في ضيق موجهاً الكلام لطارق:

-اخرج من المنزل ولا تعد أبداً.. واعلم أنه من الآن فصاعداً لن تجمعنا بك مائدة طعام، ما دمت تأبى إلا أن تكسر قلب الفتاة.

******

لن أنسى هذا اليوم ما حييتُ، يوم أن أطلق عليا طارق لقب الخائنة، عيناه تنطق بها منذ زمنٍ لكن لسانه لم يلفظها إلا اليوم.. بعد جدالٍ عنيفٍ بينه وبين أسرته كنتُ أنا السبب فيه، انتهى بقسم العم على طارق ألا يجتمع بابنه في المنزل أبداً ما دمتُ أنا هناك.

شيءٌ عجيبٌ، أن تفضل هذه الأسرة البسيطة فتاة لاجئة على ابنها الكبير.. العم محمود يحب طارقاً، ويثق به، ويتكأ عليه في كل أمور حياته، ويرتضي منه كل أخلاقه إلا طريقته في التعامل معي.. في الحقيقة أنا لا ألوم عليه شعوره العدائي هذا نحوي، وعلى كلٍ سأحله من كلام أبيه، ولن أرضى أن أكون حجراً يفصل بينه وبين عائلته.. لن يراني أحدٌ منهم ثانية بعد اليوم، سأذهب إليه وأعتذر له عما بدر من والده بسببي لكنني قبل أن أذهب سألقنه درساً قاسياً، وسأخبره أنني ما كنتُ يوماً خائنة.. لعلكم تتعجبون من موقفه تجاهي لكنني سأحكي لكم القصة من البداية.

أنا "جهاد"، اسمٌ على مسمى، غريبة في هذه الحياة، لا عشيرة تحميني، ولا نسب يمنع عني الأذى.. مصرية الميلاد، فلسطينية النشأة، لا أذكر من طفولتي إلا أحداثاً قليلةَ جداً، خاصة تلك الليلة التي لن أنساها أبداً، عندما حدثتنا أمي أنا وأخي كأننا رجال أشداء، يجب أن يحملوا معها المسئولية.. تنهدت ثم قالت:

-يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر لديه موقف من بقاء اليهود الأجانب، وغير معلومي الأصل بمصر ونحن منهم.. خاصة في ظل ظروف الحرب التي تخوضها الدول العربية مع إسرائيل، وهو ما أدى إلى تطور الأمر من معاداة لدولة إلى معاداة دينية مع اليهود، لذا لقد رتبتُ كل أمور السفر وسنغادر كلنا غداً في الصباح الباكر، تاركين خلفنا مدينة الإسكندرية، وكل مصر؛ لننعم بحياة هانئة في وطننا إسرائيل.

وفي اليوم التالي، غادرنا شقتنا بلا عودة.. طرقت أمي باب الشقة المقابلة؛ لتخرج لنا الخالة صفاء باكية؛ لعلمها بسفرنا، تركتها تودع أمي، وركزت كل اهتمامي نحو ابنتها صديقتي" حياة ".

بعد أن قبلتُ صديقتي " حياة "، واحتضنتها بقوة، انهمرت دموعي دون قصدٍ مني، قلتُ لها ودموعي تسبقني:

-" سأعود قريباً من أجلكِ ".. رغم طفولتي، كنتُ أعلم أنه في الحقيقة لا عودة لي، وأنه قد كتب علينا الفراق في كل محطات حياتنا.. أنا وأخي وأمي، تلك المرأة التي خذلها زوجها، وتوفى بعد إنجابها لي بثلاث سنين.. ذهب فجأة دون سلامٍ أو وداعٍ تاركها لمصيرها المحتوم لتواجهه وحدها دون أن يساندها أحد أو يرفق بحالها أحد.

احتضنت أمي جارتها بعدما حاولت جاهدة إخفاء دموعها، فما كان من الخالة صفاء إلا أن قالت بصوتٍ يحمل رنة البكاءِ:

-الوطن وطنكِ، وكلنا أهلكِ، لن يقترب أحد منكِ ولا من طفليكِ.. منذ أن توفى زوجكِ، وأنتِ تريدين الرحيل، هل قصر أحدنا معكِ أو أساء أحد لأولادكِ؟ نحن اعتدنا عليكِ، واعتدتِ علينا فلمَ السفر؟.. من أين ستأتين بجيرانٍ مثلنا في إسرائيل؟.

لم تجب أمي، احتضنتها من جديدٍ، وقلبتها قبلةً أخيرة.

كنتُ حينها أقنع صديقتي حياة ألا تصاحب أحداً بعد رحيلي، وأنا لن أمكث طويلاً بعيداً عنها وسأعود لنمارس ألعابنا سوياً من جديد.

انتبهتُ إلى صوت أمها وهي تقول لأمي:

-هذا كتاب قرآن، ضعيه في حقيبتكِ دائماً حتى يحفظكِ الله وأولادكِ به.

رغم أنني لم أر خالتي صفاء تقرأ منه يوماً، إلا أنني ودون قصدٍ مني كنتُ أشعر بقدسية هذا الكتاب الذي يجله ويحترمه المسلمون، لدرجة أن معظمهم يحفظه عن ظهر قلبٍ حتى صديقتي حياة، كانت واحدة من أولئك الأطفال الذين يذهبون يومياً إلى حلقات التحفيظ بالمسجد.. ولطالما طلبتُ من أمي الذهاب معها لكنها كانت ترفض في كل مرةٍ.. في النهاية أدركتُ أنني يهودية، ولا يحق لي الذهاب إلى هناك.

انتهت مراسم وداعنا مع أهل الحي، بعضهم حزين والبعض الآخر شامت.. على كلٍ لم يكن هذا يعني فتى في الثامنة من عمره، وفتاة في السادسة من عمرها.

وعلى متن سفينة " زيم " الإسرائيلية التي كانت تحمل آخر فوجٍ من اليهود المقيمين بمصر؛ لتقلهم إلى أرض الوطن إسرائيل.. تجاوز عددنا المائة والخمسين، كلنا من يهوديي الديانة سواء مصريين الأصل أم لا.

أخبرنا ربّان السفينة أن المسافة لإسرائيل تستغرق أكثر من عشرة أيامٍ، فليتحل الجميع بالصبر.. لم أنتبه لكلام الربان عن الوقت، ولو انتبهتُ لتمنيتُ أن يطول الوقت أكثر من هذا، لم لا وأنا سأقضي كل هذه الأيام في اللعب مع أخي الذي يكبرني بعامين على متن سفينة بقلب البحر الأبيض المتوسط.

لطالما أشار هو منبهاً إياي لأحد الشعب المرجانية الزاهية الألوان والجميلة التفاصيل.. ولطالما لفتُ انتباهه لأحد النجمات البارزة ليلاً، مقيمين شجاراً في النهاية من أجل تحديد مَن يملك هذه النجمة مطلِقاً عليها اسمه إما أنا وإما هو.. وفي أحد المرات، قطع شجارنا فجأة صوت صريخ والدتي وهي تصيح:

-لستُ جاسوسة أو خائنة، هذا كتاب قرآن، أهدتنيه جارتي المسلمة، معتقدة أنه سيحفظني من كل شر، لم أستطع ردها فقبلته كهدية.. تعالت الأصوات، وكثر اللغط، وأمسك أحدهم بالكتاب فألقاه في اليم.. انتفضتُ أنا، وشددتُ على يد أخي وباعتقادٍ طفولي، ظننتُ أن الشيء الوحيد الذي يحفظنا قد فقدناه.

ارتفع صوت أمي، بعدما لطمها الرجل الذي ألقى الكتاب في البحر على وجنتها فسكنت قليلاً لتستعيد قوتها ثم أعادت له اللطمة.. جنّ جنون الرجل، وأمسك أمي من عقصة شعرها مجرجراً إياها إلى غرفة السيدة شيرا مشرفة الترحيل في السفينة.

اقتربت المرأة من أمي بمجرد سماعها الكلمات من فم الرجل الذي أضاف إلى ما حدث أحداثاً أخرى كذباً وافتراءً قائلاً وهو ينظر لأمي بتشفٍ:

-لقد قالت لي السيدة قبل أن توجه قبضتها إلى فمي، لماذا ألقيت الكتاب يا سارق الأرض والعرض؟ لعنة الله عليك وعلى كل إسرائيل.

ودون أن تستفسر السيدة شيرا من صدقه اتجهت إلينا ملوحة بإصبعها في وجه أمي ومهددة إياها:

-سنحرمكِ من دخول البلد الذي تلعنين.. وما دمتِ تعتقدين أننا سارقو الأرض، فلماذا أنتِ ذاهبة إلينا؟ أوقفوا السفينة.. قالت السيدة شيرا آمرة.

******

انفجارٌ عنيفٌ بالواجهة المقابلة، قطع عليها سيل الذكريات التي أمامها.. تقدمت نحو النافذة، وفتحتها فوجدت الكثير من الأشخاص يتوافدون إلى المنزل المقابل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لم تمضِ بضع دقائق حتى جاء أحد الأطفال يهتفُ من بعيدٍ:

-اليهود يهاجمون البلدة، أغلقوا النوافذ، وأطفئوا المصابيح.

لم يتحرك أحد، بل ازداد نشاط الجميع، وكأنهم خلية نحل، قال أحدهم هاتفاً مرة أخرى:

اليهود على مشارف البلدة، سأله طارق بعصبيةٍ:

-مَن قال لك؟!

-لقد رأيتهم بعيني، إنهم يقتلون كل مَن يقابلهم.

في تلك اللحظة تحديداً، تركت جهاد موقعها خلف النافذة، ثم أمسكت بآلة التصوير الخاصة بها على عجل، وهبطت درجات السلم الخارجي؛ لتوثيق هذا الانفجار لكنها بعد دقائق قليلة عن بدء التصوير فوجئت بطارق يضع يديه على مقدمة الكاميرا هاتفاً بحمقٍ:

-كفاكِ رعونةً.. الوقت ليس وقت تصوير، إنه وقت إنقاذ.

ردت عليه ببرودٍ ودون أن تنزل آلة التصوير:

-إذن، قم بدورك أنت في الإنقاذ، أما أنا فدوري هو تعريف العالم أجمع ما تقوم به إسرائيل عند منتصف الليل!

جذب منها طارق آلة التصوير بعصبية ثم قال حانقاً:

-ألم تسمعي قولهم بأن اليهود على مشارف البلدة؟ لو رآكِ أحدهم وأنتِ تقومين بالتصوير لقاموا بتفجيرنا نحن أيضاً، ولن يسلم من الحي أحد.

-ليكن.. ما الفرق بين الحياة التي نحيها الآن وبين الموت؟

-هو الفرق ذاته بين الموت في بيوتنا والموت في ساحة معركة.

-إذن، فاذهب أنت؛ لتمارس واجبك في ساحات المعارك، واتركني أمارس واجبي بين شوارع القرى وأزقة غزة.

-كفاكِ سخافة، الوقت ليس وقت جدال.

-إذن، فاذهب عني واتركني وشأني.

جذبت آلة التصوير من بين يديه، ولّته ظهرها، وأكملت ما كانت تقوم به.. لابد أن يرى الجميع هذا التفجير الشنيع الذي لم يهدف لشيءٍ سوى القضاء على الشاب " أحمد ناصف ".

ذلك الطبيب الذي شهد الجميع حفل تخرجه أول أمس، الجميع منحه التهنئة والتبريكات إلا خطيبته لقد قتلها أحد جنود الاحتلال قبل عامين، عندما كانت عائدة من القدس القديمة.. نزع أحد اليهود عنها حجابها متلذذاً بالغضب الذي يلوح على وجهها، فما كان من الفتاة إلا أن بصقت في وجه ثم أتبعت البصقة بسيل من الحجارة التي وصلت إحداها إلى هدفها وأصابت عينيه.. فما كان من الجندي إلا أن أطلق الرصاص عليها لتستقر إحدى الرصاصات بمنتصف جبهتها.. ولم تعد الفتاة إلى بيتها إلا جثةً هامدةً محمولةً على الأكتاف.

منذ تلك الحادثة، ولا هدف لأحمد في هذه الحياة إلا أن يتخرج في كلية الطب كما كانت تحلم خطيبته دائماً، لقد كانت هي الأخرى زميلة له بالجامعة نفسها.. أراد ألا ينتهي دوره في هذه الحياة قبل أن يحقق حلمها بنجاحه.

بعدما انتهى حفل التخرج أول أمس، وقف الشاب أما قبرخطيبته قائلاً:

-لقد أنجزتُ ما كنا نحلم به سوياً، وحققتُ الحلم الذي كنتِ به تحلمين، ولم يتبق لي إلا الثأر.. وأعدكِ أننا سنلتقي قريباً.. قريباً ينادي عليكِ أحد الملائكة قائلاً:

-الطبيب الشهيد " أحمد ناصف " يريدُ خطيبته فاجمعوه بها.

لم يصدق أبناء الحي أن أحمد سيضحي بحياته عاجلاً هكذا من أجلها، إلا أنا كنتُ أشعر أن الفقد الذي يستوطن قلب الشابِ سيدفعه لأن يفعل، وبالفعل بالأمس تم تفجير أحد الدوريات الإسرائيلية التي تستقر على مشارف الطريق الشرقي للحي.. وأشارت أصابع الاتهام كلها إلى الطبيب الشاب، وهكذا لم يمض اليوم إلا واسمه بين عداد الشهداء.

تنبهت جهاد من شرودها على صوت التكبيرات التي تهز أرجاء المكان وأحدهم يهتف:

-" لا إله إلا الله.. الشهيد حبيب الله ".

لقد نجحوا في استخراج جثة الشهيد من تحت الأنقاض.. حاولت أن تنخرط بين الواقفين، فما كان منهم إلا أن أفسحوا لها الطريق، بعدما لفت انتباههم آلة التصوير التي تحملها.. ركزت التصوير على الجثة الممدة فوق المحمل.. الرأس المهشم، واليد المقطوعة التي تستقر إلى جانب صاحبها لم يمنعاها من إكمال التصوير.. من الآن فصاعداً يجب ألا تجزع لمثل هذه الأمور، فقد باتت مثل هذه المشاهد هي التي ستنام وتستيقظ على رؤيتها.

في تلك اللحظة تحديداً انتبهت إلى أن أحدهم ينحني على الرأس المهشم ويقبله، وهو يهتف في بكاءٍ:

-والله ما توقعت أن تبيت بمنزلك في هذه الأيام يا أحمد.. لطالما طلبتُ منك أن تغادر الحي، وألا تعود الآن.. ولطالما حاولتُ إقناعك أن مرضانا بحاجةٍ إليك، لكنك أخبرتني أن روحك قد عافت الحياة فلمَ العيش؟!

اليوم أدركت أن وفاتنا أهم من حياتنا، وأن لموتنا قيمة أكثر من استمرارنا على قيد الحياة، وأن هذا الوطن لن يحرر إلا إذا قدمنا أرواحنا قرباناً على معبده.. اذهب في سلامٍ يا صديق طفولتي، ويا رفيق دربي، ويا جاري الشهيد.. سقطت دمعةٌ من عيني جهاد فلم يكن المتكلم الباكي سوى

" طارق " .

تعالى في الأفق صوت عربات الدوريات الإسرائيلية، فما كان من جهاد إلا أن ركضت نحو بيتها يتبعها طارق الذي أمسك بها قائلاً وهو يلهث:

-لا تخفي آلة التصوير في منزلكِ يا جهاد، لابد أنهم سيقومون بتفتيشه.

نظرت حولها في حيرةٍ، لكنه قال وهو يمسك بالآلة:

-اتركيها لي، سأتكفل أنا بإخفائها.

وقبل أن تجيب، كان طارق قد أمسك بالآلة راكضاً بها نحو الحديقة الخلفية لبيتهم.

******

نظر الجميع إليها وعيونهم مترقبة، ترى بماذا ستحكم السيدة شيرا على المرأة وطفليها؟ ووسط ذهول الجميع قالت تلك السيدة المتعجرفة:

-ألقوها وأبناءها في اليم، إنها جاسوسة.

ركضت أمي نحونا، وانحنت بمحاذاتنا لتحتضننا معاً، ونظرت إلينا بعينين تملؤهما الدموع؛ لتلقي علينا نظرة الوداع، حينها كانت السيدة قد أصدرت الأمر، وعندما لم يتحرك أحد من الرجال الموجوديون على السفينة، قالت السيدة بهدوءٍ يثير الخوف من كل ما هو إسرائيلي:

-ما بكم يا رجال؟ أنقذوا وطنكم من مثل هؤلاء الخونة، ثم إنه لم يتبق بيننا وبين الشاطىء سوى أميالٍ قليلة، ومن الممكن أن تنجو هذه الشقية وأبناؤها.

لم تكد المرأة تنتهي من كلامها، حتى تحرك الرجل الذي كان سبب الشجار من البداية.. أمسك بأمي ورجل آخر أمسك بي.. امتلأ قلبي بالفزع، ونظرتُ تجاه أخي الذي فر الدم من عروقه كلها واستقر بوجه، ثم حولتُ بصري ناحية أمي، فوجدتها تبكي بين يدي الرجل وتهتف بصوت عالٍ:

-أبنائي... "الملتقى الجنة"

هنا ركض يوسف نحوها محاولاً الدفاع عنها، فأمسكت أمي بيده وجذبته بعيداً عن الرجل، وقالت مكررة تذكر هذا جيداً:

-يوسف.. "الملتقى الجنة"

لمعت الصواريخ في السماء وكأن الحرب العالمية قد اندلعت من جديد.. ألقى الرجلان بنا ولامس جسدي المياة الباردة ولم أعد أتذكر شيئاً.

******

اليوم حدث شجار عنيف بيني وبين أبي كانت جهاد سبباً فيه، تلك الفتاة التي ساقها القدر إلينا منذ سنين؛ لتنغص علينا حياتنا؛ ولتحل لعنتها على أسرتنا الصغيرة..

نجحت في الوصول لقلب أبي وأمي، فأصبحا يعاملانها وكأنها ابنتهم بل أغلى أبنائهم على الإطلاق، في حين كنتُ أنا لا أطيق النظر في وجهها لمدة دقيقةٍ واحدةٍ.

أكنّ لها شعور الكراهية منذ أن رأيتها وأنا طفل صغير، حينها كنت طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره التاسعة.. طفلٌ لا يشغله من الدنيا شيءٌ سوى أن يتوقف دك المباني بالصواريخ لساعةٍ واحدةٍ فقط حتى يتمكن من اللعب مع أقرانه، كل معاناتي تنصبُ حول رفض أمي خروجي من المنزل لممارسة اللعب كحقٍ شرعي لكل طفلٍ في مثل عمري، وكانت حجة أمي الوحيدة أنها تخشى أن تصيبني إحدى رصاصات بني صهيون الغادرة.

عجباً، ألم تدكّ الصواريخ مَن هم في بيوتهم وعلى فروشهم؟.. ألم يكن سبب رحيلنا من القدس القديمة قبل ثلاث سنوات تلك المذبحة التي أقامها اليهود على أولئك العزل الذين لم يبرحوا ديارهم ولم يغادروا فروشهم؟.. في النهاية رضخت لأمر أمي فلا مفر منه.

جلستُ أنا وأختي زهرة نلعب الورق مرة ونتشاجر مرة أخرى، حتى يُداعب النعاس أجفاننا وننام، لكن لم تمر ساعة ونصف الساعة، حتى سمعنا صوت طرقاتٍ مسرعةٍ على باب منزلنا، ظننا كلنا أن أحدهم جاء؛ لينبهنا بعدم الخروج من المنزل؛ لوجود بني صهيون في الخارج، وعندما ذهبت أمي لتفتح الباب، والقلق مرتسمٌ على ملامحها، لم يكن الطارق سوى أبي واثنين من زملائه يلهث جميعهم من فرط التعب.

وضع أبي ما كان يحمله بين يديه بحرصٍ شديدٍ، ولم يكن حمله سوى امرأة تبدو في أواخر العشرين من عمرها، وإلى جانبه وضع زميل له طفلة صغيرة يبدو أنها أصغر مني بقليل.

هتف أبي لأمي قائلاً:

-لقد وجدناها تصارع الغرق أثناء صيدنا وتتمتم:

-أبنائي أبنائي.. وما أنقذناها حتى فقدت الوعي.. وضعناها في القارب، وبعد بحث طويل لم نجد سوى هذه الصغيرة.. سنذهب بالصغيرة إلى المشفى، فحالتها تبدو خطيرة، أما أنتِ فاعتني بالمرأة جيداً حتى أعود.

خرج أبي حاملاً الفتاة الصغيرة مع رفيقيه، وبقيتُ أنا وأختي نرقب تلك المرأة، نرقب كل حركةٍ من حركاتها، وكل سكنةٍ من سكناتها، حتى فتحت عينيها فذهبنا مهرولين إلى أمي التي عادت حاملة بين يديها كوب أعشاب ساخنة.. وضعته بجانب السيدة التي ما إن فتحت عينيها حتى بادرتها أمي بابتسامةٍ قائلةً:

-حمداً لله على سلامتكِ.

تمتمت ببعض الكلمات التي لم تتعدَ شفتيها.. وضعت أمي بجانبها جلباباً فلسطينياً ومنشفة ثم قالت:

-الطريق إلى دورة المياة من هنا، لكن المرأة كانت تردد في وهنٍ بعض الكلمات التي فهمنا منها أنها تسأل عن أبنائها، وقبل أن تجيبها أمي مطمئنةً إياها على الفتاة، فقدت المرأة الوعي من جديد.

بعد دقائق قليلة عاد أبي حاملاً الفتاة وجلس بجانب المرأة في صمتٍ ليتأمل ملامحها التي خطها الحزن بخبرة سنين.. ثم قال موجهاً الكلام لأمي:

-لا تقلقي، غداً سنعرف كل شيءٍ.

هذه كانت البداية التي حُفرت في ذاكرتي رغم صغر سني، وتلك كانت الحكاية التي قلبت مجرى حياتنا رأساً على عقب.. ورغم مرور تسعة عشر عاماً على هذا اللقاء، إلا أنني أشعر أنه قد حدث البارحة.. صوت انفجارٌ عنيفٌ عم أرجاء المكان فلم يدرِ طارق بنفسه إلا وهو يركض إلى الخارج يتبعه والده وأخوه الصغير.

****

الفصل الثاني

إنهـا غــزة

قبيل الفجر بقليلٍ، عادت "جهاد" إلى فراشها مرةً أخرى، بعدما أمر جنود الاحتلال بمواراة جثة الشهيد التراب، قبل أن تشرق عليه شمس الغد، خوفاً من الغضب الذي سيغلي في عروق الجميع أثناء جنازته إن تُركت للصباح.. وحتى لا تنقلب الجنازة إلى ثورة، فتندلع المجازر من جديد.

حاولت "جهاد" استجلاب النوم إلى جفنيها بصعوبة، لكنها لم تستطع..

الحياة في غزة عجيبة.. يمكنك أن تنام على جنازة، وأن تستيقظ على زفافٍ.. يمكنك أن تسمع زغرودة، فلا تعلم هل انطلقت من أم عروس أم من والدة شهيد.. يمكنك أن تمشي في زفاف، فيجمعك الطريق بعزاء، فلا يسعك إلا أن تبارك للعروسين.. فالأول شهيد والثاني عريس.. إنها غزة تجمع كل شيءٍ بضده، الموت والحياة.. اليأس والإصرار.. الحب والحرب!

ومع ذلك لابد للحياة أن تستمر بالشكل الطبيعي لها.. لابد للشاب أن يتزوج، للطالب أن يتخرج، وللنسل أن يستمر.

حاولت "جهاد" أن تتدثر بالغطاء جيداً، لكن قفزت إلى ذهنها فجأة صورة نجمة داوود التي كانت موضوعة وبعناية على مقدمة السيارات اليهودية التي شهدت جنازة الطبيب.. ألم تكن النجمة هذه هي ذات النجمة التي كانت تزين صدر والدتها

قديماً؟.. ألم تذهب مع أمها وأخيها مراراً إلى المعبد، عندما كانت طفلة؛ لأداء الصلاة بالمعبد اليهودي بالإسكندرية؟.. بل إن أمها جاءت بها إلى هنا على متن سفينة يهودية.

ترى هل هي بالفعل من نسلٍ عائلة يهودية تدين بتلك الديانة، وتنتمي للدولة ذاتها التي تغتصب أراضي غيرها؟.. قطعاً، هي كذلك ودون ذرة تفكيرٍ واحدةٍ.. لكن إن كانوا بالفعل يهوداً، فلماذا في تلك الليلة الموعودة، بعدما أنقذهما العم محمود، وبعدما استردت أمها جزءاً من عافيتها في آخر الليل، ألم توقظها وهي تقول في همسٍ يشبه البكاء:

-سأخرج الآن، وسأحاول قدر استطاعتي أن أعود، وإن لم أستطع، فاعلمي يا حبيبتي جيداً أنكِ مسلمة، مثلكِ مثل أهل هذا البيت تماماً.

نظرتُ لها الصغيرة في عدم فهمٍ، لكنها أردفت:

-أعلم أن عقلكِ الصغير لا يستوعب مثل كل هذا، لكن لا وقت لدي للشرح.. لكن إن لم يقدر الله لي العودة، فاعلمي جيداً أنكِ تدينين بالإسلام.. وأن نبيكِ هو النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " وأن اسمكِ الحقيقي " جهاد " وليس " جيسي " كما كنا نطلق عليكِ في مصر.

انسيْ أمر المعبد اليهودي تماماً، ولا تذكري زيارتكِ له أمام أحدٍ، ومن الآن فصاعداً، فلا اسم لكِ سوى " جهاد "، ذلك الاسم الذي سماكِ به أبوكِ، وارتضيته أنا اسماً لكِ.

قبّلتني أمي قبلةً حانيةً، تركت آثار دموعها على وجنتي، ومنذ تلك اللحظة، وأنا لا أعلم عن أمي شيئاً حتى الآن، خرجت ولم تعد، ولا أعلم هل هي ميتة أم ما زلت

حية ترزق؟.. ولا أعلمُ لماذا جاءت بنا أنا وأخي يوسف الذي لم تقدر له الحياة إلى هنا؟.. ولا لماذا رحلت من هنا؟.. لا أعلم هل أنا يهودية الديانة كما تربيتُ وتعلمتُ، أم مسلمة الاعتقاد كما نشأتُ وترعرعتُ؟.. لكنني وعلى كل حال شببتُ على الإسلام واطمأننتُ له وركنتُ إليه.

******

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة والنصف، عندما توقفت سيارةٌ سوداءُ كبيرة أمام مبنى الموساد بتل أبيب.. هبط منها رجل رشيق القد، ممشوق القوام، وسيم الملامح، ذو عينين زرقاوين، وشعر بنيٌّ داكنٌ.. وبملامح جامدة، ودون أن يبتسم، أبرز بطاقته للجندي المكلف بحراسة المبنى، ثم ألصق إبهامه بأحد الأجهزة التي قارنت بصمة إصبعه بالبصمات المسجلة لديها.. حينها، انفتح الباب الخارجي للحديقة، فاجتازها الوسيم بخطواتٍ واسعةٍ، ثم تقدم إلى المبنى في سرعةٍ، وقبل أن يصعد درجات السلم المؤدي إلى مكتبه، هتف به أحد موظفي الاستقبال:

-سيادة الرئيس يريدك في مكتبه يا سيدي.

تحول الوسيم إلى السلم الآخر المؤدي إلى مكتب الرئيس.. ولم تمض بضع دقائق، حتى كان في مكتبه.. ابتسم الرئيس ابتسامة باهتة، ثم سأل مستفسراً:

-ألا زالت والدتك تشتكي الصداع الذي يكاد يعصف برأسها؟

أومأ بوجهه أن نعم، ودون أن ينطق.

-لطالما تحملت والدتك من العناء الشيء الكبير، حتى يكبر هذا الوطن أمام عينيها، وكأنه طفلٌ لها.. لعل ما تصارعه الآن نتيجة ضغط نفسي تراكم بصدرها دون أن

تشعرهي، ودون أن تمنح روحها الفرصة لتتجاوزه.. سنحاول نحن نقلها لمصحةٍ نفسيةٍ خاصةٍ بعملاء الموساد الخاصين.. الخاصين جداً.. لا تقلق، سنتولى نحن الأمر.

تحرك الرئيس من خلف مكتبه، ثم عقد ساعديه أمام صدره، موجهاً الكلام للجالس أمامه قائلاً:

-الجميع يلحظ مجهودك الخرافي الذي تبذله من أجل بناء الوطن على هذه الأرض.. وهذا بدوره، كان السبب الرئيس في لفت جميع الأنظار لمن هو " إيلان إيرائيل ".

لذلك، لقد قررتُ إبعادك لمدة من الوقت عن إسرائيل، حتى تهدأ نظرات جمعيات حقوق الإنسان ومجالس الأمن نحوك.

مط "إيلان" شفتيه قائلاً:

-ولكنني لا أستطيع أن أجلس في منزلي كما النساء يا سيدي.. أنا أتنفس العمل من أجل هذا الوطن.

-ومَن قال إنك ستجلس كما النساء بلا عمل؟.. لقد وقع الاختيارعليك لتنفيذ مهمةٍ أهم.. ولعلمي أنك من أكفأ ضباط الموساد، فلم أجد أفضل منك يقوم بها.

-وما هي؟

-مهمة سرية في قلب القاهرة.

-القاهرة!!!

-أجل القاهرة.. لقد أبلغتنا مصادرنا الخاصة، أنهم يعدون العدة لملاقاتنا مرة أخرى من أجل القضاء علينا، وإبادتنا تماماً من المنطقة.

لقد انتهينا من إعداد الأوراق اللازمة.. وهذا جواز سفرٍ أمريكي يحمل اسم " حازم عبدالسلام "، وهذه هي الشخصية التي ستنتحلها طوال إقامتك في القاهرة.

أما عن مهمتك الرسمية، فهي المحاولة، وبأي طريقةٍ التعرف على الناشطة الحقوقية "حياة حمدي"، رئيسة هيئة الأخصائيين الاجتماعيين لجنود الجيش المصري.. حياة هذه فتاة نشيطة للغاية، ويمكنها أن تضحي بروحها من أجل مصر، أو من أجل أية دولةٍ عربيةٍ أخرى، لذلك فهي تبذل قصارى جهدها من أجل أمن وسلام دولتها.. لذا فقد قررت النزول بنفسها بين صفوف الجيش المصري، وهي المسؤولة عن حل مشاكلهم الشخصية التي قد تتعلق بهم أو بذويهم الموجودين بالمدن والقرى.

وكما أنها مسؤولة أيضاً عن رفع الروح المعنوية للجنود، وإعادة النشاط النفسي للمحبط واليائس منهم.. وعلى صغر سنها، نجحت في أداء المهام المكلفة بها على أكمل وجه.

في طفولتها، لطالما قامت بتمثيل دور الفتاة التي أوقعت ضباط الإنجليز في حبها على مسرح مدرستها.. ولطالما قادت الثورات، وهتفت في الشوارع، واعتصمت في الميادين، من أجل رفع الروح الوطنية، وبث حب الوطن في قلوب الجميع.. مما أدى إلى التفات أنظار جهاز المخابرات المصري نحوها، فما كان منهم إلا أن قاموا بتعيينها في هذا المنصب الخطير والحساس جداً؛ لإضفاء بعضٍ من الطاقة الإيجابية التي تملكها إلى الجنود.. فما كان منها إلا أن أدت دورها على أكمل وجه.. وحتى الآن، الكل يحترمها، ويقدرها، ويعتبرها لا تقل أهمية عن قائد القوات المسلحة نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، لعبت "حياة" دورمستشار رئيس الجمهورية في العديد من القرارات التي أصدرتها الرئاسة المصرية في الفترة الأخيرة.

هذا ملف كامل يحمل كل المعلومات التي يمكن أن تحتاجها عن هذه الناشطة، بداية من حياتها بالإسكندرية، وحتى وصولها إلى مستشار رئيس الجمهورية.

مدة إقامتك في القاهرة لن تتجاوز الثلاثة أشهر، في هذه المدة القياسية، نريد أن نعرف كل حركة من حركات الجيش المصري، وكل سكنةٍ من سكناته.. عدد جنوده، ودول تصنيع مدرعاته.. كم دبابة يملك؟ ومَن هم أقطاب القوات المسلحة المصرية؟ حياتهم وأولادهم.. عدد ثكناتهم العسكرية، والكمائن التي تحمي حدودهم.

أما الجزء الأهم، فنريدك أن تتجول داخل عقولهم، وأن تسبر أغوارهم، وأن تغوص في أعماقهم؛ لكي تعلم في ماذا يفكرون؟ وما هي خطواتهم القادمة حتى نباغتهم نحن بها؟.. نريدك أن تبلغنا تحركاتهم وقراراتهم، ونقاط ضعفهم، حتى نوجه نحن ضربتنا من خلالها.. ونقاط قوتهم، حتى نركز نحن جهدنا عليها.

ابتسم الرئيس ابتسامة مفتعلة، ثم مد يديه مصافحاً، وهو يردف قائلاً:

-ستنطلق بك الطائرة غداً من تل أبيب إلى أمريكا في الثامنة صباحا، حتى لا يشك بك أحد، ومن هناك يمكنك أن تستقل إحدى الطائرات إلى مصر كأي مواطن أمريكي عادي.. ثم أردف الرئيس قائلاً:

-هل أدركت ما تحتمّ عليك فعله؟

شد إيلان قامته واقفاً، وهو يقول:

- أنا رهن إشارة الموساد يا سيدي.. كل المعلومات التي طلبتَ ستكون عندك في أقل من الثلاثة أشهر.

- يبدو أنك تتمتع بروح معنوية عالية، على الرغم من كل تهديداتهم لنا بإبادتنا من المنطقة.

- إنني إيلان يا سيدي، أحد ضباط أهم جهاز مخابرات في العالم.

- يبدو أنك مسرفٌ في التفاؤل، وهذا ما جعل اختياري يقع عليك أنت بالذات، دون أي ضابطٍ آخر..

انحنى إيلان مؤدياً التحية.

******

في اليوم التالي، استيقظت "جهاد" مبكرةً حتى يتسنى لها مقابلة "طارق" قبل الذهاب إلى عمله؛ ليحضر لها آلة التصوير الخاصة بها.. قررت انتظاره أمام باب حديقة بيتهم، حتى يخرج.. فهي لن تدخل هذا البيت بعد الآن إلا لضرورة، أوعندما تحتّم عليها الظروف.. هذا البيت الذي نشأت وترعرعت بين جدرانه، ولم تعرف لنفسها أهلاً إلا ساكنيه.. رغم ما مرت به من محن داخله، إلا أنهم في الأخير قد صبوا عليها الحب صباً، وعاملوها كما لو أنها واحدة منهم.

وعادت بذاكرتها للوراء عندما جاءت إلى هذا البيت، حينها كانت طفلة في السادسة من عمرها.. غير قادرة على احتمال كل هذه الأهوال التي تشيب لها رؤوس الولدان.. فقدٌ يتلوه فقدٌ، ومحنة تتبعها محنة.. طفلة يتيمة، فقدت أخاها الوحيد رفيق

سنواتها الست، ووالدتها التي لم تتوقع يوماً أن تغادرها، لكنها وعلى العكس تماماً خيبت كل آمال ابنتها الطفولية، عندما ابتعدت هكذا وبدون سبب عنها تاركةً إياها في بيت لا يتقبل وجودها فهي ليست منهم وهم ليسوا منها.

قضيتُ أيامي الأولى في بيت العم محمود كأنني في صراعٍ، لا أحد منهم يتحدث معي أو يجالسني، وأذكر تلك المرة التي حاولت فيها زهرة ابنة العم محمود اللعب معي.. عنفتها أمها أمامي قائلةً:

-ألم آمركِ بعدم اللعب معها، أو الحديث إليها حتى نعلم مَن أبوها ومَن أمها؟..

خرجت الفتاة من الغرفة باكيةً.. أغلقت الأم باب الغرفة التي أقطنُ بها في عنفٍ، وتوالت إلى سمعي تهديداتها لصغيرتها دون رفقٍ منها أو هوادة.

رغم ذلك، كانت الأم تهتم بإطعامي جيداً لكن بشكلٍ غير آدمي.. كانت تطرق باب غرفتي، ثم تدخل دون أن تتلقى جواباً مني بالدخول.. فتضع أطباقاً من الطعام دون أن تنبس ببنت شفة.. كنتُ كقطٍ جائع، وجدوه مبتلاً يهطل عليه المطر في أحد الشوارع الجانبية.. رفقوا بحاله، وقرروا الاهتمام به لكن دون أن يمنحوه ذرة من الحب أو العطف.

لم تغفر طفولتي لي ما فعلته أمي.. ظنّ الجميع أن أمي لم تكن امرأة شريفة.. لذلك قررت الانتحار بعدما لم يتقبل المجتمع وجودها هي وابنتها داخله.. تباً لهم جميعاً، مالي أنا بكل هذا.. تباً لأبي الذي توفي مبكراً، وتباً لأخي الذي أفتقده، وتباً لأمي التي رحلت.. تباً للجميع!

لابد أن أرحل أنا الأخرى.. مكاني ليس هنا، لا مكان لي في هذا العالم بأكمله.. مرت الأيام تليها الشهور، وأنا على حالتي تلك، لا أمي تعود، ولا العم محمود وأولاده يتعاملون معي، الكل يتجاهلني، ويتجاهل وجعي الذي يكاد يفتك بقلبي الطفولي.

وفي ذلك اليوم، وبينما كنتُ ذاهبة إلى دورة المياة، إذا بي أجد نافذة المنزل التي تطل على الحديقة الأمامية للبيت مفتوحة.. صعدتُ الأريكة؛ لأرى ما سبب هذه الضحكات التي تتعالى من خلف النافذة؟!.. إنهم طارق وزهرة معهم بعض أبناء الحي يلعبون ويركضون.. يتسلقون أشجار الحديقة بخفة؛ ليختبئوا بين أغصانها؛ ليأتي طارق ويبحث عنهم، ويرديهم قتلى جميعاً.

أحببتُ اللعبة، تركتُ مكاني خلف النافذة، وذهبتُ إليهم طالبة منهم الانضمام للعب.. نظر طارق إليّ بغلٍ ثم قال:

–لن تلعبي معنا، اذهبي لغرفتكِ، لكن زهرة أمسكت بيدي، طالبة منه أن يسمح لي باللعب معهم، لكن طارق قال مهدداً:

–لن يلعب معها أحد، إنها لقيطة لا أب لها.

التفتت نظراتهم نحوي.. كانت كلمة طارق الأخيرة بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجوههم، نظروا إليّ شذراً بنظرات رجالٍ راشدين، لا كأطفال لم يتجاوز عمر أي منهم العاشرة.. نظراتٍ باردة تقع على جسدي كالكرابيج.. لملمتُ خيبتي، وعدت لغرفتي الصغيرة في انتظار عودة العم محمود الذي سأشكو له ما فعله طارق بي؛ لينتقم لي منه.

ولكم كانت خيبتي، حين عاد العم محمود، ولم يمنح الموضوع كثير اهتمامٍ بل قال متوعداً:

-لا تقلقي سأؤدبه لاحقاً، ودخل إلى غرفته.

وعدتُ إلى غرفتي.. مسحتُ دموعي بكفي الصغيرة.. وضعتُ وشاحاً على شعري مثلما تفعل خالتي أم طارق، عندما تريد التحدث إلى رجل، وعقدته حول عنقي بأصابع لم تدر لماذا أفعل هذا؟ لكن حينها رغم طفولتي كنت أستجلب شفقته.. خرجتُ إليه، وجلست قبالته تسبق دموعي شفتاي قلتُ له:

-أودُ أن أرحل من هنا.

نظرت زوجته إليّ بعطف لا يخلوا من الاندهاش قائلةً:

-وأين ستذهبين؟

قلتُ ببراءة:

-إلى بيتنا في الإسكندرية.

-الإسكندرية!!!.. قال العم محمود.

-نعم.. تلك المدينة التي كنا نقطنُ بها قبل أن تأتي أمي بنا إلى هنا.

-ولماذا أتت بكم إلى هنا ؟

حينها، حكيت للعم "محمود" كل ما جرى لنا، بعدما حدثٍّ عن ذكر المعبد، وأصلنا اليهودي كما أوصتني أمي.. ومنذ تلك اللحظة، والعم "محمود" يعاملني كابنته، بعدما شعر بالألفة تجاهي؛ لكوني مصرية الجنسية.. تلك البلد، التي سافر لها

أخوه الوحيد، طالباً العلم في أزقة الأزهر منذ عشر سنين.. لكن بعد عامين من سفره، انقطعت أخباره، وتوقفت رسائله، ولم يعد يعرف العم محمود هل أخوه ما زال على قيد الحياة أم أنه انتقل إلى رحمة ربه؟.

قطع حبل ذكرياتها صوت طارق وهو يسأل في تعجب:

-"جهاد".. لماذا تقفين هكذا؟.. أمي في الداخل سألت عنكِ.

-سأمر عليها عند عودتي من العمل.

-عجيبٌ أمركِ.. أنتِ تتعمدين المرورعليها كل صباح قبل ذهابكِ للمحطة!

تجاهلتُ تعليقه عمداً ثم هتفتُ:

-وددتُ أن أسأل عن آلة التصوير.. لابد أن يُذاع التقرير الخاص بالدكتور" أحمد ناصف " اليوم.

-وما المشكلة إن تأخرتِ في إذاعته ليومٍ أو اثنين أو حتى أسبوع.. خروجكِ بآلة التصوير من منزلنا الآن لن يكون محموداً .. اليهود يمشطون الحي كله؛ لردع من تسول له نفسه الثورة على ما حدث.. اتركيها عندي ليومٍ أو اثنين ريثما تهدأ الأمور، وعند ذلك يمكنكِ أخذها في أي وقتٍ.. تنتظرين سيارة المحطة أليس كذلك؟

-لا.. اليهود يملؤن المنطقة.. سأحاول الذهاب بالمواصلات العامة، أو حتى سيراً على الأقدام.

-يمكنني أن أوصلكِ في طريقي.

-شكراً لك.. ودون أن تسمع رده سارت في طريقها.

اتجه طارق إلى سيارته، وهو يغمغم محدثاً نفسه:

-ماذا بها.. لماذا هي شاردة هكذا، وعلى غير العادة.. هي التي تشتعل حيويةً ونشاطاً في أحلك الأوقات، ترى ما الذي حل بها ؟!

مط شفتيه متعجباً.. أدار السيارة، ثم انطلق بها في طريقه إلى العمل، ومعها انطلقت ذكرياته، وكأنها تتراءى أمام عينيه.

أذكر تلك الليلة، التي نظرت فيها أمي إلى الطفلة نظرةً لم نعهدها منها.. أخيراً اعترفت أمي أن تلك الطفلة واحدة منا، يجب أن نعاملها مثلنا تماماً.. في تلك الليلة، احتضنتها أمي، وربتت على كتفها، ووصفتها بالمسكينة، وقبل أن نذهب إلى النوم، وجهت أمي كلماتها إلى أختي زهرة قائلة:

-زهرة، من الآن عليكِ المبيت بغرفة جهاد.. قفزت زهرة من الفرحة قبل أن تقول لأمي في تساؤل:

-ومَن سيبيتُ مع "طارق"؟

قال والدي:

-"طارق" رجل، وسيبيتُ في الحجرة بمفرده منذ الآن.

وقبل أن يكمل أبي كلمته كانت زهرة وجهاد في حجرتيهما.. اشتعل قلبي غيظاً، تلك الطفلة الخبيثة، من الواضح أنها استولت على قلوب الجميع تلك الليلة.. وقبل أن يعبث النعاس بجفنيْ، حاولتُ النظر إليها نظرة مختلفة علني أرفق بها مثل الجميع.. لم أستطع، فقط فتاة شقراء، ناصعة البياض، ومثل هؤلاء النوع من الفتيات يثير ريبتي، ولا أدري لمَ؟.. وعيناها الزرقاوان، تحملان من الخبث أكثر مما تحملان من الرقة..

ملامحها المثيرة لانتباه الجميع، كانت مثيرة لاشمئزازي أنا، ولم أستطع أن أمنحها أي إحساسٍ سوى سارقة أختي زهرة مني، ومن قبلها سارقة قلبيْ أمي وأبي.

بعد ذلك كانت أمي ترعاها كطفلتها، بل وتهتم بها أكثرمنا، حينها كان شعوري بالغيرة يشتد ويشتد، ولم أكن أنظر إليها إلا بنظراتٍ حانقةٍ، وعيونٍ غاضبة، وقلبٍ ملؤه البغض والكره.. كانت في نظري غريبة عنا، ولا أدري لمَ ساقها القدر إلينا؟

توقف عن الاسترسال في ذكرياته في اللحظة نفسها التي ضغطت فيها قدمه على دواسة الفرامل بسيارته.. فهو ليس لديه وقتٌ للتفكير في الذي حل بجهاد، وسبب شرودها المفاجئ.. اليوم يقع على عاتقه إنجاز الكثير من العمل قبل العودة إلى منزله.

نزل من سيارته على عجلٍ .. اتجه مباشرة إلى مكتبه في خطواتٍ سريعةٍ، ولكنه قبل أن يصل إليه هتفت به إحدى العاملات بالشركة قائلةً:

-سيد طارق، إحداهن تركت لك هذا الخطاب في الصباح الباكر.. أخبرتني أنها تطلب منك أن توصله يداً بيد إلى جهاد، وقالت لي:

-أبلغيه أنني ذات الفتاة التي زراته بخصوص جهاد خمس مراتٍ.

تناول الخطاب من يدها وهو يغمغم:

-الفتاة اليهودية، لماذا هي حريصة هكذا على لقائكِ يا جهاد.. لابد أن في الأمر خطباً ما.. حدثته نفسه مراراً بقراءة الخطاب، لكنه في كل مرة كان يتراجع قبل أن يفضه بلحظاتٍ.. وفي اللحظة الأخيرة، استجاب لفضوله وقرأ ما بالخطاب، لكنها كانت المفاجأة.. مفاجأة من نوعٍ آخر.

******

الفصل الثالث

الغريب

فتح "ألبرت" باب شقته؛ ليتفاجأ أن الطارق لم يكن سوى صديقه المفضل " إيلان إيرائيل "..

قال "ألبرت" في مرح:

-"إيلان إيرائيل" مرةً واحدةً.. أي رياحٍ طيبةٍ أتت بك يا رجل؟.. أخيراً تذكرت أن لك صديقاً يُدعى ألبرت ناعوم.

ضحك "إيلان" ملء شدقيه، وهو يهتفُ قائلاً:

-أنت أدرى الناس بطبيعة عملي.. ألم تكن واحداً من رجال الموساد؟

-نعم.. أنا واحدٌ منهم.. لكنني أمنح نفسي القدر الكافي من الراحة.. لقد فكرتُ في أمرك مراراً، ولا أدري حتى الآن، لماذا تجهد نفسك في العمل بهذه الطريقة؟ في الحياة أشياءُ عظيمة يجدر بك تجربتها.

-وهل يوجد أعظمُ من العمل من أجل الوطن؟

-المسلمون يقولون" ولا تنس نصيبك من الدنيا".

-هؤلاء أناسٌ يتلونون حسبما يريدون.. إن أرادوا اللهو قالوا:

-" لا تنس نصيبك من الدنيا ".

وإن أرادوا العبادة قالوا:

-" وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون ".

-علمتُ أنك ستخالطهم قريباً.

قال "إيلان" متباهياً:

-ومَن أدراك؟ يبدو أن الصحافة لا شغل لها غيري!

ضحك "ألبرت" بصوتٍ مسموعٍ قائلاً:

-الأمر سري كما تعلم، لكنني كنتُ الضابط المكلف بتجهيز الأوراق التي قد تحتاجها في عمليتك المقبلة.. وأنا مَن تخيرتُ لك اسم " حازم عبدالسلام ".. وتعمدتُ أن أجعل منك مسلماً اختصاراً للوقت الذي يلزمك للاندماج وسط الشعب المصري.. علمتُ أنه يطلقون على أنفسهم " الشعب المتدين بطبعه ".. وأتبع كلامه بضحكةٍ ساخرةٍ قائلاً:

-شعبٌ متدين بطبعه.. لكنه يستحل السرقة.. شعب متدين بطبعه، لكن مصالحه الحكومية لا تقضى إلا بالواسطة والرشوة.. شعب متدين بطبعه، لكنه من أولى الدول صاحبة أكبر نسبة تحرش في العالم.. شعبٌ متدين بطبعه، لكنه يقبل الكذب والغش والتزييف.

العرب كلهم يدعون أن النظافة من الإيمان، ولكن بيوتهم قذرة، ومدارسهم قذرة، وشوارعهم أقذر.. يدّعون أنهم خير أمةٍ أخرجت للناس، ولكنهم في الحقيقة عالة على البشرية، وعبءٌ على العالمِ، وشرذمةٌ على المجتمع الدولي.. لذلك لن نستطيع نحن تعميرالأرض، وهي تحمل فوقها عربياً واحدٌ.

شعوبٌ تدمر بلادها، وبلاد تشرد شعوبها.. يقنعونك أن أبغض الحلال عند الله الطلاق، لكن بلادهم حصدت المراتب الأولى في ارتفاع نسبه.. أكثر شعوب العالم انغماساً في الفوضى، وأكثرهم خروجاً على القانون.. شعوبٌ إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وفي النهاية يختلسُ بعضهم المصلحة الحكومية التي يعمل بها رغبة في أداء فريضة الحج!

الصحيح أن يطلقوا على أنفسهم " شعوباً جاهلةٌ بطبعها.. رجعية بطبعها.. متخلفة بطبعها.. شعوباً لديها انفصامٌ بطبعها.. تجعل الدين ستاراً للقيام بأهوائها ".

التقى حاجبا "إيلان" لحظةً في غضبٍ، لكنه ما لبث أن استعاد بروده في سرعةٍ قائلاً:

-على رسلك يا رجل.. الشعوبُ في هذا العالم، مثلها مثل القطيع، أينما وجهتها توجهت.. إذا أقنعتهم أنهم شعبٌ متدينٌ، وجدتهم يتمسكون بالدين، وكأنهم خلقوا لأجله.. وإذا أقنعتهم أنهم دولةٌ مدنيةٌ متحضرةٌ، ستجدهم يتباهون بدولتهم المتقدمة، رغم الفساد الذي ينخر في أركان الدولة.

-لم أفهم ما الذي تعنيه!!

-أقصد أن الدين لا علاقة له بحامليه.. يعتقد المرء منهم أنه مؤمنٌ موحدٌ، لكنه في الحقيقة أكثر شراً من إبليس.. هذه القاعدة تطبق على المسلمين عموماً.. أما بالنسبة للشعب المتدين بطبعه، أو المصريين بمعنى أدق، فأنا أعتقد أن اللفظ الأكثر دقةً الذي يصف الشعب المصري، أنهم شعبٌ طيبٌ بطبعه.. جميلٌ بطبعه.. مغوارٌ بطبعه.. فكاهيٌ

بطبعه.. يعامل الغريب كأنه واحدٌ منهم، يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، حتى لو كان هذا الغريبُ يهودياً.

عقد "ألبرت" حاجبيه متعجباً وهو يقول:

-ماذا بك يا رجل؟.. لو خرج هذا الكلام من فم ضابطٍ آخرٍ لحسبته هيناً.. أما أن يتفوه به " إيلان إيرائيل " فهذه هي الكارثة والطامة الكبرى.

استنار وجه "إيلان" ، ثم قال من بين ضحكاته:

-إذن فقد أجدتُ تمثيل الدور، ولن أجد صعوبة في إقناع مَن سأتعامل معهم.. أنت أقرب الناس إليّ وصدقتني، فما بالك بتلك المدعوة حياة؟!

تنهد "ألبرت" بارتياح وهو يقول:

-بعد عودتك من هذه المهمة، سنحاول تقديمك لأحد البرامج الخاصة بالتمثيل.

هتف إيلان ساخراً وهو يتجه نحو الباب:

-إذن تركتُ هذه المهمة لك.

أوصل "ألبرت" "إيلان" حتى الباب، وهتف وهو يعانقه:

-سأفتقدك طوال الثلاثة أشهر.. عد سريعاً.

قال إيلان وهو يستدير مغادراً:

-إن أنجزتُ مهمتي قبل انتهائها، فحتماً سأعود مبكراً

******

أمسك الخطاب بيدٍ مرتعشةٍ، وحاول قراءته مرةً أخرى مؤملاً أن فهمه الخاطئ، هو الذي صوّر له ما قرأ، وأنها بريئة من كل ما كُتب.. لكن للأسف، بعدما انتهى من قراءة الخطاب للمرة الثانية كانت كل كلمة قرأها صحيحةً مائة بالمائة.

" حبيبتي جهاد.. أفتقدكِ كثيراً يا صغيرتي.. لطالما بحثتُ عنكِ.. ولطالما تحملتُ من الظروف أقساها، من أجل العثور عليكِ، حتى هداني الله لمكانكِ أخيراً.. لطالما شعرتُ أنني بحاجة إلى حضنكِ الدافئ، أستشعر بداخله حنان أمي.. وإلى يدكِ الصغيرة تمررينها على شعري، فتزيلي عني عناء هذه الأيام.

لطالما اشتقتُ لأيامنا سوياً، ولضحكاتنا معاً، ولأحاديثنا معاً.. حاولتُ اللقاء بكِ مراراً.. ولطالما انتظرتكِ في الطريق الشرقي، رغم الثلج المتساقط، والصقيع الذي يكاد يعصف بجسدي عصفاً ممنياً نفسي أنكِ عندما تأتين للقائي سيعوضني حضنكِ الدافئ عن كل هذا.. لكن كل محاولاتي للقائكِ كانت تبوء بالفشلِ في كل مرة.

هذه الحياة كانت قاسية بما يكفي يا جهاد، حرمتكِ مني وحرمتني منكِ، ورغم كل هذا الوهن الذي تتخبطين فيه، أصبحتِ قوية.. استطعتِ تجاوز الأزمة، رغم كل الألم الذي تحملينه في صدركِ، ورغم كل هذا الفقد الذي تعيشين فيه، علمتُ أنكِ ترأسين جماعةً من الفدائيين.. وبلغني أيضاً أنكِ أنتِ القائد، والمحارب، والمخطط لمعظم العمليات الفدائية التي حدثت في الفترة الأخيرة.

فخورٌ أنا بكِ يا صغيرتي.. كيف بجهاد الصغيرة، زرقاء العينين.. تلك الرقيقة التي تبكي إن ارتفع صوت أحدهم عليها.. وطفلتي التي تخشى الظلام.. وحبيبتي التي تخيفها الوحدة، وترهقها نزلة برد، إذا بها تصبح مجاهدة، تتنكر في زي رجل وتحمل

سلاحاً، وتخرج في منتصف الليل إلى معسكرات الفدائيين.. استمري يا صغيرتي، لا تستسلمي أبداً.. قاتلي حتى آخرِ رمق، فلديكِ ثأرٌ لابد أن تأخذيه.. آمني بأنكِ ستنجحين، حتى عندما تكون الحقائق كلها ضدكِ، فأنا وراءكِ دائماً، أساندكِ وأدعمكِ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ويجمعنا عن قريب.

أعلم جيداً أنكِ تقرئين خطابي رغم دموعكِ.. وأنكِ لم تنجحي في تحديد طبيعة هذه الدموع، هل هي دموع فرح أم دموع فقدٍ؟.. وأعلم جيداً أنكِ ستحتضنيه، وكأنكِ تحتضنينني أنا.. كما أعلم أيضاً أن هذا الخطاب سيصبح أعز ما تملكين.

كوني بخيرٍ يا حبيبتي.. كوني بخيرٍ من أجلي أنا.. ومن الآن فصاعداً، سأكتبُ لكِ حتى أعوضكِ عن كل ما مضى.. سأكتبُ لكِ، وحتى نلتقي لكن حفاظاً على سرية الأمر، فخطاباتي منذ الآن ستجدينها في حفرةٍ ما أسفل شجرة الليمون، الموجودة في حديقة منزلكِ.. أما أنا فلم أشأ أن أخبركِ عن الذي حل بي، منذ أن افترقنا خوفاً من أن تعلمي حقيقتي، فتكرهينني ولا تلتمسين لي العذر، ستكبر المسافات بين قلبينا.. يكفي مسافات الأرض التعيسة... أراكِ على خيرٍ "

ضم "طارق" قبضته على الورقة، وكأن يده لم تعتصر مجرد ورقة، بل تعتصر رقبة جهاد.. ظل يطرق على زجاج مكتبه في عنفٍ، حتى كاد أن يهشمه، وعقله يحاول أن يستوعب مَن هذا الذي تقيم معه جهاد علاقةً غير شرعية؟.. بل كيف تعرفت عليه من الأساس؟.. ولماذا فارقته؟.. وما علاقة الفتاة اليهودية بهما كي تقوم هي بدور الوسيط؟.. في الأمر حلقاتٌ مفقودةٌ، وهو لن يستطيع فهم شيءٍ من مجرد هذا الخطاب اللعين.

وضع يديه على جبهته، في محاولةٍ منه للسيطرة على الصداع الذي يكاد يعصف برأسه، والدم الذي يغلي في عروقه.. تمتم محدثاً نفسه:

-أهذه هي جهاد، التي تأكل معنا وتشرب معنا؟ أهذه هي جهاد، التي رباها أبي وعاملتها أمي كما تعامل ابنتها؟.. أهذه هي جهاد التي تتحدث عن الشرف، وتستميت من أجل الدفاع عن الوطن؟.. أهذه هي التي ستخبر العالم عن الذي تفعله إسرائيل بنا عند منتصف الليل؟.. أهذه هي التي تمثل الوطن، وتظهر على شاشاته؛ لتتحدث عن الأخلاق والصدقِ والأمانةِ؟!

منذ أن رآها طفلةً صغيرةً، وهو لم يسترح لها قط.. كان يشعر من داخله أن وراءها مصيبة ما.. وقد صدق حدسه.

تمتم قائلاً وصوته يقطر أسى:

-يا ليته خاب!.. ماذا سيفعل والده لو علم أن تلك الفتاة التي آواها ورباها، هي محض عاهرةٍ.. أحدهم يمني نفسه بدفء أحضانها.. ماذا سيفعل والده، إن وقع في يده هذا الخطاب وقرأ بعينيه العهر الذي جاء فيه؟.. ماذا ستفعل والدته، إن علمت أن تلك الفتاة التي عاملتها كابنتها زهرة، هي مجرد خائنة ليس إلا؟

تنهد "طارق"، مخرجاً من صدره زفرةً حارةً متمتماً:

-لذلك، طلبت العيش وحدها منذ عامين، وفعلت المستحيل؛ لتشتري البيت المجاور؛ لتسكن فيه.. كلنا ظننا أنها تود الاستقلال بروحها كي تنزع عنها حجابها في الوقت الذي تريد وأن تضعه في الوقت الذي تشاء.. وظننا أنها بالفعل تود الانضمام

لمجموعات الفدائيين، وتريد أن يكون لها مسكن؛ لتكتب فيها منشوراتها، وتقيم فيه لقاءاتها.. لم يخطر ببالنا أنها كانت تبحث عن حضنٍ دافئٍ ترتمي فيه بعيداً عن الأعين.

تباً لها، ولكل مَن هم مثلها.. اتخذت من الجهاد ستاراً لها؛ لفعل كل ما هو قبيحٌ ودنيءٌ مثلها.. عقد حاجبيه وقال محدثاً نفسه:

-لابد أن أنتقم منها، وأن ألقنها درساً قاسياً قبل أن أقتلها.. أجل سأقتلها.. مثلها يستحق القتل، لكن ليس الآن.

******

في مبنى الصحة النفسية للهيئات العسكرية، طرق السكرتير الخاص مكتب المديرة، ثم فتح الباب دون أين يأتيه الإذن بالدخول.. أدى التحية العسكرية ثم هتف قائلاً:

-سيدتي، أحدهم بالخارج يود مقابلتكِ لأمرٍ ضروريٍ وعاجلٍ كما يدّعي.

-هل أعطيته ميعاداً مسبقاً لمقابلتي؟

-لا، لم أره قبل اليوم.

-إذن، لا وقت لديّ الآن، إنني ذاهبةٌ لأحد الثكنات العسكرية على أطراف القاهرة.. امنحه ميعاداً في الغد إذا كانت قائمة أعمالي غداً فارغة بعض الشيء.

تحركت حياة من خلف مكتبها يتبعها الحارس الشخصي.. وأمام حجرة المكتب في ردهة الانتظار لمحت سكرتيرها الخاص يوجه الحديث لشخصٍ ما .. شخصٌ شعرت أنها تعرفه جيداً.. شخصٌ تربطها به علاقةٌ قديمةٌ.. قديمةٌ جداً.

توقفت لثوانٍ .. نظرت له ملياً ثم تمتمت قائلةً:

-إنه هو بعينيه الزرقاوين، وشعره البني الداكن، وبشرته البيضاء المشربة بالحمرة.. نظرةٌ واحدةٌ إليه لكنها أعادتها أميالاً للوراء، عندما كانت طفلة لا تملك من العمر إلا سبعة أعوامٍ، حينها كانت يدها تستقر بين كفي صاحب العيون الزرقاء هذه، وهو يحدثها قائلاً:

-عندما أكبر، فلن أتزوج إلاكِ؛ لتخبره بجدية:

-ولكنني مسلمة وأنت يهودي.

فيقول ببساطة:

-حينها، سأصبح مسلماً من أجلكِ!!

فتضحك الوالدتان وهما يهتفان:

-كُفا عن هذه الثرثرة الفارغة.. أنتما إخوة ليس إلا.

هذا الشاب لم يذكرها بجيرانها القدامى، وبصديقة طفولتها، وبوالدتها الطيبة التي ظلت تحلم بلقاء جارتها؛ لتخبرها ذلك السر الذي تخشى أن تموت قبل أن تستطيع إخبارها إياه، ولكن الله لم يقدر لها الحياة، فتوفيت والدة حياة، وتركت لابنتها عبءَ إبلاغه إن يسر الله لها مقابلة المرأة اليهودية وأبنائها.

انتشلها من ذكرياتها فجأةً صوت ذلك الغريب، وهو يهتفُ قائلاً:

-مرحباً يا سيدتي، ثم مد يديه مصافحاً إياها، لكنها لم تنتبه ليده.. كانت تنظر حينها إلى جبهته، تحديداً إلى ذلك الجرح القديم الذي يقع بمنتصفها.. وكانت هي السبب فيه، عندما تشاجرا سوياً على أحد الألعاب.. وضع الغريب يده على جبهته

يتحسسها في تربصٍ ، ترى ما الذي يلفت نظرها إلى جبهته تحديداً هكذا؟.. حاولت أن تنفض عنها غبار كل هذه الذكريات، وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ لم يفق من وقع المفاجأة:

-مَن أنت؟

-أتسمحين لي بالحديث معكِ لدقائق يا سيدتي؟

جلست تتوسط المقعد الذي يقع خلف مكتبها، وعلى جانبه الآخر ذاك الغريب الذي جاء على غير موعدٍ؛ لينتشلها من واقعها بالقاهرة، ويعود بها إلى حيث الإسكندرية.. إلى شاطيء البحر الذي لطالما لعبوا أمامه سوياً.. إلى ذلك الترام، ذو الواجهة الزرقاء، الذي لطالما ركباه سوياً؛ ليقضيا حاجيات والدتيهما.. إلى حلقات التحفيظ بالمسجد، التي لطالما انتظرها هو وأخته أمام المسجد حتى تنقضي منها.

إحساسٌ غريبٌ يجتاحها، منذ أن رأت ذاك الغريب، ترى هل عادت بهم الأيام مرةً أخرى إلى هنا؛ ليتحملوا معها نبأ وفاة والدتها الذي حل عليها كالصاعقة؟.. ترى هل آن الآوان؛ لتنفذ وصية والدتها؛ ولتخبر هذا الغريب بالسر الذي لطالما حلمت أمها بالتخلص منه؟

تنحنح الغريب في خجلٍ ، محاولاً جذب انتباهها نحوه، ثم أتبع نحنحته بقوله:

-" حازم عبدالسلام "..أمريكي الجنسية.. محامٍ دولي، حاصل على درجة الدكتوراة في القانون من جامعة ليون بفرنسا، وأحد أعضاء مكوني جمعية الطفل العربي، التي قام بتأسيسيها شباب الجامعات بأمريكا اعتراضاً على ما تقوم به الحكومة الأمريكية

من دعمٍ لأسرائيل التي لم تراعِ الفرق بين رجلٍ كبيرٍ وطفلٍ صغيرٍ وسيدة، فهي تطلق الرصاص في صدور الجميع.

علمتُ نشاطكِ الوطني بوجهٍ خاصٍ ، ونشاطكِ العربي بوجهٍ عامٍ، ولأننا نسعى منذ زمن من أجل إدخال عناصر عربية في الجمعية، فلم نجد أفضل منكِ.. ثم إن معاهدة السلام التي أطلقها الرئيس المصري حفزتنا أكثر لفكرة انضمام مصر للجمعية من خلالكِ.. ثم مد يديه بأحد الملفات قائلاً:

-هذه الأوراق الخاصة بطبيعة عملنا.. وقائمة بأسماء الدول المشاركة بالجمعية.. وكل المعلومات التي قد تحتاجين معرفتها عنا.

وضعِ الملف الذي يحمله على الطاولة، بعد أن مد يده به إليها لفترة ليست بالقصيرة.. تأملها لفترةٍ وجيزةٍ ثم تساءل بحرصٍ :

-ما رأيكِ بالذي قلته يا سيدتي؟.

-وكانت الإجابة أبعد ما يكون عن مخيلته.. فلم تنفرج شفتاها إلا عن سؤالٍ عجيبٍ، لم يعتقد أن يتلفظ به مثلها وخاصةً الآن، وبعد كل ما قاله لها فلم تكن إجابتها له إلا:

-حدثني عن الندبة التي تتوسط جبهتك!

قال في دهشٍ :

-إنها أثرٌ لجرحٍ قديمٍ يا سيدتي.. تسبب فيه حادثٌ صغيرٌ أثناء ذهابي للمسجد، عندما كنت طفلاً دون العاشرة.

-قلتَ إنك أمريكي الجنسية، أليس كذلك؟

-ولكني من أصلٍ عربيٍ فوالدي سوري الجنسية، ووالدتي لبنانية، التقيا شباباً في جامعة" أوكسفورد" بانجلترا، عندما كان والدي يدرس إدارة الأعمال هناك.. وحينها كانت أمي تدرس الصحافة.

هزت رأسها في إعجابٍ قائلة:

-الوالدان درسا بأوكسفورد، والابن أحد خريجي جامعة ليون.. أنتم عائلة من العلماء إذن.

هتف بابتسامةٍ واضحةٍ:

-ممتنٌ لإطرائكِ الجميل هذا يا سيدتي.

شد قامته واقفاً، وأعدل من رابطة عنقه وهو يهتفُ:

-سأمر عليكِ بعد ثلاثة أيامٍ، لو تسمحين لي.

هزت رأسها موافقة وهي تهتف:

-حينها سأعلمك برأيي بعد أن أكون ألقيتُ على الأوراق نظرةً ملمةً وكافيةً.

****

دخلت "سلمى" مكتب "جهاد"، وهي تلهثُ من فرط التعب.. ولا تكاد الحروف تخرج مستقيمةً من بين شفتيها.

اعتدلت "جهاد" في عنفٍ، وذهبت إلى جوارها كي تهدأها.. لكن سلمى تحدثت، وقبل أن تلفظ أنفاسها حتى قائلةً:

-اخرجي من السلم الخلفي بسرعةٍ.

عقدت "جهاد" حاجبيها متسائلة:

-ماذا هناك؟

-إنه "طارق".. قابلته عند باب المحطة منذ دقائق، كان غريباً، لدرجة لم أتوقعها يوماً.. حدثني بصوتٍ مخيف، وكأنه يخرج من أعماقٍ سحيقةٍ – ثم هدأت لحظة لتلتقط أنفاسها – ثم أردفت قائلةً:

-لقد سألني عنكِ، لكن عروقه البارزة، ووجهه الأحمر، ويداه المضمومتان، أنبأتني أنه متأهبٌ للقتال ولا أدري قتال مَن؟.. فما كان مني إلا أن قلتُ له:

-أنكِ تركتِ المحطة منذ نصف ساعة.. نظر إلى ساعة يده قائلاً:

-لابد أنها ستعود ثانيةً سأنتظرها هنا.

-كما تحب.

وعندما وليته ظهري مبتعدةً عنه، هتف بي قائلاً:

-إذن، هاتفيها وأخبريها أنه من الأفضل لها ألا تعود إلى هنا.. وإن أبت إلا العودة، فأخبريها أنني متأهبٌ لقبض روحها.

ناولتها "جهاد" كوب من المياه الباردة، وهي تربّت على كتفها مهدئة إياها قائلةً:

-لا تقلقي، إننا في ذات الشهر الذي استشهدت فيه زهرة منذ عشر سنين، لعله تذكر أن غداً ذكرى استشهادها، وعادةً ما يفقد أعصابه، ويحاصره الاكتئاب، ويستعمره الحزن في مثل هذا التوقيتِ من كل عامٍ.. بالإضافة إلى شعوره الدائم نحوي بالبغض..

فرغم أنني وزهرة كنا معاً في نفس التوقيت، وبنفس المكان، إلا أن الرصاصة استقرت بقلبها تاركةً إياي سليمةً صحيحةً على قيد الحياة.

وهو منذ تلك اللحظة، يتعامل معي وكأنني سرقت من أخته روحها وحياتها، وأنها هي مَن كانت تستحق الحياة بدلاً عني.

-لا أدري كيف تتعاملين مع ذلك الطارق العجيب.. إنه كائن فظ، لا يعرف اللين إلى قلبه طريق.

-أنتِ تظلمينه.. إنه طيبٌ ورقيقٌ، ويمكنكِ الاعتماد عليه في أحلك الظروف.

-تقولين هذا، وهو الذي أرسل تهديداً بقبض روحكِ منذ دقائق!!

-أنا أعرف طبيعته، لو ذهبتُ إليه الآن؛ ليقتلني لتركني ومضى.

-تثقين فيه حد الموت.. رغم أنني لم أره يعاملكِ برفقٍ ولو لمرةٍ واحدةٍ.

-هذه طريقته مع الجميع، لكنه في الحقيقة طيب القلب.

-الناس ليس لديهم وقت؛ ليصلوا إلى طيب قلبه.. شخصٌ مثله تخرج من كلية الهندسة من المفترض أنه أذكى من أن تكون هذه هي طريقته.. إنه منفرٌ جداً.. أنا لم أضبطه متلبساً بالمزاح مرةً واحدةً!

-على كلٍ، دعي الحديث عنه جانباً الآن، ودعينا نتحدث بشأن تصوير الغد.

-لكن أريد الحديث معكِ في شأنٍ آخر أولاً.

-هاتِ ما لديكِ.

-حسام....

-ماذا به؟

-لقد حدثتني والدته بشأنكِ ثانيةً، وأخبرتني أنه لا يتصور لنفسه زوجةً غيركِ.

-ولكنني لا أتصور نفسي زوجةً لأحدٍ.

-امنحيه الفرصة، ولو لمرةٍ واحدةٍ.

-حتى الآن، لم أمنح أنا لنفسي الفرصة ولو لمرةٍ واحدةٍ.

-وهل ستظلين وحيدةً هكذا.....؟

وقبل أن تنهي عبارتها، إذا بأحدهم يقتحم حجرة المكتب بعينين يطل منهما الغضب، وأوداجٍ منتفخة وصدرٍ يعلو ويهبط، وكأنه مقدمٌ على جريمةٍ.. وقبل أن تستوعب "جهاد" ما الذي يحدث، إذا به يرفع يده عالياً؛ ليصفعها صفعةً أسالت الدماء من أنفها وفمها؛ لتسقط على الأرض دون حراكٍ.

الفصل الرابع
دون وداع

في إحدى المصحات النفسية الخاصة بالهيئات العسكرية المصرية، طرقت الدكتورة "حياة" باب إحدى الغرف طرقةً واحدةً، ثم دخلت دون استئذانٍ، وعلى وجهها ابتسامةٌ عذبةٌ، تحمل من الثقة الشيء الكثير.. وضعت أوراقها جانباً، ثم هتفت موجهةً الكلام للمريض الوحيد بالغرفة:

-أخبرني الجميع أنك مصابٌ باكتئابٍ حادٍ، ويُصر جميعهم أنه من المحتمل أن تؤدي بك هذه الحالة إلى الوفاة.. لكنني أظنهم يبالغون في تقدير الأمر.. وقررتُ أن ألتقي بك بنفسي، ورغم كل مشاغلي، وكل واجباتي العسكرية والمخابراتية.. قررتُ أن آتي إلى هنا، لا لأعالجك من اكتئابك الحاد.. ولا لأجبرك على النطق الذي فقدته منذ أن وقعت الحادثة.. ولا لأعيد إليك النشاط والقوة؛ لتستطيع الحركة من جديد.. كل هذا أنت قادرٌ على فعله، وتستطيع القيام به دون أدنى مجهود.

أنت واهمٌ، أغرقت نفسك في بحار الوهم، وعندما استعمر الوهم عقلك صدقته أنت.. صدقت أنك لن تسطيع الكلام مرةً ثانيةً.. صدقت أنك فقدتَ الحركة.. وصدقت أن كل الألوان أصبح لونها أسود، وأن هذه الحياة، مجرد امرأةٍ غادرةٍ، أخذت منك كل أحبائك ورحلت.

لكن على العكس تماماً، هذه الحياة رفقت بأحبابك، وقررالقدر أن مكانهم ليس هنا، هم يستحقون حياةً لا عناء فيها، ولا نصب، لذلك، اصطفاهم الله إلى جواره.. هل ستظل صامتاً هكذا؟ احكِ لي ولو شيئاً يسيراً.

سكتت حياة قرابة الخمس دقائق، قبل أن تُمسك بحقيبتها، وتهبُ مغادرة وهي تقول:

-استرح الآن، سأزورك مرة أخرى، وأرجو فيها أن تتحسن حالتك.. وقبل أن تصل إلى باب الغرفة استدارت إليه مرة أخرى قائلةً:

-لدي لك رسالةٌ مهمةٌ.. رسالةٌ مهمةٌ جداً، كان من المفترض أن أقرأها عليك الآن؛ لأن مرسلها بحاجةٍ ماسةٍ لك.

لم يبدُ على وجهه أي تغيير.. لكنها أردفت:

-هذه الرسالة كتبت بخطٍ أعرجٍ، وكأن كاتبها طفلٌ صغيرٌ.. نظرت إلى ملامحه مرةً أخرى؛ لترى وقع تأثير الكلام عليه.. لكن ملامحه الجامدة، ظلت كما هي، وكأنه لا يعي حرفاً مما تقول.. فقررت أن تلفت انتباهه أكثر قائلةً:

-الرسالة لطفلٍ اسمه " يوسف أحمد البابلي ".

هنا انتفض المريض، وكأن كهرباء قد صعقته.. ونظر إلى عينيها في لهفةٍ، ونطق للمرة الأولى منذ ثلاثةٍ وعشرين يوماً:

-ماذا به.. ماذا يريد يوسف.. هل أصابه مكروه.. هل يحتاج إلى شيءٍ ما.. هل هو ووالدته بخير.. هل حقاً كتب رسالةً لي أنا؟.. وهل يعرفني بصدقٍ ؟.. من فضلكِ أخبريني لماذا أنتِ صامتةٌ هكذا؟

عادت إلى داخل الغرفةِ مرةً ثانيةً، وأغلقت الباب وراءها.. جلست على الفراش الخاص بالمريض.. ونظرت إليه نظرةً متفحصةً، قبل أن تنفرج شفتاها عن ابتسامةٍ رقيقةٍ، وهي تهتفُ:

-كنتُ أشعر أنك بطلٌ.. وأنك لن تمكث بضع دقائق حتى تنطق.. بالمناسبة إخوتك بالخارج، يريدون مقابلتك لكنني لن أسمح بذلك.

- لمَ؟

- أخبرتني أختك أنكَ عمود الأسرة، فلم أشأ أن أتركها ترى عمود الأسرةِ، وهو منهدمٌ كما لو أنه والأرض سواءٌ!

-قال في أسى:

-سوف تراني في هذه الحالة عاجلاً أو آجلاً.

-أنا على يقينٍ تامٍ بأنك ستعود إلى طبيعتك بعد ساعةٍ واحدةٍ من الآن.. ستعود وحشاً كاسراً، كما كنتَ تلتهم رؤوس الأعداء، دون رفقٍ أو هوادةٍ.. ثم قالت باسمةً:

-وستطلب مني أن تغادر المشفى، حينها لن أسمح أنا بذلك؛ لأنك لم تستكمل مدة علاجك!

-أنتِ متفائلة أكثر من اللازم.

-ولكنني لم آتِ بهذا التفاؤل من فراغٍ .. الرسالة تقول ذلك.

قال ودمعةٌ تنحدر على خده:

-وما الذي جاء فيها يثبت ذلك؟

-ليس قبل أن تحكي لي كل شيءٍ.

-لن أفعلَ.

-بل ستفعل.

-أرجوكِ رفقاً بي.. أنا لم يعد لدي قدرة على فعل أي شيءٍ، بل حتى لا أستطيع الكلام.

-أعلم، ولذلك أحاول أن أدربك عليه من جديدٍ لأمرٍ هامٍ جداً، لن يصلح أحد للقيام به إلاك.

-بل على العكس تماماً، كل الجنود يستطيعون القيام به إلا أنا.

قالت في تساؤلٍ :

-وهل يتسطيع كل الجنود تنفيذ وصية الضابط "أحمد البابلي"؟

اتسعت عينيه في ذهولٍ ، وخرجت دمعةٌ حبيسةٌ، قبل أن يقول في تساؤلٍ :

-أشملتني وصيته؟

-بالطبع.. وكنتَ أنت السببَ في إيقاف تنفيذها لأكثر من ثلاثة وعشرين يوماً.

قال بصوتٍ يحمل رنة البكاءِ:

-سأحكي لكِ كل شيءٍ من البداية وحتى النهاية.

أسند ظهره إلى الوراء.. وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

-اسمي " معتصم الخياط ".. ولدتُ بمحافظة كفر الشيخ تحديداً مركز مطوبس.. منذ أن ولدتُ، وأنا لم أعرف لي رفيقاً إلا الفقر.. لطالما سخرت مني الحياة، وكأن بيني وبينها ثأراً أوعداوةً ما.. لكنني كنتُ أحتملها.. في كل مرةٍ حتى خارت قواي، ووهنت صحتي، وتفتت روحي.

أنا أصغر إخوتي.. ولدتُ قبل وفاة أبي بأيامٍ قلائل.. لم يكن لنا عائلٌ إلا أخي الأكبر الذي يكبرني بعشر سنوات.. أصبح ربَّ العائلة، وأصبح مكلفاً بإعالةِ عائلةٍ تتكونُ من الأمِ وخمسةٍ من الإخوةِ.. هو وأنا وثلاث فتيات.. ظلت أمي تعمل في البيوت، وهو يتنقلُ من عملٍ إلى آخر، إلى أن استقر بمهنة التكسب من قيادة السيارات.. بعد ذلك منَّ الله عليه، واستطاع أن يكمل نصف دينه.. ورزقه الله ثلاثاً من الفتيات كل واحدةٍ منهن كأنها القمر.

وذات يومٍ، وهو عائدٌ بسيارته، وتحديداً عند منتصف الليل، صدمت سيارته سيارة طائشة، فما كان من سيارته إلا أن انقلبت عدة مرات قبل أن تشتعل وهو داخلها.

حاول أن يبتلع أحد الدمعات التي تقف عند زوايا فمه، وكأن مرارتها أقل مرارةً مما يحكيه.. ثم أردف قائلاً:

-تذوق نار الدنيا، فاللهم أمّنه من نار الآخرة.

حينها كنتُ جندياً بالجيش.. بدأت مدة خدمتي قبل سبعةِ أيامٍ فقط.. ولعدم انتشار الهواتف الأرضية حينها، لم يُنبئني أحد بالخبر، حتى أعدّ عدتي، وأسافر ليلاً؛ لألحقهم قبل أن تشييع جنازته.

وفي الصباح، جاء اتصالٌ من شباب قريتنا على هاتف الوحدة الأرضي.. كان قائدي حينها يُدعى" أحمد البابلي " استدعاني في تأثرٍ، وحاول ألا يخبرني بما حدث مختلقاً أي سببٍ آخر.

وبدون قصدٍ منه قال:

-والدتك مريضةٌ للغاية، وقد منحتك إذناً لزيارتها، ومنحتك عطلة لمدة خمسة أيامٍ.

وقبل أن يكمل حديثه هتفتُ في قلقٍ :

-هل حدث لها شيءٌ؟ ثم أردفتُ متابعاً:

-لعنة الله على السرطان.

هتف القائد في دهشةٍ:

-هل والدتك مصابةٌ به؟

هززتُ رأسي أن نعم.

قال على الفور:

-منحتك عطلة لا تقل عن عشرين يوماً.

تركتُ الوحدة على عجلٍ ، وروحي تكاد تسابق السيارة.. وعندما وصلتُ بلدتي سمعتُ صراخاً وعويلاً ينطلق من الجهة التي نقطنُ بها.. ازدادت ضربات قلبي، واتسعت خطاي.. حينها قابلني أحد رجال القرية، والحزن مخيمٌ على وجهه.. حمل عني أمتعتي، وهويهتف قائلاً:

-البقاء لله يا بني.

هرولتُ إلى المنزل.. اخترقتُ صفوف المعزيين، وقبل أن أصل إلى البيت، وجدتُ النعش يُرفع بحمله خارجاً منه، وتفاجأتُ بأن المتوفى لم يكن إلا أخي رب الأسرة، وأبي من بعد أبي.. قلتُ بصوتٍ يخنقه البكاء:

-لو أنكم انتظرتم قليلاً؛ لألقي عليه نظرة الوداع!

فما كان من أحد أقاربي إلا أن قال:

-كما تعلم يا بني " إكرام الميت دفنه ".

ومات أخي الوحيد، دون أن أودعه أو أراه أو حتى ألقي نظرة أخيرة على ملامحه الملائكية.. أودعته التراب، وأودعتُ السند معه، ومعهما أودعتُ ذكريات طفولتي، وأقسمتُ على نفسي أن أكون خير أبٍ لأبنائه، مثلما كان هو خير أبٍ لي.

خيّم على منزلنا السواد، وساءت حالة أمي، وكدنا أن نموت جوعاً، وما من عائلٍ للأسرةِ.. انتهت أيام إجازتي التي منحني إياها القائد، وعدتُ إلى الوحدة مرةً ثانيةً تاركاً خلفي أمي المريضة وإخوتي المكلومين، وأبناء أخي اليتامى، وليس معهم أحد إلا الله.. ودعوني بدموع الثكالى وانصرفتُ عنهم أحمل عبءً لا يعلمه إلا الله.

عدتُ إلى وحدتي، وتفاجأتُ بقائدي يزورني في غرفتي، ويقدم لي واجب العزاء.. مرت الأيام تليها الشهور، وإذا بنا في أول ليلةٍ من ليالي رمضان.. وبعد الانتهاء من أول صلاةِ تراويح يؤمها القائد " أحمد البابلي " بنفسه إذا به ينتهي منها، ويلتفتُ إلينا قائلاً:

-مَن كان له حاجة، فليأتيني في مكتبي، وسأحاول تلبية حاجته قدر استطاعتي؟

ذهبتُ إليه، وأنا أقدم ساقاً وأؤخر أخرى، حتى استجمعتُ شجاعتي، وطرقتُ بابه.. كان يعرفني جيداً، فما كان منه عندما رآني إلا أن تساءل قائلاً:

-كيف حالُ والدتك؟

-هي بخير.

-هل ما زالت تواصل جلسات الكيماوي؟.

خفضتُ بصري إلى الأرض قائلاً:

-لقد انقطعت عنها منذ أقل من شهر؛ لضيق اليد وشظف العيش.

تغير لونه ثم قال بعطفٍ:

-ماذا تريد؟

قلتُ له:

-تمنحني الوحدة عشرة أيامٍ إجازة كل خمسة وثلاثين يوماً.. فلو كان من الممكن أن تزيدوا لي أيام الإجازات، فأنا العائل الوحيد لأسرتي التي تتكون من أمي وإخوتي وزوجة أخي وبناتها.. ثم إن أختي الكبرى ستتزوج بعد عيد الفطر مباشرةً، ولم نشرع في جهازها حتى الآن.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودودة قبل أن يقول:

-أبشر.

وهكذا انصرفتُ من مكتبه مرتاح البال، مطمئناً بعض الشيء، وبعد صلاة القيام في اليوم التالي، إذا بأحد زملائي يخبرني بأن رئيس الوحدة بنفسه طلبني في مكتبه.. ذهبتُ إليه، وأنا أحملُ في صدري أكواماً من القلق.. ترى ما الذي يريده مني الرئيس بنفسه؟.. تباطأت خطاي حتى أستطيع قراءة كل ما أحفظه من القرآن.. وعندما ذهبتُ إليه رحب بي، ثم قال مبتسماً:

-لقد أخبرني المقدم " أحمد البابلي " بقصتك، وبعد أن تأكدنا من صدق حديثك، منحته الحق في أن يحدد هو أيام عملك، وأيام عطلتك، فما كان منه إلا أن اختار لك عشرة أيامِ عملٍ بالوحدة وعشرين يوماً عطلة.. لم أكد أصدق، وقبل أن أنتبه مؤدياً التحية العسكرية ، إذا بالباب يطرق وأحدهم يدخل محتضناً إياي ومباركاً لي، ولم يكن هذا سوى المقدم " أحمد البابلي "!

بعد هذه الواقعة بأيامٍ، وذات مرة خلال أيام إجازتي، إذا بالهاتف الأرضي الموجود بالصيدلية المجاورة يدق؛ ليعلن المتحدث أنه يريد الحديث معي إن أمكن.. ولحسن الحظ حينها كنتُ عائداً من العمل وفي طريقي للمنزل.

لم أستطع أن أخمن، مَن يكون المتصل؟ فلستُ مهماً إلى هذه الدرجة التي تجعل أحدهم يطلب الحديث إليّ.. وعندما وضعتُ السماعة على أذني، لم يكن المتصل إلا هو سيادة المقدم " أحمد البابلي " وبينما أنا تائه، ولا أستطيع أن أفهم ما الذي وراء هذا الاتصال إذا به يقول لي:

-لا تفكر كثيراً، لم أتصل بك من أجل شيءٍ مهمٍ.. فقط أردت إيصال رسالةٍ للوالدة فهلا سمحتَ لي وقمت َبدور الوسيط.. قلتُ حائراً:

-نعم.

قال ضاحكاً:

-أخبرها نيابةً عني أن تطعمكم اليوم الكثير من اللحم!!

قلتُ له في دهشٍ :

-معذرةً، لم أفهم ما تقول.. فإذا به يقول لي:

-باختصارٍ ، أبلغ والدتك أن تجعل إفطاركم الليلة الكثير من اللحم.

لم أفهم ماذا يريد، وما هذا الطلب الغريب؟ وعندما أخبرتُ والدتي قالت لي:

-والله إني لأحبه.. ولن ألقي أوامره وراء ظهري أبداً، وذهبت بنفسها؛ لتقتني اللحم.. وبمجرد أن وضعته في الإناء؛ لتطبخه، إذا بالباب يطرق، ولم يكن الطارق إلا هو.. وبينما أنا في ذهولٍ ، ولم أكد أن أصدق ما تراه عيني، إذا به يسلم على أمي ويقبّل

يدها.. وبعد عدة دقائق، كان يتناول معنا إفطارنا، وكأنه واحدٌ منا.. وليس ذلك الضابط الذي تخشى الجفون أن ترمش في حضرته.

مسح دموعه بظهر يديه، وهو يهتفُ:

-حتى هذه اللحظة، لم أصدق أنه فعلها.. لا تتوهمي بالحديث عنه أنه كان عاطفياً وخيالياً أكثر من اللازم.. وشخصيته تشبه الرسامين والأدباء.. على العكس تماماً، كان حازماً وصارماً.. يغريه الانضباط.. وتستثيره الفوضى والاستهتار.

لنعد إلى حديثنا.. وبعد أن انتهينا من تناول الإفطار، وقبل أن يرحل أعطاني مظروفاً منتفخاً مغلفاً بالشمع الأحمر، وقال وهو يشد علي يدي:

-بإذن الله سنحضر سوياً زفاف أختك بعد عيد الفطر مباشرةً.. وأما عن جلساتِ والدتك فأنا المتكفل بها منذ الآن، وحتى بعد أن تنتهي مدة خدمتك!.. ثم رحل.. وكان هذا اللقاء آخر عهدي به.

ابتلع دمعةً سقطت عند زاوية فمه، ثم أدرف قائلاً:

-انتهت إجازتي بعد هذه الواقعة بثلاثة أيامٍ.. عدتُ للوحدةِ مرةً أخرى، ولا أدري لماذا هذا الشعور المقلق الذي يساورني منذ أن خرجتُ من بيتي متجهاً إليها؟.. وعندما اقتربتُ منها، ظل قلبي ينتفض في صدري بطريقةٍ عنيفةٍ.. نبضاتُ تدق في قلبي معلنةً ناقوس الخطر.. كدتُ أن أعودَ لمنزلي مرة أخرى معتقداً أن هذا القلق الذي يساورني مبعثه الخوف على أسرتي.. وقفتُ في منتصف الطريق وتنهدتُ بعمق وقلتُ:

-اللهم إني أستودعك ما أخشى فقدانه.. وتحاملتُ على نفسي، وأكملتُ طريقي مسرعاً رغم الليل، ورغم الأرض الجبلية غير المستوية التي أسير عليها.

وما إن وضعتُ أول قدمٍ لي بالوحدة، حتى أحسستُ أن المكان مخيمٌ عليه حزنٌ غريبٌ.. وأن سحباً عظيمةً من الكآبةِ قد أسدلت رداءها على المبنى.. لا أدري، لمَ تذكرتُ المقدم " أحمد البابلي "؟ ولمَ شعرتُ بأن سكيناً قد انغرس في صدري؟

أسرعتُ تجاه مكتبه، فوجدتُ مجموعةً من زملائي يقفون أمام مكتبه، وينظرون إلى صورته، ودموعهم تنحدر في صمتٍ.. لم أشأ أن أسألهم عنه.. خشيتُ من إجابتهم، ولأول مرةٍ أشعر أن الإجابات قد لا تكون مطمئنة، بل قد تكون قاتلة.. خشيتُ قولهم إنه مات، فاحتفظتُ بسؤالي في حلقي، وكأن عدم سؤالي عن حاله سيطيل من عمره أكثر.

ويا للعجب، لقد طاردتني الإجابات حين تحرك أحدهم تجاهي، وملابسه ملطخة بالدماء وهو يقول في نشيجٍ يشبه البكاء:

-كنتُ واحداً من الذين قاموا بمداهمة الإرهابيين معه.. لكن الله اصطفاه وحده من بين أحد عشر جندياً.. قال لي وهويلفظ أنفاسه الأخيرة، أوصل لمعتصم تلك الكلمات:

-أوصيك بألا تجزع، وأن تقيم زفاف أختك في ميعاده، وأن تطمئن على طفليه كلما سنحت لك الفرصة، فلطالما حدثهم عنك.. وطلب مني أن أخبرك أيضاً أنه أحبك كأخيه الأصغر، وهو لا يدري لماذا كل هذا الحب الذي منحك إياه رغم أن علاقتك به لم تكن سوى أشهرٍ قليلةٍ؟

ذهبتُ لرئيس الوحدة، طلبتُ منه أن يسمح لي أن أترك الوحدة الليلة حتى أذهب إلى القاهرة وأؤدي واجب العزاء، وحتى أشهد جنازته، لكن الرئيس لم يسمح لي

لأسبابٍ عسكريةٍ.. فما كان مني إلا أن هربتُ وأخذتُ أعدو في منتصف الصحراء كطفلٍ تائهٍ، فقد أمه، وتطارده الذئاب.. حتى شارفتُ على الطريق الرئيس.

وما إن وصلتُ لمنزل الشهيد بالقاهرة، حتى وجدتهم قد انتهوا من مواراته التراب.. نفس المشهد يتكرر وللمرة الثانية، لم أستطع أن أراه ولو لمرةٍ أخيرةٍ.. وهكذا فقدتُ أخي من بعد أخي مثلما فقدت أبي من بعد أبي.

ابتلعتُ خيبتي، بعدما لم أنجح في أن أشهد جنازته.. حاولتُ أن أسأل عن زوجته وأولاده كما أوصاني، لكنني تراجعتُ في اللحظة الآخيرة، كيف بيائسٍ فقيرٍ مثلي أن يسأل عن هؤلاء؛ ليعزيهم!.. ماذا أكون أنا وسط أولئك الأثرياء الذين يملؤن سرادق العزاء؟.. نظرتُ إلى بدلتي الكاكية التي أحال التراب لونها.. وإلى وجهي ويداي المغبرتين.

وعدتُ خائب الخطى إلى الوحدةِ مرةً أخرى، أحملُ هماً فوق هم، ولوعةً فوق لوعةٍ.. وهناك حُكمٌ عليّ بأربعين يوماً أقضيها في السجن؛ لمخالفة الأوامر، والهروب من الوحدة.

ازدرد ريقه في مرارةٍ ثم أردف رغم دموعه:

-وكأنهم يعاقبونني على كوني إنساناً.. وكأنهم قرروا الانتقام مني لأنني قررتُ الوفاء لقائدي.

لم أعطِ للأمر كثير اهتمامٍ، فالحرية والسجن من الآن عندي سواءٌ، لكنني طلبتُ منهم طلباً واحداً هو أن أذهب إلى مكتبه؛ لألقي على المكان الذي يخصه، وعلى صورته

نظرةً أخيرةً. وبالفعل وافقوا.. وما إن وقفتُ أمام باب مكتبه حتى طرقته وكأنه بالداخل.. فتحتُ الباب وأنا أقول بصوتٍ عالٍ :

-السلام عليك أيها الوفي، ثم أجهشتُ بالبكاء.. وأطلقتُ العبرات الحبيسة من مقلتي، وأنا أشعر بأنني لم أبكيه وحده، بل إنني أبكي الخلق جميعاً.. فكلهم قد ماتوا معه، ولم يعد على قيد الحياة سوى أنا، وشعرتُ بفداحة الأمر، ماذا سأفعل وحدي، فقد انهار آخر جدارٍ كنتُ أتكأ عليه، وآخر حصنٍ كنتُ ألوذ إليه.

جلستُ على كرسيه، وأجهشتُ بالبكاء، حتى خارت قواي، فإذا بجنديين يمسكان بي متجهيْن بي إلى السجن، وفي الردهة الخارجية سمعتُ رنين الهاتف الأرضي، وصوتُ أحدهم يهتف بعد ثوانٍ من الاتصال قائلاً:

-ماتت.

فالتفتُ إليه، ولا أدري، لما شعرتُ بأن هذا الاتصال يخص والدتي.. وجهتُ بصري ناحية المتكلم، وأنا أنظر له في ترقبٍ ولهفةٍ، فإذا به ينظر إليّ، ويقول بتأثرٍ وشفقةٍ:

-البقاء لله، لقد ماتت والدتك.

هنا دارت بيَ الأرض، ولم أعد أدري ماذا حدث؟ فلم أستفق إلا هنا، والأطباء يغدون ويروحون حولي، وهم يرددون أنني على وشك الموت، إذا استسلمتُ لما أنا فيه.. مسحت حياة دموعها وهي تقول في تأثر:

-ولكنني متيقنة من كونك ستتجاوز هذه الأزمة بسهولةٍ بعد دقائق.

-وما الذي جعلكِ متيقنة هكذا؟.

-هذا الخطاب الصغير.. وأخرجت من حقيبتها ورقةً ما.

الفصل الخامس

رحيل بلا عودة

ظلت "سلمى" تصرخ، حتى اندفع الجميع إلى مكتب "جهاد"؛ ليعرفوا مصدر هذا الصوت العالي.. وما سبب كل هذا الهرج والمرج.. كان من بين المتدافعين " حسام " الذي لم يكد يلمح جهاد ملقاة على الأرض بهذا الشكل، حتى ثار الدم في عروقه، وضم قبضته ووجهها إلى فم طارق الذي سالت الدماء من شفتيه هو الآخر.. وقبل أن يندلع الشجار بينهما صرخت سلمى:

-أنقذوا جهاد أولاً.. ليس هذا وقت شجارٍ أو عراكٍ.

وبعد دقائق قليلةٍ، كانت جهاد ترقد في المشفى المجاور، وإلى جانبها سلمى.. فتحت جهاد عينيها ببطءٍ، وهي تتمتمُ:

-أين أنا ؟

أجابت سلمى رغم دموعها الصامتة:

-أنتِ هنا يا حبيبتي بالمشفى.

-ماذا حدث؟

-لا شيء.. هذا الطارق يهذي بكلامٍ عجيبٍ، لم نفهم منه شيئاً.

حاولت جهاد أن تعتدل رغم الوهن الذي بها لكن يد سلمى أحالت بينها وبين ذلك قائلةً:

-لقد أمر الطبيب بوضعكِ تحت الملاحظة لمدةٍ لا تقل عن أربع ساعاتٍ.. ولقد أمر أيضاً بإجراء بعض الفحوصات والتحاليل حتى يتأكد من سلامتكِ.

ابتسمت جهاد في مرارةٍ قائلةً:

-لا فائدة من كل هذا، أنا بخيرٍ الآن، وسأحاول العودة إلى منزلي بمفردي.

-وأين أنا ؟!

-لا أريد أن أثقل عليكِ.

-بل اثقلي عليّ يا حبيبتي.. ثم إنني لا بد أن أذهب معكِ حتى أخبر والدي هذا الحقير بما فعل.. وعلى أي أساسٍ فعل ذلك؟

-انتفضت جهاد قائلةً:

-أرجوكِ لا تفعلي، دعيه وشأنه، ولا تتحدثي معه في ما حدث مطلقاً.

نظرت سلمى إليها في تساءل هاتفتاً:

-ماذا هناك؟

-لا شيء.

-هل هناك شيءٌ تخفينه عني؟

-أبداً.. ثم أشاحت بوجهها بعيداً عن سلمى، التي ظلت تحاصرها بنظراتها الاستفهامية.

بعد لحظاتٍ، همت سلمى بالمغادرة؛ لتخبر الجميع أن جهاد قد استعادت وعيها.. وبمجرد أن ابتعدت في الممر، حتى تحاملت جهاد على نفسها، وغادرت فراشها ثم ركضت في الممر بسرعةٍ.. هبطت درجات الممر الخلفي على عجلٍ، ثم أوقفت أول سيارةٍ وجدتها عند باب الطوارئ الخاص بالمشفى.

أملت السائق عنوان منزلها على عجلٍ .. اجتازت حديقة بيتها الصغيرة بخطواتٍ سريعة.. ولكم تعاظمت دهشتها، عندما وجدت هذا الطفل ينتظر عودتها عند الباب.

****

-السيد " حازم عبدالسلام " بالخارج، ويستأذن في الدخول يا سيدتي.

-دعه يتفضل فوراً.

دخل" إيلان"، وهو يحمل على وجه ابتسامةً مشرفةً، قبل أن يهتف قائلاً:

-أرجو ألا أكون قد تأخرتُ عليكِ يا سيدتي.

-لا بأس، انتظار خمس دقائق لا يضير.

-أرجو ألا تتوهمي أنني من أولئك الذين لا يلقون بالاً لمواعيدهم، كل ما هنالك أن القطار قد تعطل ساعةً كاملةً.. ولا أدري ما مشكلة القطارات في البلاد العربية؟!

قالت باستغرابٍ:

-أي قطار ؟!

- لقد كنتُ عائداً من الإسكندرية، وجئتُ للقائكِ قبل حتى أن أمر على الفندق الذي أقطنُ فيه.

قالت مرددةً:

-الإسكندرية!!!

-نعم.. إنها مدينة قريبة إلى قلبي.. لطالما حلمتُ بزيارتها، والتريض على شاطئها.. لطالما حلمتُ أن أقضي وقتاً طويلاً لكن ظروف عملي لم تسمح لي بذلك، بل إن مدة إجازتي قد أوشكت على الانتهاء.

انتفض قلب حياة فجأة، وهي تهتفُ:

-سترحل سريعاً هكذا؟

-أجل.. سواء قبلتِ أو رفضتِ، فلدي عملٌ خاصٌ بالمنظمة، ولابد أن نبدأه الأسبوع القادم.

-وما هو؟

-السفرُ إلى قلب فلسطين؛ لأكتب تقريراً كاملاً عن الطفل العربي الفلسطيني.. لكن هذه خطة المنظمة، أما خطتي الشخصية فهي تختلف تماماً.

-وما هي خطتك الشخصية؟

-لقد وجدنا في الصناديق الخاصة بالمنظمة مبلغاً كافياً من التبرعات.. ولقد قررتُ استخدامه من أجل إدخال السرور على قلوب هؤلاء الصغار الذين أجبرتهم ظروفهم أن يُولدوا رجالاً، وأن يعيشوا كذلك فلا مجال لمرحلةِ الطفولةِ بين مراحلهم العمرية المختلفة.

نظر إلى عينيها؛ ليرى وقع تأثير كلامه عليها ثم أكمل متابعاً:

-لقد قررنا بناء مدرستين ومشفى خاصاً بالأطفال، بالإضافة إلى بعض الملابس والهدايا التي منحها رجال الأعمال مجاناً للمنظمةِ.

هزت حياة رأسها في إعجابٍ.. وحماسته الواضحة أُثناء كلامه ألهبت حماستها.. مدت يدها إليه بالملف الذي منحها إياه في المرة السابقة هاتفة :

-لقد تأكدتُ عبر مصادري الخاصة من صحةِ المعلومات التي أعطيتني إياها.. وقرأتُ تقريراً كاملاً عن موقف المنظمة الخاصة بكم مع الأطفال المسلمين بباكستان،

بعد أن أحرق الهنود أهليهم في محارق جماعية.. من الواضح أن المنظمة الخاصة بكم، لا غبار عليها لكن أليس هذا غريبٌ خاصة وأنه يصدرُ عن شبابٍ يعتقدون أن الإسلامَ دين رهبةٍ.. وأن اللحى رمزٌ للجريمة على مستوى العالم؟!

-لهذا يا سيدتي فنحن نتعامل مع الأطفال، حتى تكون سريرتنا نقية تماماً، ولا نحمل أي حقدٍ أو ضغينةٍ تجاه مَن نقدم لهم يد العون.. فلو كانوا مثلاً رجالاً راشدين يخالفوننا في الرأي أو الاعتقاد؛ لوجدنا في أنفسنا شيئاً عليهم دون أن نشعر.

نحن نتعامل مع أطفالٍ لا يدركون شيئاً عن الإرهاب، ولا يفهمون معنى الحرب أو السلام، كل هذا لا يعنيهم في شيءٍ، بالإضافة أنني أحد أهم أركان المنظمة ومع ذلك فأنا مسلم الديانة وهم لم يروا مني إلا الخير، وهذا بدوره منحهم إحساساً بالمسئولية تجاه معتقداتهم التي رسختها وسائل الإعلام والصحافة والتي من المحتمل أن تكون ممولة لصالح حكومةٍ ما، وأحزابٍ معينةٍ.. فإذا كنتُ أنا " حازم عبدالسلام " المثقف، الإنسان، الهادئ والخلوق ،ومع ذلك أحملُ في قلبي إسلاماً، وأرد كل صفاتي الحسنة له.. أما صفاتي السيئة، فأرجعها إلى هوى في نفسي.. كل هذا جعل منهم شباباً واعياً ومدركاً، ومن المفترض أن يعيدوا النظر في مثل هذه المسائل، وخاصة أن المنظمة قد أسست من أجل الطفل العربي أولاً، ثم الطفل المضطهد ثانياً، أياً كانت جنسيته.

-سأحاول الانتهاء من أشغالي خلال اليومين القادمين، وسأرتبُ أمور السفر إلى فلسطين؛ لألتقي بك هناك، وحتى أرى نشاط المنظمة رأي عين حتى يطمئن قلبي.

شد "إيلان" قامته واقفاً وعينيه تحملُ نظرةً غريبةً.. نظرةً أطل منها بريق الغدر!!!

******

نظرت " حياة " إلى " معتصم " نظرة إشفاقٍ ، وهي تزدرد ريقها، وقبل أن تبدأ قراءة قائلةً:

" عمي معتصم.. لطالما انتظرناك يوم عزاء والدي.. وكثيراً ما أخبرتنا أمي أنك على وشك الوصول، لكنك خيبت كل آمالنا ولم تأتِ.. لطالما حلمتُ أن أرتمي في أحضانك حتى أشم فيك رائحة والدي الذي رحل على غير موعدٍ، وبدون وداعٍ ، ولا أدري ما الذي منعك من السؤالِ عنا ومواساتنا في مثل هذه الظروف؟

بعد منتصف النهار بقليلٍ ، لم أستطع مواصلة البكاءِ والنحيب.. لقد هدني السهر ليلة أمس في محاولة انتظار وصول جثة والدي الشهيد، فلم يكن مني إلا أن غفوتُ فرأيتُ وكأن والدي الشهيد قد أتاني في الحلم وهو يهتفُ بي:

-انهض يا يوسف.. عمك معتصم يقفُ وحيداً، يبكي هناك بجانب سرادق العزاء.. فركضتُ إلى المكان الذي أشار إليه والدي لكنني لم أجد أحداً.. وعندما سألتُ هل كان أحد يقف هنا منذ دقائق؟ فأجابني أحدهم:

-نعم.. شخصٌ ما يرتدي بذلة عسكرية، كان يقف هنا لكنه رحل قبل دقائق.

حاولتُ العثور عليك، لكنني لم أنجح، فعدتُ خائب الخطى إلى أمي التي حكيتُ لها كل ما حدث فما كان منها إلا أن قالت:

-لعله شخصٌ آخر.. لو كان هنا لأتى.. لابد أن هناك عذرا ما منعه من الحضور.

توقفت حياة عن القراءة؛ لتمسح دمعةً سقطت على وجنتها، ثم أكملت.. بعدما استفقنا مما حدث أتى المحامي الخاص بأبي؛ لينفذ وصيته، فوجدنا فيها مبلغاً كبيراً يخص

والدتك.. وعندما حاولنا إرساله إليك، علمنا أن الله قد ألحقها بوالدي.. وعندما حاولنا إرسال المبلغ على المنزل الخاص بكم باعتباركم الورثة تنفيذاً لوصية أبي، إذا بهم يخبروننا أنك في حالةٍ يرثى لها بعد أن رفضت أختك المبلغ قائلةً:

-لقد توفيت أمي.. وأنتم أولى بهذا المال منا.. ولقد قررت والدتي أن هذا المال قد خرج من ذمة أبي لكم.. وما كان لرجل مثل أبي أن يرد عليه ماله، أو أن تلقى عطيته في وجهه.

أنت لا تعلم كم اشتقنا لوالدي!.. وكم نرغب في احتضان كل شيءٍ كان يحبه أو حتى كان يراه!.. ولذلك لقد حاولنا زيارتك في المشفى مراراً، لكنه لم يسمحوا لنا.. فهلا سمحت لنا أنت بزيارتك؟!

****

عقدت "جهاد" حاجبيها في تعجبٍ وهي تهتفُ:

-"خالد".. ما الذي تفعله هنا؟

-إنني أنتظركِ منذ ساعةٍ كاملةٍ.. لقد تأخرتِ كثيراً اليوم.

-لم ترد "جهاد:، أدارت المفتاح في الباب، ثم ذهبت رأساً إلى غرفةِ نومها؛ لتبحث عن الحقيبة.. هتف "خالدٌ" في ضيقٍ:

-مالكِ متعجلة هكذا!!.. أريد الحديث معكِ في أمرٍ هامٍ.

نظرت إليه في حنانٍ، وهي تهتفُ:

-لابد أن أغادر خلال دقائق.

– أردتُ مساعدتكِ في أمر ما.. إنكِ الوحيدة التي تستطيعين إقناع أمي وأبي بما أريد فعله.

حاولت أن تمنحه دقائق من وقتها، والهلعُ يكاد يعصفُ بقلبها.. تخشى وصول أحدهم إليها، قبل أن تلوذ بالفرار.. لو تكلم طارق، وأخبرهم أنها من أصلٍ يهودي؛ لقتلوها جميعاً.. لن يحاول أحدٌ فهم ما ستشرحه لهم، بل لن يمنحوها الفرصة؛ لشرحه من الأساس.. لابد أن تغادر الآن رغم حبها لخالد، ورغم أنها مربيته، وفي مقام أخته الكبرى.. وهو لطالما عاملها على هذا الأساس إلا أنها ليس لديها وقتٌ كافٍ؛ لسماع ما يود قوله.. لكنه يحاصرها من كل جانبٍ مردداً كلاماً كثيراً لم تستوعب منه حرفاً واحداً.

حاولت أن تهدأ من روعها، وأن تمنحه بعض الوقت؛ لسماع ما يقول.. ولكنها كانت المفاجأة.. مفاجأة لم تتوقع أن تسمعها من صبي أبداً، وخاصةً لو كان هذا الصبي هو "خالد"، فتى العم "محمود" المدلل

******

حلقت الطائرة على الأراضي الفلسطينية.. لا تدري، لماذا تشعر أن هناك شيئا ما سيحدث؟.. إحساسٌ عجيبٌ ساورها منذ وضع أولِ قدمٍ لها في الطائرة.. حاولت الانشغال بقراءة بعض المجلات الموجودة بجانبها لكنها لم تعِ حرفاً مما قرأت.. أغلقت المجلة التي كانت بيديها، ثم عادت إلى شرودها ترى ما الذي سيحدث.

انتبهت، وعجلات الطائرة تضرب أرض المطار.. وضعت يدها على رأسها في محاولةٍ منها؛ للسيطرة على الصداع الذي يكاد يعصف بها.. أشغلتها إجراءات أمن المطار عن شعورها الغريب ذاك، ولم تكد تنتهي من هذه الإجراءات حتى لمحت شبح

"إيلان" يلوح من بعيد.. وضعت على شفتيها ابتسامة مفتعلة في محاولةٍ منها؛ لموارة القلق الذي يكاد يعصف بها.

-مرحباً، أنرتِ فلسطين كلها، وليس مطار" عطاروت " وحده.

-بل قل:

-مطار"القدس" الدولي كما يسميه أهله، وليس كما تسميه قوات الاحتلال.

افتر ثغره عن ابتسامةٍ صفراء، بثت بداخلها الكثير من القلق.. حاولت إزالة الحدة التي سيطرت على دفة الحديث قائلة:

-لقد قررتُ المكوث بأحد الفنادق القريبة من هنا، حتى أستطيع زيارة بعض المعالم الإسلامية التي أودّ زيارتها.

نظر إليها إيلان بعمقٍ ، وكأنه يحاول فهم ما تخفيه بداخلها، ثم قال معلقاً:

-لكن المنظمة تكفلت بذلك وقمنا بتجهيز غرفة خصيصاً لكِ حتى يسهل التواصل بين أعضاء المنظمة والتقائهم في الوقت الذي يحبون.

لقد سئمتُ مظاهر الحراسة والروتين والسكرتيرة، وتلك المظاهر التي أغرق فيها حتى النخاع في مصر، وأود أن أشعر ببعض الحرية هنا، فكما تعلم وقتنا هنا لن يستمر طويلاً، وسنغادر قريبا، وأريد أن أشعر ببعض الحرية قبل أن أعود إلى مصر.

-كما تشائين.. وداخله يهتفٌ:

-إن استطعتِ العودة إلى مصر من الأساس!!

-منذ أن أتيتُ إلى هنا، وطباعك متغيرة نوعاً ما، هل حدث شيءٌ؟

تلعثم إيلان في توترٍ، لكنه ما لبث أن سيطر على أعصابه قائلاً:

-أعتذر لكِ، ما قصدتُ هذا لكن هناك بعض النقاط الدبلوماسية الخاصة بالمنظمة، والتي لم نستطع تجاوزها مع الحكومة الفلسطينية حتى الآن.

-أعتقد أن مكوثنا هنا لن يدوم طويلاً.. حاول أن تمنحهم ما يريدون حتى نستطيع إنجاز ما جئنا من أجله.

-لكننا لن نستطيع إنجازه، إذا لم نستطع إقناعهم بفكرة المنظمة، والتي تنص أنه لابد أن نحصل على موافقة أربعة وزراء فلسطينيين على الأقل.

-وما هي فكرة المنظمة بشأن فلسطين؟

-نريد أن نقضي على تبادل إطلاق النار، ولو لمدةٍ محدودةٍ على الأقل.

رفعت " حياة " حاجبها في دهشةٍ، وهي تهتفُ:

-وكيف ذلك؟!!.. إن أردت تطبيق فكرتك هذه، فعليك أولاً بإقناع الحكومة الإسرائيلية بها، وليس الحكومة الفلسطينية.

-وما الفرق بين الحكومتين، المهم أن نصل إلى وقف إطلاق النار.

-إسرائيل هي التي تبادر بإطلاق الرصاص أولاً.. فكيف تطلب مني ألا أدافع عن نفسي أو حتى أحاول أن أرد الضربة؟!!

-في عُرفكِ هذا لن يتوقف سيل الدماء، وسيقتل كل أبناء هذا الوطن.

-ليكن، وما الفائدة أن يتوقف سيل الدماء، ويحيا أبنائي في حين أنني خسرتُ المأوى الذي يمكن أن يعيشوا فيه..

تنهدت ثم أردفت متابعة:

-محاولة إقناعك لأصحاب الأرض بوقف إطلاق النار هو ذاته أن تضع الدواء أمام المريض، ولكنك تجبره على عدم تناوله.. هو ذاته وضع الطعام أمام جائع، لكنك تأبى إلا أن تقيد يديه.. ذئبٌ آتٍ؛ ليفترسك وسلاحك بيديك، لماذا لا ترديه قتيلاً قبل أن يفعل هو هذا بك؟!.

هؤلاء الأنذال لن يردهم عن غيهم، ولن يردعهم عن ظلمهم إلا الرصاص.. وكما قالوا قديماً " لا يفل الحديد إلا الحديد ".. وكلما قاموا هم بإبادتنا، صممنا نحن أيضاً على إبادتهم.. إن قتلوا منا واحداً سنلد نحن مكانه مائة ألفٍ.

صمتت لحظة، ثم أردفت في استنكارٍ :

-ما بك؟.. أفكارك ومعتقداتك تغيرت فجأة هكذا، وكأنك شخصٌ آخر غير الذي التقيتُ به في مصر؟

-التمسي لي العذر.. لعل في عقلي أنا الآخر حرباً مثل الذي تندلع على هذه الأرض!!

انتهت حياة من ترتيب ملابسها بخزانة الغرفة، وعقلها لا يكف عن التفكير فيما قاله السيد " حازم عبدالسلام " فضلاً عن ذاك الوجه الذي قابلها به.. ترى ما الذي حدث أين ذهب حماسه؟.. ولماذا خارت قوته؟.. وما هذه النظرة العجيبة التي تلمع في عينيه؟

جلست أمام المكتب الذي يقبع بركن الغرفة.. قلبت مجموعة من المجلات الموضوعة عليه، وألقت نظرة عابرة على إحداها، وأخذت تتصفحُ أوراقها في مللٍ..

هبت واقفة، وكأنها تذكرت شيئاً ما، أمسكت بسماعة الهاتف.. ضغطت أصابعها بعض أزراره، ثم بدا عليها التردد.. هزت رأسها في قلق، ثم وضعت السماعة مرة أخرى.. لكن قلقها المجهول المصدر جعلها تعاود الاتصال مرة ثانية؛ ليجيبها الطرف الآخر، والذي لم يكن سوى مستشارها الخاص الذي رفضت حضوره معها هنا رفضاً قاطعاً رغم عدم رسمية تصرفها ذاك.

طلبت منه أن يعيد فحصه مرة أخرى، بخصوص منظمة الطفل العربي والسيد " حازم عبدالسلام " وأن يوافيها بما توصل إليه بعد ساعتين على الأقل

******

-ما هذا الذي تقوله يا خالد؟!.. لابد أنك تهذي.

-وهل هذا الأمر يصلح لأن يكون موضعاً للهذيان؟!.. أريد أن أذهب إلى معسكرات التدريب، وأن أدحر العدو ما العجيب في ذلك؟

-أنت لا زلت صغيراً.

-العدو لا يفرق بين صغير أو كبير.. رصاصاتهم تخترق صدور الجميع، وأنا بقلبي حبٌ للجهاد، ونفسي تطوق للشهادة، وأريد أن أنتقم لأختي زهرة التي لم يأخذ أحد ثأرها حتى الآن.

-وماذا لو رحلت أنت الآخر على أيديهم؟.. ماذا ستفعل والدتك حينها؟

-لن تفعل شيئاً..هذا قضاء الله إن كتب علي الموت صغيراً، سيقبضني إليه حتى لو كنتُ في بروجٍ مشيدةٍ.. أرجوكِ يا جهاد، اقنعي أبي وأمي.. اليهود يقتلوننا كل يوم، ويهدمون بيوتنا كل ساعةٍ، هل سنظل نشاهدهم ونحن مكتوفوا الأيدي، ويعمنا

الصمت هكذا؟.. لابد أن أذهب إلى إحدى معسكرات التدريب قبل أن تخور قوانا، ويزجوا هم بنا إلى معسكرات اللاجئين.

ابتسمت جهاد رغماً عنها، ثم قالت:

-تتكلم وكأنك رجل.. فرحتي بك لا حدود لها الآن.. أعادت جهاد كلمته مرة ثانية معسكرات التدريب خيرٌ لنا من معسكرات اللاجئين.. ثم لمعت في رأسها فكرة أنه لا مكان لها إلا في أحد هذه المعسكرات.. لن يتعرف عليها أحدٌ هناك، وقد آن الآوان أن تثبت للجميع أنهم كانوا مخطئين في ظنهم، وأنها أكثر وطنية منهم.

وفي معسكرات التدريب سيقومون هم بدورهم.. لن يعجزوا عن منحها الملبس والمأكل والمأوى....

-جهاد.. في ماذا تفكرين؟.. أنا أحدثكِ.

-لا شيء.. ما دمت القضية بالنسبة لك هي أننا بحاجة للمقاومة، ولرد الضربة وردع العدو فطارق أولى منك بفعل هذا.. طارق رجل، ويستطيع حمل السلاح، وإبادة كل من يتعرض له منهم.

-وماذا عن مصالح والدي؟.. مَن سيتكفل بها إذا ذهب طارق إلى معسكرات التدريب؟.. صدقيني أنا أنسب شخص يستطيع أن يثأر لزهرة.. لستُ مهماً كأبي وأخي طارق.

صمت لدقيقة ثم عاد يقول في توسلٍ :

-هل اقتنعتِ أنتِ حتى تستطيعين إقناع أمي ؟

-وكيف أقنعُها بأن تسمح لصغيرها ذو الإثنى عشر عاماً أن يغادر أحضانها بلا عودة وأن ينضم إلى الفدائيين.

-لن أحارب معهم عاجلاً هكذا.. لابد أن أتدرب على حمل السلاح أولاً، وعلى استخدام القذائف.. لابد أن أتمرن على تمريض الجرحى، وكيفية الهرب في وقت قياسي وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. وبعد ذلك ستأتي مرحلة الانضمام إلى صفوف المحاربين........

قطع كلامه فجأة صوت بوق السيارة التي توقفت أمام حديقة المنزل.. ارتبكت جهاد، وامتقع لونها وبدا عليها الخوف والهلع.. حملت حقيبتها، وركضت نحو باب المطبخ، ثم غادرت المنزل من الباب الخلفي للحديقة متجاهلة نداءات خالد المستمرة وركضه وراءها.. أوقفت إحدى سيارات الأجرة.. وضعت حقيبتها.. نظرت نحو خالد الذي بدا مضطرباً، ثم قالت بصوتٍ حزينٍ ودموع تقف على أعتاب عينيها:

-لم يمنحني طارق الوقت الكافي؛ لأودع أبويك وداعاً يليق بهم.. أخبرهم أن يسامحوني جميعاً.. ازدردت دموعها.. ووضعت نظارةً سوداء على عينيها وأمرت السائق أن ينطلق.

******

الفصل السادس
اعتذارٌ من نوع خاص

عندما ارتفع أذان المغرب.. تركت مقعدها بالشرفة، وحملت صينية موضوعٌ عليها بعض الأكواب الفارغة.. وضعتها على منضدة بالمطبخ، واتجهت مسرعةً إلى غرفة نومها؛ لترتدي ملابسها فالرفاق في طريقهم إليها الآن حتى يوصلوها إلى أحد المعسكرات التدريبية كما هو متفقٌ عليه.

ارتفع رنين الهاتف.. تمتمت وكأنها تحادث نفسها:

-لابد أن المتصل هو مستشارها الشخصي.. ومن المؤكد أنه يريد أن يبلغها بآخر ما توصل إليه عن المدعو " حازم عبدالسلام "، ولكن توقعها لم يكن في محله.. لم يكن المتصل سوى " حازم عبدالسلام " نفسه؛ ليطلب منها شيئاً عجيباً.. عجيباً جداً.. شيئاً لم تتوقع أن تسمعه من مثله أبداً.

ألقى عليها السلام بنبرةٍ مختلفةٍ، ثم قال والندم يلوح على كل حرفٍ ينطقه:

-آنسة " حياة " عديني أن تعودي إلى مصر الآن.

سألته بصوتٍ مبحوح:

-لمَ؟

-أشعر ببعض القلق، ولا أدري لمَ وهو في الحقيقة يدري لمَ!

-لم أفهم، هل تم إيقاف عمل المنظمة هنا؟

-لا.. لكن وجودك هنا يعني أن هناك خطرا عظيما يحيط بكِ.

توقف عقلها عن التفكير، ولم تستوعب ما الذي يحدث.. صوت بوق سيارة الرفاق، انتشلها من أفكارها المتخبطة.. وضعت سماعة الهاتف، وأكملت ارتداء ملابسها.

الظلام الدامس، وعربتان سوداوان تطويان أرض الطريق الذي يشق الصحراء إلى أحد معسكرات الفدائيين، وحياة تقبع في إحدى العربتين، ترقب التبات الصفراء على جانبي الطريق.. ويبدو على اليمين برجٌ أصفر مهدمٌ وقديمٌ.. وتلتقط أذانها حديث الرفاق المليء بالدهشةِ، والحماس الذي يتحدثون فيه عن زيارتها لأحد معسكرات الفدائيين.

قالت "حياة":

-زيارتي هذه من أفضل القرارات التي قررتُ اتخاذها يوماً ما.. وهي التي اعتادت على الحياة بين الجنود، واعتادت على المرور بين الجرحى، وسماع مشاكلهم الاجتماعية والإنسانية.. إلا أن خطوتها هذه تشعرها أنها مختلفة تماماً عن كل أعمال الخير التي قامت بها يوماً ما.. وأنها سعيدةٌ بوجودها بعد دقائق بين جموع الفدائيين.. وأضافت لقد شدت معسكرات التدريب أزر الفلسطينيين، وصلبت عودهم، بعدما توهم أعداؤهم من قصم ظهورهم بعد محرقة المسجد الأقصى الأخيرة.

واستمرت العربة تطوي الطريق، والرفاق يتحدثون، ويلقون النكات المضحكة، وكأنه لا يوجد ما ينغص حياتهم، أو ما يوحي بأن هناك حربا تشتعل على هذه الأرض.. حاولت أن تتجاهل قلقها بخصوص مكالمة " حازم عبدالسلام "، لكن عقلها لم يستجب، ثم أخذت السيارة تعبر الطريق الذي دكته القنابل والصواريخ من قبل..

ومزيدٌ من الدمار، يحلق فوق الرؤوس.. أنصاف بيوتٍ انهارت سقوفها.. وسواد الحرائق يلطخ بالهباب بياض جدران البيوت والمرافق.

وبدت القرى من بعيد أطلالاً مهدمة.. جدرٌ منهارةٌ وأسقفٌ غير موجودة.. ومآذن مساجد محطمة.. لقد بدا لعينيها أن حرباً قامت هنا، وأن المدينة قد دُكت بالقنابل والقذائف، وأنها قد خلت من أهلها منذ زمنٍ بعيدٍ.

وأخيراً، وصلت العربة إلى مقر القيادة، وكان في استقبالها، بعض ضباط القيادة، وبعض الأطباء.. وقيل كلامٌ كثيرٌ، عبارة عن ترحيب وامتنان وفخر بدور مصر الملحوظ في تاريخ القضية الفلسطينية.

جلست تتوسط الجلسة على أرض رملية أمام المعسكر، ويلتفّ حولها الجميع من الضباط والجنود والأطباء، ومجموعة من الممرضات، وحتى القمر كان يطل على جلستهم تلك بأنواره الفضية التي ما إن سقطت على وجه " حياة " حتى حولتها إلى ملاك، لا يخشى الموت، جاء إلى قلب فلسطين حيث اندلاع الحرب، وقيام الغارات، وأصوات القذائف والقنابل، ونظر الجميع لها في إعجابٍ أما هي فأصابت روحها طمأنينة عجيبة.

وكانت تشعر أن وجودها هنا، يمكنه أن يشحذ همة هؤلاء، وأن يبث في روحهم الكثير من الطمأنينة، بالرغم من أزيز الطائرات التي تلوح فوق رؤوسهم.. ودوي القنابل القريب منهم.. وأصحابهم الجرحى أو الشهداء الذين يخلفونهم وراءهم في كل مناوشةٍ أو معركةٍ.

وبالرغم من كل الفخامةِ والأبهةِ التي يفرضها عليها منصبها، إلا أنها كانت تبدو في حالتها تلك عادية جداً، وكأنها تحب أن تكون نفسها، وتحب أن تتعامل مع الناس بقيمتها الحقيقة المستمدة من ذاتها، وليس تلك القيمة المستمدة من منصبها، حتى إذا زال المنصب، وفقدت البريق الذي يحوم حولها، ظلت كما هي في قلوب الجميع.. لم تتغير نظرة أحدٍ لها، ولا تعلقهم بها.. فقدت شرودها فجأة، عندما هتف أحد الجنود قائلاً:

-يقولون إنّ الجيش المصري يستعد؛ ليبعث لنا أكثر من عشرة آلاف جندي حتى نستطيع أن نأخذ حقنا، وأن نستعيد كرامتنا بعد إحراق جزء من المسجد الأقصى.

قالت في تساؤلٍ:

-مَن قال هذا؟

-الجنود يتكلمون، ويقولون أيضاً إنكم تستعدون؛ لضربهم معنا بالمدفعية والصواريخ.

-لن نضربهم إلا إذا ضربونا.. هناك إتفاقية سلام بيننا.. ولن نجسر نحن على خرق قواعدها.

-لكنهم سبق وضربونا، ثم أحرقونا نحن.

-عليكم إذن أن تقوموا برد الضربة.. المصريون لن يثأروا بدلاً عنكم.. أنتم أولى بهذا منا، وإذا قررتم، فبتأكيد كل الدول العربية وليست مصر وحدها بجانبكم.

مط الجندي شفتيه بعصبية وكأن حديثها لم يرق له.. ثم رد جندي آخر من آخر الجلسة قائلاً:

-عموماً يبدو أننا سنضربهم عن قريب.

وعلت الأصوات كلها تسأل:

-متى؟

-لا أدري ولكنني أشم في الجو ريح خطر.. أخطر مما تعودناه.. يبدو أن المسألة ليست سهلة.

ثم قال أحد الأطباء في تعجبٍ:

-ولكن القيادة لم تخبرنا بذلك حتى نجري استعداداتنا.

وكانت " حياة " قد وجمت، وبدا عليها شرودٌ لم تخرج منه، حتى ساق أحدهم إليها الحديث قائلاً:

-وهل إذا ضربونا فعلاً ستمدوننا بالمال والسلاح؟

-أجل، بالتأكيد.

-على كلٍ ، كان يجب أن يحدث هذا منذ زمن.

-على أيةِ حال، لن يحدث هذا إلا إذا خرقت إسرائيل معاهدة السلام.. وبدا الحوار متشابكاً ومتداخلاً.. صوتٌ من هنا وآخر من هناك.. لا يكاد يدري أحد مَن قال هذا ولا مَن رد على مَن.

-ظنت إسرائيل أنها تستطيع أن تستولي على وطننا بسهولةٍ، وأن توقف عمل الفدائيين، لكننا سنثبتُ لها عكس ذلك.

-وكيف سنواجه مشكلة تدفق السلاح الأمريكي على إسرائيل.. لا تنسوا أن أمريكا تعد نفسها الأم الحنون لبني صهيون.. ولا تنسوا أن ذلك سيجعل لها اليد العليا،

وسيحبط أي محاولةٍ حرية لنا، وأي رغبة أكيدة في قتالها بدلاً من المناوشات المنفردة هذه.

-أعتقد أنه قد آن الأوان أن تقف كل البلدان العربية إلى جانبنا.. كفى كل هذا الوقت الذي ذهب هباءً دون أن نستطع رد هذه الأرض.

قال أحدهم في تمنٍ :

-لو ساعدتنا مصر.. إن أجنادها خير أجناد الأرض.. إنها تصر على موقفها المتخاذل تجاهنا.

ثم ارتفعت صيحات استنكار، وقال أحدهم في حدةٍ:

-ألا يكفيكم كل ما فعله الجيش المصري معنا، من إرسال معوناتٍ وأسلحةٍ وغير ذلك؟

ثم قال آخر بلهجةٍ آسفةٍ:

-من الواضح أنك تثق كثيراً بحديث الإعلام.

ارتسم الحزن على ملامح " حياة "، ويبدو أنها كرهت أن تتحاول المناقشة إلى محاولة تقييم دور مصر تجاه القضية الفلسطينية.. وهمت بأن تقول شيئاً عن الدور الرئيس الذي تبذله مصر؛ لاستعادة القدس، ولكنها أحست أن الهمس يسري حولها، وأن الكلمات الغامرة تتواثب على الشفاه، وأنها إن حاولت قول شيءٍ، سيتخذ الحوار مجرى آخر كشجار أشعله مؤيدٍ ومعارضٍ .. وودت لو تغير الموقف السخيف، الذي ينم عن شائعات ولغط وأقاويل عن الحكومة المصرية.. وتمنت أن ينتهي النقاش بطريقةٍ سريعةٍ حازمةٍ، فقالت بلهجة مقتضبة:

-لم أتوقع أن يثير وجودي داخل أحد المعسكرات الفدائية كل هذا التشاحن.. حتى وإن كنتم تظنون أننا لم نفعل من أجلكم شيئاً ذا قيمة، فنحن نستمر في فعل هذا اللاشيء حتى يصبح شيئاً ذا قيمة من أجل القدس، وليس من أجل إرضاء أشخاص.

تملكها لأول مرةٍ إحساسٌ بالهوان، فلقد كرهت أن يظن هؤلاء أن مصر مجرد دولة محسوبة على الأمة العربية فحسب رغم أن مصر هي رأس الأمة، ولا ينكر ذلك إلا كاذبٌ أو مخبولٌ.. كرهت أن تضيع هيبتها ومنصبها ومظهر نفوذها، والتي لم تحرص على ممارستهم منذ أن وطأت قدماها تراب هذه الأرض لدرجة أنها جاءت إلى هنا في ثوب مواطنةٍ عاديةٍ جداً، وليس بصفتها أحد مستشاري رئيس جمهورية مصر العربية.. تركت الجلسة، واتجهت إلى فراشها بالغرفة التي أعدت خصيصاً من أجلها.

بعد برهةٍ، استأذن أحد القادة في الدخول عليها وبدأ حديثه قائلاً:

-لا تشغلي بالكِ بأقوال هؤلاء.. استطرد يقول بعد لحظةٍ صمتٍ:

-كل يومٍ يودعون واحداً منهم دون أن يعرفوا مَن سيكونُ دوره غداً.. حالتهم النفسية مضطربة، وأنتِ أدرى الناس بذلك، فلا تؤاخذيهم بما قالوا، ولا تشغلي بالكِ بما حدث.

ثم قال، وابتسامة تلوح على ثغره:

-على أيةِ حال، لقد قرروا الاعتذار لكِ ولكن بطريقتهم الخاصة.

هتفت مبتسمة:

-كيف؟!!

هيا لنخرج الآن، ولنكمل حديثنا بعد أن ينتهوا من مراسم اعتذارهم.

أحست بنوع من الارتياح، وهي تجد أن مظهر الهوان الذي أحاطوها به يمكن أن يمحوه اعتذارهم الجماعي هذا.. خرجت من الخيمة التي كانت تستقر بها؛ لتجدهم قد بدلوا أماكنهم، وجلسوا في حلقةٍ مفرغة، يتوسطها أحدهم بقامته الطويلة وكتفيه العريضين.. نظر نحوها في ابتسامةٍ ثم سأل ضاحكاً:

-ما رأيكِ باللهجة الفلسطينية؟

-أحبها.. يكفي أنها تخصكم.

-إذن فلنطربكِ بها.. ثم ارتفع صوته الندي بغناءٍ جميل مطلعه

يا دنيا عليّ اشهدي

ما لنت للمعتدي

يا شعوب الضاد لازم

بالوجع تتوحدي

ويا عروبة تجددي

ما شبع منا الشقى

ولا كنا نلتقى

يا عرب اصحوا بقا

ويا عروبة تجددي

فلسطين يا أمي

يا ساكنة دمي

متى شتات الأهل

في أحضانك تضمي

وبشرعها الأحرار

النار بدها نار

والدار إلنا دار

وبصوت عالي رددي

يا عروبة تجددي

غنيتك بصوتي

وبصمتي وسكوتي

هالعمر ما يغلى

يرخص إلك موتي

يا أقصى يا مجروح

عن بالي ما بتروح

ما دام فيا الروح

يا قدس أنتِ موعدي

ويا عروبة تجددي*

*الشاعر نزار فرانسيس

وقف الجميع، وظلوا يدورون حوله، ويرددون معه في صوتٍ واحدٍ، وابتسامةٍ جميلةٍ تلوح على ثغر كل منهم.. وسرت موجة من السعادة في أعماقهم خاصة أنهم يغنون، ويرددون وكأنهم في عرس واحدٍ منهم، وليسوا في أحد النقاط العسكرية بالصحراء.

ظل " عبدالرحمن " يشدو بصوته العذب، وقد علت البسمة شفتيه.. وشاع المرح في قسماته.. شيءٌ عجيبٌ، وسط هذا الفقر والدمار المحيط بهم.. شيءٌ أشبه بعودة الحياة من بين القبور.. إشراقة تتحدى كل ما يحيط بهم من خراب.. شيءٌ يؤكد تدفق الحياة، وتحديها لكل وسائل الدمار.

وملأ " حياة " إحساسٌ بالأمومة تجاه هؤلاء، وتمنت لو استطاعت أن تضمهم جميعاً إلى أحضانها.. هؤلاء الساهرون؛ لحماية حمى الوطن.. الرابضون في مواقعهم.. الضاحكون رغم كل آهات الجرح التي تتصاعد من بينهم.. رغم نوبات الجحيم التي تصب فوق رؤوسهم.. الفرحون بغير شيءٍ يبعث على الفرح سوى ثقة بالله تنبع من داخلهم؛ لتشد أزرهم.

أنهوْا مراسم اعتذارهم، ثم تقدم إليها " عبدالرحمن " متسائلاً:

-هل قبلتِ اعتذارنا يا سيدتي؟

-بالطبع، يا "عبدالرحمن".

-أتعلمين أن جدتي لأمي مصرية الأصل، وولدت بحي السيدة "زينب" بالقاهرة!!

-إذن فنحن أقارب.

-نعم.. رغم حدتي في الحديث عن تهاون الجيش المصري في الدفاع عن المسجد الأقصى، إلا أنني أحب مصر، وأعشق كل ما هو مصري.. ولولا أنني أعتبر نفسي مصرياً مثلكم، لما تكلمتُ عن مصر بهذه الحدة.. ثم أردف ضاحكاً، ولكنكم تستحقون.

قالت " حياة " عابسة:

-ستكلفُ حنجرتك اعتذاراً ثانيا.

قهقه قائلاً:

-بل ستكلفين أذنيكِ سماع صوتي النشاز مرة أخرى!

-مَن قال ذلك؟.. صوتك عذبٌ للغاية.

-لطالما راودتني فكرة الغناء من أجل الوطن فحسب؛ لبعث الحماسة في نفوس المجاهدين والمحاربين.

-فكرةٌ نبيلةٌ.

-لكنني ما لبثتُ أن غيرتُ رأيي، واقتنعتُ أن حنجرتي لن تخدم هذا الوطن مثلما قد تخدمه روحي.. ومنذ تلك اللحظة، تركتُ الغناء الوطني الذي كنا نلقيه على أطلال القرى المنكوبة، أو في الميادين أثناء الأعياد وغيرها، واتجهتُ إلى معسكرات التدريب دون أن أخبر أمي بذلك.

-ولماذا لم تخبرها؟

-حتى لا تجزع، وتحمل همي، وتقضي أيامها الأخيرة في حيرةٍ وقلقٍ.. إنها امرأة طيبة، وأخشى أن أخذلها بعدم عودتي إليها يوماً ما.

-ألا تحملُ همها أنت؟

تنهد " عبدالرحمن " في ألمٍ قائلاً:

-إنها الحرب، بسببها لا نحمل همّ شيءٍ إلا الثأر لأنفسنا، واستعادة الوطن.. مَن جاء إلى معسكرات الفدائيين هذه فإنه لا يفكر في غيرها.. ينسى الأهل والأحباب، عندما تندلع أحد المناوشات أمامنا، حينها يبهت كل ما خلفنا.. يصبح كل شيءٍ أطيافاً وذكريات.. ثم نظر إليها، وأردف آسفاً حتى دموع الأمهات وخفقات قلوبهن تصبح مجرد أطيافاً باهتة........ .

قطع عليهما الحديث وصول أحد القادة والذي يدعى " ياسر الصاوي " استأذن " عبدالرحمن " ثم انصرف.. تنحنح القائد قائلاً:

-طلبتِ مني أن أوفر لكِ لقاءً بأحد ساكني حي " حيفا " بغزة لأمر خاص بكِ، أليس كذلك؟

-نعم.

-أيمكنني معرفته لعلني أستطيع مساعدتكِ؟

-شردت "حياة" ببصرها، وتحدثت كما لو أنها ترى ما تحكيه رأي العين.

****

عندما كنتُ في السابعة من عمري، كانت لنا جارة يهودية.. رقيقةٌ وطيبةٌ.. ولطالما شككنا في أمرها، كيف لأمرأةٍ يهوديةٍ أن تكون بهذا التدين والتواضع!!.. بعد أيامٍ قليلةٍ صادقت المرأة أمي وصادقتُ أنا طفليها.. أحبت أمي المرأة، وكأنها أختها حتى أنا كنتُ أناديها بخالتي!!

وما هي إلا أيامٍ قليلةٍ، حتى علمنا منها أن زوجها توفي متأثراً بجراحه في أحد المعارك الدائرة بيننا وبين اليهود شرق القناة أثناء حرب الاستنزاف.. رغم أنه لم يكن جندياً بالجيش، إلا أن رصاصة طائشة استقرت برأسه أثناء ذهابه بطعام الجنود المكلف به من المصنع الذي يعمل به.

بعد عامين من إقامة المرأة معنا، قررت السفر إلى وطنها إسرائيل.. حاولت أمي أن تمنعها مراراً لكن المرأة لم تستجب.. بكتها أمي، وكأنها فقدت أختاً عزيزةً وجارة طيبة .

بعد يومين من رحيلها، طرق بابنا أحد الغرباء، وما أن فتحت له أمي حتى تلعثم الرجل، وتردد في وقفته قبل أن يتكلم.. حثته أمي على الدخول.. خطا الرجل خطوات قصيرة مرهقة، وقف في منتصف الحجرة تبدو عليه الحيرة، وتنمّ قسماته عن الجزع.

وعادت أمي تتساءل:

-ماذا هناك؟

-أنتِ السيدة " صفاء "؟

-نعم.. وصمت برهة، فقالت أمي تستحثه على النطق:

-كيف يمكنني مساعدتك؟

-منذ عامين، جاءت امرأة يهودية؛ لتسكن هنا، أليس كذلك؟

-أجل.

-وأين هي؟

-رحلت.

قال الرجل بجزع:

-إلى أين؟

-إلى بلدها إسرائيل.

فصرخ الرجل، فتساءلت أمي في مزيدٍ من الدهشةِ والجزع:

-ما الذي حدث؟

وواصلت أمي الأسئلة تحاول أن تنزع الكلام من بين شفتي الرجل الذي يقف بيننا في جزع وذهول:

-مَن أنت؟.. ولماذا تريدها؟

وكان رده كالصاعقة:

-زوجها.

ضربت أمي يدها على صدرها وصرخت:

-ألم تمت؟

لكن الرجل رد بدموعٍ تسير على وجنتيه:

-لم أمت إلا الآن.

حاولت أمي تهدئة الرجل، وياليتها ما فعلت.

لمَ..؟ قال الضابط.

بينما هي تفعل، إذا بالرجل يسترجع ويحوقل، ثم يستأذن في الذهاب إلى دورة المياه حتى يتوضأ.. سألته أمي في ريبةٍ:

-أمسلمٌ أنت؟

-أطلق الرجل زفرةً حارةً، ثم قال آسفاً:

-نعم.. وزوجتي أيضاً كانت كذلك.. وانطلقت صرخة من أمي التي لم تعد تفهم شيئاً.

شرع الرجل يحكي لنا قصته من البداية.. أخبرنا أنه فلسطيني الأصل.. أتى إلى مصر في مهمةٍ عسكريةٍ.. استأجر غرفة صغيرة في أحد الأحياء الشعبية، حتى لا ينكشف أمره، وحتى يضيع بين ساكنيها، بعد ذلك اشتعلت قصة حب عنيفة بينه وبين ابنة صاحبة المسكن، أفضت بهما إلى الزواج، ولكنه لم يخبر أحداً بأصله الفلسطيني، ولا بالمهمة التي جاء من أجلها حتى زوجته لم تعلم عن هذه الأسرار العسكرية شيئاً تنفيذاً للقسم الذي أداه للحفاظ عليها.

وظلت زوجته تعتقد أنه أردني الأصل، وبأنه يقوم بأحد المهمات المشتركة بين الجيش المصري والجيش الأردني، ثم أسر الرجل لمدةٍ ثلاثة أعوام، ولم تعد زوجته تعلم عنه شيئاً، فقررت الرحيل بأبنائها من القاهرة إلى الأسكندرية، كما هو متفقٌ عليه بينه وبينها.. فقد اتفقا مسبقاً إن تغيب عن المنزل لمدةٍ تزيد على الستة أشهر، فيجب عليها الرحيل من القاهرة والاستقرار بأحد الشقق التي اشتراها مسبقاً في منطقة الرمل بالإسكندرية.

ويشاء القدر أن تكون هذه الشقة هي الشقة المقابلة لشقتنا.. توقف الرجل لبرهةٍ قصيرةٍ، وازدرد دموعه ثم تناول ورقة وخط اسمه كاملاً وعنوانه كاملاً بفلسطين، ثم ترك الورقة بيد أمي ثم قال آسفاً:

-إن لم أعد إلى هنا بعد ثلاثة أشهر على الأكثر فاعلمي حينها أنني قد نلتُ الشهادة، وحاولي قدر المستطاع أن ترسلي هذه الرسالة لزوجتي التي لا أعلمُ ما سر تهويدها حتى الآن.. صلى الرجل الركعتين، وانصرف.

وحتى الآن، وأنا أحملُ هذا السر في تلك الرسالة فوق عاتقي حتى أصل إلى أهل الزوج أو إلى الزوجة وأبنائها، وأوصلهم ببعضهم البعض إن استطعت.

تنهد الضابط ثم قال مفكراً:

-من السهل أن تبحثي عن أهل الزوج، إذا كنتِ لا زلتِ تحتفظين بالاسم والعنوان كاملاً، وحتى إن تغير عنوانهم فإننا نستطيع أن نسأل عنهم في مسكنهم القديم، ونتتبع تنقلاتهم.. أما بالنسبة للزوجة، كيف سنبحث عنها في إسرائيل؟!، ثم إنني أشعر أنها لا تستحق أن نفكر في البحث عنها أصلاً بعد أن اعتنقت اليهودية، واتخذت من إسرائيل موطناً لها!!

قالت " حياة " رغم شرودها:

-وماذا إن كانت هذه مجرد خدعة، حتى تستطيع الانتقال من مصر إلى موطن زوجها بالأردن؟!.. وظل سؤالها معلقاً في الهواء، ولم يجب عليه أحد، ويبدو أن الضابط أيضاً قد ركن إلى وجهة نظرها.

صمت لبرهةٍ قصيرةٍ ثم أضاف قائلاً:

-أحد رجالنا بغزة على علمٍ بمعظم ساكنيها، فدائماً كان عمله يرتبط باللجنة الاجتماعية، سأحاول أن أرتب لكِ لقاءً معه بإذن الله.. إنه يدعى ((طارق محمود دراز)) عيننا الساهرة على أهلنا بغزة، والموزع المعتمد للأموال والتبرعات للمحتاجين

آملا ألا تعودي فارغة الأيدي بعد لقائكِ معه.

ولم تمضِ بضع دقائق، حتى استأذن " عبدالرحمن " قائلاً:

-سيدي، أحد الشباب يريدك بالخارج بإلحاح، ويريد الحديث معك في أمرٍ خاصٍ ومهمٍ للغاية.

قال الضابط باندهاشٍ :

-في هذا الوقت.. علي كلٍ سآتي حالاً.

****

الفصل السابع
قطعة من الجحيم

جلس" ألبرت" خلف مكتبه؛ ليفحص بعض الأوراق التي أتاه بها رجلهم داخل أحد المعسكرات الفدائية للفلسطينيين.. فتح أحد الأدراج، وأخذ يقلب ما فيه من أوراق، ويعلو شفتيه بعض الامتعاض، وكأنه ليس راضياً عما يقرأ، لم يكد ينتهي من فحص الأوراق الموضوعة أمامه حتى أقبل صديقه " جان ميشيل "، صديقه في القسم، وأصدق أصدقائه بعد " إيلان ".. سليط اللسان، ولكنه خفيف الظل.

استقر على مقعد أمام مكتب ألبرت، وتساءل في لهفةٍ:

-ألم يبدأ الاجتماع بعد؟

-أيُ اجتماعٍ ؟

-اجتماع نسور الموساد، الذي يُعقد على غير موعدٍ؛ لينبأنا عن وجود حالةِ طوارئ.

-ولماذا يُعقد الآن، هل هناك طوارئٌ ما؟

-من الواضح أنك لم تعلم شيئاً عما يجري هنا.

-تكلم يا رجل، ماذا هناك؟

-يقولون إنهم سوف يعلنون حالة الطوارئ، وأن هناك أخبارا سيئة، تخص ذلك المدعو إيلان.

انعقدا حاجبا ألبرت في شدة وهو يهتف مردداً:

-"إيلان"!!!

ثم أردف "جان" متابعاً:

-رن هاتف مكتبي منذ ساعتين؛ ليخبرونني بميعاد الاجتماع، وأخبروني أنه سيُعقد بحجرة الرئيس في تمام الحادية عشرة، والساعة الآن الحادية عشرة وست دقائق.. لقد ظننتُ نفسي متأخراً، وعدوتُ ألهثُ؛ لألحق الاجتماع، لكنني فوجئتُ بضوء مكتبك، فعلمتُ أنك لا زلت هنا، وجئتُ؛ لأستطلع الخبر.

قلب" ألبرت" يده، وألقى نظرة على الساعة، ثم قال بهدوءٍ:

-لابد أن الأمر جدٌّ خطير.. عودة إيلان من مصر وراءها سر خطير.. أيعقل أن يكون المصريون قد اكتشفوا أمره بسرعةٍ هكذا؟

-هذا " الإيلان " لا يروق لي، ودائماً ما قلتُ إن وراءه مصيبة ما، وأراهنك أن وراء هذا الرجل كارثة.

رفع ألبرت حاجبيه قائلاً:

-على كلٍ ، سنعلم ماذا وراءه بعد دقائق؟

وأقبل أحد العاملين، ووقف بالباب قائلاً:

-تفضلا.. الرئيس ينتظركما في مكتبه.

ونهض "جان"، يتبعه ألبرت متجهين إلى حجرة الرئيس.. تحلق الضباط حول مائدةٍ عريضةٍ بمكتب الرئيس، يعتليها بضع زجاجات من الماء البارد، وبعض الأوراق التي وضعت على مقدمتها بعناية.. وما هي إلا دقائق، حتى دخل الرئيس، وجلس على كرسيه دون أن ينطق حرفاً.. ظل يطرق بالقلم على طرف المنضدة طرقات تنم عن توتره، وأخيراً قال غاضباً:

-هل التقى أحدكما بإيلان بعد عودته من مصر؟

لم يجب أحد.. وتلقائياً تبادل جان وألبرت النظرات.. ثم قال أحد أفراد الاجتماع:

-لم ألتقه، لكن بلغني أمر عودته من مصر، وطُلب مني عمل تحقيق، وزادت علامات التجهم على وجه الرئيس محاولاً إضفاء جوٍ من الجدية على اجتماعه، ثم أردف قائلاً:

-على كلٍ ، هو في طريقه إلينا الآن؛ لننظر في أمر ذاك التحقيق كلنا معاً.. وأتاهم صوتٌ عابثٌ من الخلف قائلاً:

-المسألة لا تحتاج إلى تحقيق، بل إلى ترقيةٍ جديدةٍ.

******

هبط الظلام، وما زالت العربة التي تستقر بها جهاد، تطوي الطريق طياً إلى أحد المعسكرات.. ظلت جهاد تحدق بأشجار الطريق، وهي شاردة الذهن، وفجأةً، أمسكت يدها بالمقعد الأمامي حتى لا تقذفها المطبات خارج العربة، وهدأ السائق من سرعته وهو يتمتم:

-آسفٌ، لكن الطريق ما زال أمامنا طويل.

هزت رأسها في تفهمٍ، ونظرت إلى عينيه في المرآة، فلمحت فيهما نظرةً غريبةً مستفهمة توحي بأنه لا يدري حقيقتها، هل هي رجل أم بالفعل فتاة؟.. تنهدت في عمق، وفقدت الثقة في تنكرها الرجالي، لكن على كل حال، لقد اتخذت الخطوة، ولم يعد هناك سبيل للرجوع.

وبعد ساعاتٍ قليلةٍ، كانت جهاد تقفُ في زي رجل أمام المكان المقصود.. استدارت العربة التي كانت تقلها إلى الطريق عائدة من حيث جاءت.. شكرت جهاد السائق، وأمسكت بحقيبتها، وتقدمت ببطءٍ نحو المعسكر.. ألقت على زيها نظرة سريعة؛ لتتأكد أنه لن يكشف أمرها أحد.. وفي طريقها صادفت أحد الجنود الموكلين بالحراسة، اكتفت بقولها أنها أحد المتطوعين الجدد، ويريد اللقاء بقائد المعسكر الضابط " ياسر الصاوي "، حتي ينظر في أمره.. أجلسها الجندي في خيمةٍ جانبية.

ولم تمضِ بضع دقائق، حتى أتى إليها بعض الضباط المسئولون عن المكان، ولم تكد تبدأ في الحديث عن نفسها، وما الذي أتى بها إلى هنا؟ حتى أتى الضابط ياسر الصاوي ثم مد يديه مصافحاً، ترددت في السلام عليه، لكنها أخيراً مدت يديها مصافحة إياه هي الأخرى.. رحب بها متعجلاً، ثم اعتذر منها؛ لوجود ضيفة مهمة بالمعسكر.. طلب منها إملاء بياناتها لأحد الضباط المكلفين بهذا، ثم المبيت بحجرة المتدربين الجدد، وفي الصباح سيفهم منه كل شيءٍ.

ولم تكد الشمس أن تشرق، حتى اندلع القصف، وبدأ الدوي والأزيز والفرقعة، وعلت أصوات الراديو في الشوارع والحوانيت والأزقة؛ لتعلن أن هجوم إسرائيل قد بدأ في كل مكان، ولم يفرقوا بين رجل أو امرأة، أو بين صغير أو كبير، وتوالت الأنباء.. ونشرة الأخبار يتبعها أخرى، وأناشيد وطنية محمومة تشيد بالكفاح، والإعلاميون في التلفاز يهددون ويتوعدون.

ومع كل دقيقةٍ، الدوي يزداد، والانفجارات تصم الآذان، ولم تكتفِ المدفعية الإسرائيلية بدك معسكرات الفدائيين فقط، بل امتلأت الشوارع بالدبابات، وأغلقت الحوانيت، وفجرت الأسواق والجنود الإسرائيون يقفون هنا وهناك، وامتلأت الأرصفة بالجثث، والقلوب بالوجع، وأصبحت معظم البيوت كبقايا أطلال خربة، ينقصها جدار أو سقفٌ أو شهيدٌ، ولا أحد يعلم لماذا هذا القصف الذي جاء على غير موعد؟ ومن أين أتوا بكل هذه النيران التي جعلت غزة كقطعة من الجحيم؟

وتركت "جهاد" المعسكر، وخرجت هائمة على وجهها في الصحراء حيث المعركة الكبرى، تحاول أن تضمد جرحاً أو تجبر كسراً، أو تعطي جرعة ماء لشهيدٍ قبل أن يسبقها إليه ملك الموت.. ولأول مرة، ترى الحرب كما يجب أن تكون.

فريقان يتبادلان إطلاق النيران، والسماء لا تكاد تخلو من الطائرات والصواريخ والأرض لا تكاد ترى من الجرحى والموتى الذين يملؤنها.. وملأها إحساسٌ بالغضب، وكأن النيران التي تشتعل على هذه الأرض لا تشتعل إلا في صدرها.

أمسكت بسلاح أحد الموتى الذين سقطوا إلى جانب أقدامها، وتنهدت بخوف تملؤه العزيمة، وقررت أن تخوض المعركة بكل قوتها دون سابق تدريبٍ؛ لتنال إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.. وتمتمت وكأنها تحادث نفسها:

-هيا يا "جهاد"، أثبتي ولو لمرةٍ واحدة، أنكِ تستحقين أن تكوني من أبناء هذه الأرض.. هيا، وكوني اسماً على مسمى.. واندفعت بداخل صفوف المحاربين، بل وتقدمتهم، وأطلقت نيران سلاحها تجاه مدفع أول دبابةٍ تسد الطريق، وتحمي بقية صفوف العدو.

وفي سرعة البرق، وضعت يدها في جيبها بعد أن توقف مدفع الدبابة؛ لإصابة صاحبه، وأخرجت أحد القنابل اليدوية، وبسرعةٍ نزعت طابة الأمان، وألقت بها على ظهر الدبابة، وذُهل الجميع من الفريقين، مَن هذا الذي يتقدم بكل شجاعة وبسالة وكأنه ملكٌ من السماء هبط ليثبت الذين آمنوا ويلقي في قلوب الذين كفروا الرعب!

وازداد سيل الدبابات على الطريق، ووجهت المدافع نحوها، والتقطت جهاد نفساً عميقاً، وهي تبذل جهدها؛ للسيطرة على أعصابها، وفي لحظةٍ واحدةٍ ، راحت تستعيدُ كل ما تعلمته، وقرأته في الكتب الخاصة بفنون القتال، وانطلقت إليهم بأقصى سرعتها، وصاح أحد الجنود من الخلف:

-ماذا تفعل؟ إنك تتجه إليهم.

ورددت في أعماقها:

-هذا ما تعلمته، الهجوم خير وسيلةٍ للدفاع.. حينها، كانت تلوح أمامها صورة زهرة، وابتسامتها الباهتة، ودماء تسيل على وجهها.. وكتمت أنفاسها، وصوبت سلاحها بدقة إلى مدفع الدبابة المصوب إليها، وضغطت الزناد في نفس اللحظة، ودون فارق تقريباً ضغط سائق الدبابة نيران مدفعه، وأطلق القدر سؤاله المخيف

-مَن منهما أصاب هدفه أولاً؟

مَن؟

******

التفت الجميع إلى مصدر الصوت، فلم يكن المتحدث سوى " إيلان إيرائيل "، أزاح كرسيه إلى الخلف، ثم استقر جالساً، وابتسامة تلوح على شفتيه، وجهها ناحية ألبرت، ثم وجه نظرته إلى الرئيس قائلاً:

-وضعتم لي خطة لا تقل مدة تنفيذها عن ثلاثة أشهر، فما المشكلة إن قمتُ أنا بتنفيذها في أسبوع واحدٍ؟

رد الرئيس متهكماً:

-هذا إن كنت توصلت إلى أية نتائج؟

-وما المشكلة إن لم أصل إلى نتيجةٍ واحدةٍ حتى الآن؟

صاح "جان":

-هذا غير معقول.

طرق الرئيس على المنضدة، ثم قال بعصبيةٍ:

-"إيلان".. هات ما لديك بدون مقدمات.

-صحيحٌ أنني لم أحصل على معلومةٍ واحدةٍ حتى الآن، لكنني أتيتُ بملف المعلومات الكامل الذي يخص رئيس الجمهورية إلى قلب تل أبيب.

عقد "ألبرت" حاجبيه قائلاً:

-ماذا تعني، لقد شتت تفكيرنا؟

هبط الهدوء على الجميع، وكأن على رؤوسهم الطير، ينتظرون المفاجأة.. تنهد إيلان بثقة، وأسند ظهره إلى الخلف قائلاً:

-لقد أتيتُ بمستشارة رئيس الجمهورية إلى هنا وبدون حارس.. طلبتم مني لقاءها، والتعرفُ بها هناك فجررتها من عنقها إلى هنا، وبمحض إرادتها.. وما هي إلى دقائق حتى تكون بين قبضتنا وتحت أقدامنا، وحينها يمكننا أسرها، وتعذيبها بشتى أنواع التعذيب، والحصول على كل ما نريد منها.. ولكن هذه فكرة لا أحبذها الآن، وجودها في فلسطين سيمنحنا فرصة أعظم ليس للحصول على المعلومات المصرية فحسب، بل الفلسطينية أيضاً.. امنحوها الوقت الكافي حتى تتنقل بحريةٍ بين معسكرات الفدائيين حتى تعرف أماكنهم وأعدادهم، ونوع أسلحتهم المستخدمة.. وكما علمتمونا قديماً " الهدف المتحرك ثمنه أعظم من الهدف الثابت بكثير " وعلى كلٍ، في النهاية سنعرف منها كل ما نريد، سواء خاص بمصر أو بما نريد معرفته عن المقاومة الفلسطينية.

هز الرئيس رأسه في إعجاب، وأتبع إيلان قائلاً:

-ثم إنها جاءت إلى هنا برغبتها، ومنعت برغبتها أيضاً حضور طاقم حراستها الشخصي، وتلك ستكون الضربة القاضية للمخابرات المصرية، لأننا حينها سنخبرهم أنها خائنة، وقد جاءت إلى هنا بمحض إرادتها؛ لتدلي لنا بما لديها من معلومات.

وهز جان كتفيه، وقال في سخريةٍ:

-وماذا إن أرسلوا إلينا وفداً، واتهمونا باختطافها، واتهمونا أيضا بخرق المعاهدات الدولية وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها بماذا ستنفعنا خطتك المتهورة حينها؟

قال "ألبرت":

-نحن لم نختطفها، هي مَن جاءت إلينا بإرادتها، وهي نفسها التي طلبت منهم ألا يحضروا الحراس معها.. إيلان كلامه صحيح، وخطته محكمة، وأداؤه يتستحق الإعجاب.

تنهد "جان "في تذمر، فوكزه ألبرت، ثم همس مازحاً:

-أمَا زلت تغار من تفوقه عليك؟

نظر جان إليه شذراً، ولم ينطق.

أغلق الرئيس الملف الذي أمامه، وقال مبتسماً لم نخطئ يا إيلان عندما أطلقنا عليك " صقر الموساد "

ثم مد يده مصافحاً إياه، وترجل واقفاً.. أدوا التحية العسكرية، وانصرف الجميع

******

استلقى "خالد" على فراشه، بعد أن آوى كل من أبيه وأمه إلى مضاجعهم داعين الله أن يعود طارق سالماً، لقد ترك البيت في ساعةٍ متأخرةٍ، بعدما وصلته أنباءٌ سيئةٌ من أحد زملائه في المقاومة مخبراً إياه أن رجالهم في الموساد أبلغوهم أن إسرائيل ستنشن الغارات من الغد، ولن يسلم من قصفها أحد، حتى المدنيين العزل لهم في غاراتها أوفر الحظ والنصيب.

انصرف طارق متعجلاً لعله يستطيع أن يفعل شيئاً، وها هو قد ذهب، وياليته ما فعل، كيف سيعود في هذا الجو الملبد بالقتال؟!

وأخيراً، حاول خالد أن يغمض عينيه جاهداً لكن نيران القصف التي لم تشتعل حتى الآن، كانت تضيء بين جفنيه، والدوي الذي لم يبدأ بعد كان يملأ مسامعه.. اضطرب قلبه سريعاً، وكأنه يخبط في حائط صدره خشية أن يصيب طارق ما أصاب زهرة.. ترى هل من الممكن أن يحدث ذلك؟.. ترى هل من الممكن أن يفارقهم طارق أيضاً؟، وأن يصبح والده أباً لشهيدين؟

وعندما أثقل النعاس جفنيه، جره إلى أحلامٍ مليئةٍ بالصراخ والنيران وعربات الإسرائيليين تثير الدمار حولها، تقتل الآباء، وتيتم الأبناء، وترمل النساء، ويا لعجائب القدر نهرب بالنوم من واقع مليئ بالأوجاع إلى أحلامٍ مليئةٍ بالأفزاع!

وما لبث أن استيقظ على صوتِ بوق سيارةٍ، توقفت أمام الحديقة الخارجية، وصوت أقدامٍ تصعد الدرج، ثم طرقات خفيفة على الباب، ولم يعد يفرق، هل هذه الطرقات حقيقة أم مجرد أضغاث أحلامٍ ؟ ولم تمضِ بضع ثوان، حتى ارتفع صوت آذان الفجر، فتملكه إحساس بالسكينة؛ لإن الليل قد ولّى، وبالتأكيد سيعود طارق بعد دقائق.. وعادت الطرقات الخفيفة من جديد، ونفض بقايا النوم من جفنه لعل هذا الآتي هو طارق، ونهض من فراشه متجهاً إلى الباب؛ ليفتحه.

وعلا صوت والده من خلفه:

-لا تفتح.. سأفتح أنا.

لكن "خالد" كان قد وصل إلى الباب، وفتح ووجد رجلين غريبين، لم يرهما من قبل يقفان بالباب.. تنحنح أحدهما قائلاً:

-هل السيد "طارق دراز" يقطن هنا؟

وكان الأب قد وصل إلى الباب هاتفاً:

-نعم.. هل حدث شيءٌ ما؟

-لا.. نعتذر عن زيارتنا في هذه الساعة، لكننا نريده في أمر عاجل هل نستطيع رؤيته؟

-للأسف، هو غير موجود الآن، لقد غادر قبل ساعاتٍ قليلة.

-أين يمكن أن نجده؟

قال الوالد بشكٍ:

-مَن أنتما؟

التفت أحدهما إلى الخلف قائلاً:

-نحن زملاءه في المقاومة الشعبية، ونحتاج مساعدته في أمر مهمٍ ثم أشارا إلى السيارة الواقفة بباب الحديقة

قائلاً:

-وهذه السيارة تقل أحد الشخصيات المهمة جداً، والتي أكدت أنه لن يستطيع مساعدتها أحد سوى السيد طارق.

-ألا يمكنني تقديم أية مساعدة بدلاً منه؟

-للأسف لا.. لكن إن عاد فأخبره أن الضابط " ياسر الصاوي " قد كلفه بإحدى المهمات والتي يتوجب عليه إنجازها سريعاً عن طريق الذهاب إلى فندق الزيتونة، واللقاء بالسيدة " حياة حمدي" بسرعةٍ عاجلةٍ، وتحت أي ضغطٍ، ورغم كل ظرفٍ.. وعلى كلٍ، هي تركت اسمه في الاستقبال، حتى يتمكن من لقائها عاجلاً.

أنهى الرجلان حديثهما ثم انصرفا.

-باءت زيارتنا بالفشل يا سيدتي، لم نستطع أن نلتقيه.

وعادت " حياة " إلى الفندق ثانيةـ ولزمت غرفتهاـ فقد منعها القصف الذي اشتعل فجأة، ودون تحذير سابق بالشارع الفلسطيني من الخروج، ونظرت عبر الشرفة إلى الشارع فإذا بالحي قد تحول إلى خراب، شهيد هنا وجريح هناك.

ورغم رغبتها الجامحة للنزول إلى الشارع الفلسطيني؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ أيقنت أن منصبها ومهمتها الحيوية يجبرانها على الشعور بأن لحياتها قيمة، ومن الصعب أن تنتهي الآن، وعلى أيدي هؤلاء الكلاب.. ظلت تغدو وتروح بغرفتها، والغضب يمزق كل ذرة في جسدها.

رنّ هاتف الغرفة، ولم يكن المتصل سوى مستشارها الشخصي، والذي رفضت حضوره أيضاً، رغم عدم شرعية ذلك، ورغم خطورته، وبمجرد أن رفعت السماعة، قال في كلماتٍ مقتضبةٍ:

-لا تغادري غرفتكِ.. سنرسل أحد رجالنا الذين يعملون في السفارة المصرية إليكِ حالاً حتى يقوموا بترحيلكِ على الفور.

قالت مقاطعة:

-وماذا عن " حازم عبدالسلام "، هل توصلت إلى شيءٍ بشأنه؟

قال حانقاً:

-حازم عبدالسلام هذا لم يكن سوى...........!

وازداد القصف، وارتفع الدوي وانقطع الاتصال..لقد قام أحدهم بتمزيق أسلاك الهاتف، قلّبت شفتيها في امتعاض، ووضعت سماعة الهاتف، وتملكها إحساسٌ بأن هناك مصيبة آتية.. ولامت نفسها فهي التي وضعت نفسها في هذه المصيبة التي لم تعلم ما هي حتى الآن.. وصعد ذلك الشخص إلى غرفتها قائلاً:

-لابد أن تتركي الفندق حالاً يا سيدتي.

فهتفت:

-"عبدالرحمن" ماذا تفعل هنا؟

-لقد أرسلوني لإنقاذكِ.. سأنتظرك بالطابق الأرضي هبط درجات السلم.. ثم اختفى.

وفجأة، دوى انفجارٌ في الجو، واشتعل اللهب، واهتز الفندق، وكأن زلزالاً ألمّ به.. الاهتزاز العنيف قذف بها إلى آخر الغرفة، وخرت فاقدة للوعي، ولم تستفق إلا على صوتِ قصفٍ آخر، وفي عجالةٍ لملمت بعض أوراقها، واندفعت خارجة من الفندق الذي تركه الجميع فراراً، بأرواحهم أثناء فقدها للوعي.

وقفت أمامه حائرة لا تدري ماذا تفعل؟ نظرت حولها في ذهول، المكان كله خرب، وكأن حرباً قد قامت هنا.. أبنية مهدمة، ونيران مشتعلة، ودباباتٌ متوقفة على بعد أمتار منها، والطرق تعج بالقتلى، والأرض تحت قدميها ساخنة لزجة متشبعة بالدماء، والدوي يكاد يصم الآذان، لكن هناك صوتٌ آخر غير الدوي.. هناك صوتُ جريح يأنّ، أرهفت السمع لدقائق، وساقتها قدماها إلى أحد الأبنية المهدمة، وأرهفت السمع لمرةٍ أخرى، فإذا بأناس يأنون تحت الأنقاض، وإذا بسور مهدم قد سقط على

جسد أحدهم، فلم ينجو منه سوى رأسه.. حاولت إنقاذه، وإزالة بقايا السور المهدم من على جسده، كانت حالته خطرة للغاية، ولم يكن يردد سوى جملةٍ واحدة:

جهاد بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب، سامحيني ياجهاد.. اطلبوا منها أن تسامحني قبل أن أموت!

حاولت تهدئته، لكنه هتف مرة أخرى بصوتٍ متقطع:

-" هي بريئة، وأنا السبب "، أرجوكِ توصلي لأهلي وأخبريهم ذلك.. اسمي "طارق"................ .

ولم يكد يُتمّ كلامه، حتى هتف بها صوتٌ مألوفٌ قائلاً بغلظة:

-ماذا تفعلين هنا؟.. توقفي عندكِ أيتها الخائنة.

التفتت؛ لترى مَن المتحدث فلم تكد ترى ملامحه حتى فغرت فاها في صدمةٍ وقد كان المتحدث آخر شخص يمكن أن تتوقعه؟

****

أطلقت "جهاد" رصاصتها، وأغمضت عينيها.. حاولت أن تنطق الشهادة، لكنها لم تتذكر منها حرفاً واحداً، وفي جزءٍ من الثانية، انفجرت الدبابة بسائقها، وقذف بها لهب الانفجا ر بعيداً عن مكان المعركة فخرت مغشياً عليها.

بعد ساعتين بأحد غرف مراكز التدريب، فتحت عينيها ببطءٍ، وهتفت بصوتٍ واهنٍ :

-أين أنا؟

-أنت هنا بأمانٍ في المعسكر، لكن مَن أنت؟ وأين تلقيتِ كل هذه التدريبات؟

تنهدت بعمق، وأردفت بصوت رجالي بعض الشيء:

-لا أدري، لا علاقة لي بالقتال ولا بتدريباته، بل إنني لم أحمل مسدساً في يدي من قبل.

رفع الضابط أحد حاجبيه متعجباً، ثم قال في هدوءٍ:

-يبدو أنك تحمل في داخلك بعض القدرات الخاصة التي لم تنتبه لها يوماً.. وسنحاول نحن البحث عنها وتنميتها.

ثم أردفت بصوتٍ يحمل في طياته أزيز الألم:

-هل انتهت المعركة؟

-نعم.. خسائرنا في المعسكر بسيطة، لكن الخسارة كل الخسارة هناك في المدن والقرى.

****

مرحباً بكِ، أنرتِ معسكر أسرى الموساد الخاصيين.. الخاصيين جداً.

بصقت " حياة " في وجهه ولم تجب، مسح بصقتها بإحدى يديه وسط ضحكاتٍ ساخرة وأردف:

-أعلم أن غضب العالم أجمع يغلي في عروقكِ الآن، كيف بحياة حمدي مستشار رئيس الجمهورية أن يغرر بها أحدهم، ويأتي بها إلى هنا على أعقاب وجهها بحيلةٍ بسيطةٍ جداً تراود عقل أي طفل صغير؟!

قال " إيلان " وعلى شفتيه تلوح ابتسامة ظفر:

-تنكرتُ في هيئة حبيبكِ السابق، عندما كنتِ طفلة – ووضع يديه على الجرح الذي اختفى من مقدمة رأسه – ثم أردف قائلاً:

-حاولتُ أن أذكركِ بماضيكِ وبحياتكِ في الإسكندرية، وعزفتُ على مشاعركِ الحساسة. وبدأتُ أتحدث عن نكباتِ الطفل العربي وخاصة الفلسطيني.. وما هي إلا أيام قليلة حتى جئتِ ورائي تلهثين تدفعكِ الأماني؛ لاسترجاع ماضيكِ بعد أن رفضتِ حضور المختصين معكِ؟ ثم بعد مدةٍ ستعلن الحكومة الفلسطينية اختفاءكِ، وبعد أيامٍ قليلةٍ، اعترفتِ بكل ما تعرفين عن المخابرات المصرية والفلسطينية أيضاً، ثم قهقه عالياً.. تحرك إيلان تاركاً الغرفة، وعلى بابها التفت إليها قائلاً بلهجةٍ تحمل مزيجاً من التهكم والسخرية:

-لم يبدأ لقاؤنا بعد.. صفق الباب خلفه في عنفٍ.

******

الفصل الثامن

انتحار...!

عشرة أيامٍ من بدء الغارة التي لم تنتهِ بعد.. عشرة أيامٍ في قتال مستمر، ومعارك دائرة هنا وهناك.. عشرة أيامٍ، فيها الأرواح تتساقط، والدماء تسيل، والحياة تتحول من سيىءٍ إلى أسوأ.

وقف العم "محمود" بباب داره، يتأمل ما حوله.. لقد تحول كل شيءٍ إلى خرائب وأطلال حتى حديقة بيته انقلبت أشجارها رأساً على عقب، وتهدمت أجزاء كثيرة منها، وهذا البيت الذي كان يخص جهاد أصبح أثراً بعد عين.. حمداً لله أنها رحلت، ولم تكن بداخله.. كل هذا لا يهم، لقد اعتاد على رؤية هذا المنظر منذ أن أصبح يقف بباب داره أكثر من مرة في الساعة الواحدة ممنياً نفسه بعودة طارق الذي لم يعد منذ أن غادر المنزل قبل عشرة أيامٍ، ولسان حاله يقول: ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأسوا من روح الله إلا القوم الكافرون.

ترى هل أصابه شيءٌ هو الآخر، أم أنه ما زال على قيد الحياة يحارب هنا ويدافع هناك؟.. ترى هل ما زال هنا يضمد جريحاً، أو يدفن شهيداً، أم أنه قد حان موعده؟.. ترى هل قضى نحبه، أم ما زال حيا يُرزق؟.. ترى هل هو حي يتنفس الآن، أم أن جثته إحدى الجثث الملقاة على الطرقات؟.. وأحس الرجل بسكين يغرس في قلبه.

تنبه على صوت جنازير الدبابات، وهي تقطع الطرقات مكتسحة كل شيءٍ أمامها من مبانٍ، أو أشجارٍ، أو حتى جثث.. وصيحات الجنود الإسرائيليين تتعالى هنا

وهناك.. من الواضح أنهم كسبوا المعركة، وبات كل شيءٍ تحت قبضتهم الآن.. من الواضح أن طارق ورفاقه هم الفئة الخاسرة.. كان يشعر أن المعركة غير متكافئة منذ البداية.. عدم كفاية الأسلحة، وعدم كفاية حامليها، والدعم قد انقطع من كافة البلدان العربية.

مصر مشغولة بالحفاظ على سيناء، وسوريا تحارب من أجل الجولان، وحروب أهلية هنا وهناك، وكل بلدٍ مشغولٌ بما فيه.. والقدس قدِمت لإسرائيل على طبق من ذهب.. لقد دفعت فلسطين وحدها الثمن.. ثمنٌ غالٍ جداً من الدماء الفلسطينية الزكية، والأرواح البريئة الطاهرة.

وارتفع صوتُ الأم يصيح به من الداخل:

-ماذا تفعل عندك؟

كاد أن يقول لها، إنه يرقب طارق لعله آتٍ لكنه صمت.

ثم ارتفع صوتها مجدداً:

-ادخل، حتى لا تُصاب بنزلة برد.. وأتبعت بصوتٍ مرتجف النبرات:

-أو حتى لا تصيبك إحدى رصاصاتهم الغادرة.

تمتم قائلاً في نفسه:

-يا ليت.. ليت أحد رصاصتهم تستقر في قلبي مقابل أن يعود طارق سالماً.. الوطن والعائلة يحتاجان لمن هم مثل طارق.. أما أنا فقد ولّى زماني وانقضى.. عجوز هرم فقد ابنته ووالديه في قصفٍ مثل هذا، ولم يبق منه سوى مجموعة من حطام المشاعر والذكريات والجسد أيضاً.. ماذا سيفقد الوطن إن فقد مَن هم مثله؟!

وعاد إلى غرفته، فوجد زوجته جالسة مصفرة الوجه، تعصب رأسها بمنديلٍ، بدت من خلاله بعض شعراتها البيضاء، ولم يشك أن هذا الشيب الذي زار رأسها فجأة، إنما هو من قلقها على وليدها الذي رحل على غير موعدٍ.. ولمعت في ذهنه صورة جهاد، فأغمض عينيه، وكأنه يحاول أن يتجنب منظراً كريهاً شنيعاً، وتمتم قائلاً:

-كانت واحدة من أولئك الذين منحناهم كل قوتنا، فتخلوا عنا وقت ضعفنا.. كنا لهم وطناً، فلم نجد فيهم إلا غربة.. منحناهم الأمان، فلم يتركوا في صدورنا إلا الخراب، وبقايا أطلال من الذكريات.. أسبغنا عليهم الأنس، فتركونا وقت الوحشة.. صببنا عليهم الحب صباً، فما زادهم ذلك عنا إلا بُعداً!

وجاء "خالد"، وتساءل في صوتٍ حزين:

-ألن نبحث عن "طارق"؟.. هل سنظل جالسين هكذا؟

فتنهد الأب وقال في أسى:

-لعله يعود الآن، مَن يدري؟

ونظرت الأم إلى السماء، وكأنها تستهلمها الإجابة.. وسُمع صوت خطوات تقترب، ثم صوت طرقات على الباب، ونهض الجميع من أماكنهم، وفتح الباب ولم يكن الطارق سوى " أيمن " صديق طارق، ورفيقه في فرق المقاومة، قد وقف أمام الباب، أشعث الشعر، معفر الوجه، ومغبر وممزق الثياب.. وقف صامتاً، والحيرة تلوح على ملامحه لا يدري ماذا يقول، ولم يجسر أحد أن يوجه له سؤالاً واحداً.

******

منذ بدء الغارة، لم تسأم المحطات الفلسطينية من البث المشترك؛ للتنديد بما تفعله إسرائيل من عدوان على أهل غزة، وبدأت " سلمى الحسيني " " وحسام الصاوي " بتقديم المقالات تليها المقالات الأخرى عن الذي حدث في الأيام الأخيرة، وأخيراً أذيع التقرير الرسمي الذي يعرض على كافة القنوات، والمحطات الفلسطينية بالاشتراك مع المذياع أيضاً.

" ألم نسأم الحروب والحديث عنها.. نعلم شرها وأذاها، ولا نعرف كيف نتجاوزها.. تدمرنا.. تطحننا.. فلقد أودت الحرب الأخيرة بحياة ما يقارب من أربعة آلاف شهيد، وتعرض آلاف آخرون لإصاباتٍ، وإعاقاتٍ مدى الحياة، وأصبح آلاف الأطفال في عداد اليتامى.

ولنا أن نتصور عدد الإصاباتِ والإعاقاتِ في صفوف المدنيين العزل الذين تركوا المدينة، وفروا بأرواحهم إلى الصحراء حيث المخيمات لعلهم ينجون بمن تبقى من ذويهم وأبنائهم.. لفظتهم بيوتهم، وانهدمت عليهم جدرانهم، واحترقت فروشهم، وخانهم كل شيءٍ، ولم يجدوا ملجأ سوى في المخيمات حيث لا ماء ولا دواء ولا مساكن آدمية.

كل المخيمات في العالم تشير إلى تشردٍ وحرمان، وانتظار للمجهول.. وأمل لا ينقطع.. هناك تختلط الخيبات بالأمنيات، ويتدثر اليأس بالأمل، ويمتزج النجاح بالفشل، وترتجف القلوب قبل الأجساد.. ترى هل سيتوقف القصف، ونعود إلى وطننا، ونغادر المخيمات؛ لنبدأ حياة طبيعية؟.. ولنبني بيوتنا، ونعود إلى مدارسنا، ونتخلص من جحيم، وعذاب المخيمات.. ألا يكفي؟!

وأرفق التقرير بصور سفك دماء الفلسطينيين التي أذاعتها محطات الأخبار، فانتشرت كانتشار النار في الهشيم مما أثار غضب العالم كله، فتظاهر الآلاف في أوطانهم ضد استخدام الاحتلال الإسرائيلي الرصاص الحي تجاه الفلسطينيين السلميين الموجودين داخل المدينة، وضد الفدائيين بالمعسكرات الذين لم يبدأوا بإطلاق النار، وإنما جروا من أعناقهم؛ لخوض معركةٍ، لم يستعدوا لها.

وأعلنت منظمات حقوق الإنسان أن مقتل آلالاف الأشخاص، وإصابة الآلاف الآخرين بالرصاص الحي في غزةٍ يجب أن يتوقف فوراً، وعلى المسؤولين عن هذه الانتهاكات الفاضحة لحقوق الإنسان أن يحاسبوا عن جرائم الحرب هذه.

بدورها أكدت الدول العربية دعمها الكامل للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، كما هددت معظمها بقتل العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا وإسرائيل، ووقف جميع الإتفاقيات، وخاصة اتفاقيات تصدير الغاز والبترول وغيرها حتى ترتدع إسرائيل عن بطشها، وتتوقف عن غيها.

كما أكد المجلس العربي أن إشعال النيران بداخل المسجد الأقصى هو استفزاز واضحٌ وصريحٌ لمشاعر أكثر من مليار مسلم في شتى بقاع الأرض.. وأن الأمر لو استمر بهذه الطريقة، ولم تكف إسرائيل عن إطلاق النيران، وتقديم اعتذار واضح وصريح، فسوف يزداد الوضع صعوبة، وستدخل المنطقة في المزيد من الحروب والصراعات التي لا قِبَل لإسرائيل بمواجهتها.

وفي السياق ذاته، أعلنت الحكومة البريطانية قلقها إزاء العنف والقتل وخسارة الأرواح التي تحدث في غزة.. كما أن الحكومة الفرنسية أيضاً، أرسلت من جانبها أكثر

من سبعة مفوضين لحقوق الإنسان إلى قلب غزة رغبة في وقف تبادل إطلاق النيران، والسيطرة على التوتر الذي تصاعد كتلة واحدة على وجه الأرض".

ولم تجد إسرائيل بُداً من اللعب على أوتار مشاعر الجميع؛ لاستمالتهم إلى صفوفها مجدداً، وإكمال هذه اللعبة القذرة التي تجعل من القاتل مقتولاً، ومن الظالم مظلوماً، ومن الجاني مجنى عليه.

وأعلنت القناة الأولى للتلفزيون الإسرائيلي أن المناوشات التي تقوم بها فرق الفدائيين، هي من جرت إسرائيل إلى إطلاق النيران حفاظاً على أرواحهم، ورداً على استفزاز الفلسطينين لهم.

كما أنها أعلنت أيضاً أن الخسائر لم تكن في الفريق الفلسطيني وحده، بل هناك خسائر مماثلة تماماً في الجانب الإسرائيلي أيضاً!

وحتى تثبت إسرائيل حُسن نيتها، فقد أكدت أنها قررت الإفراج عن عشرة آلاف معتقل تم القبض عليهم منذ حوالي عشرين عاماً، وسوف يتم الإفراج عنهم تزامناً مع ليلة عيد الفصح الذي سيقام الاحتفال به بعد أيام.

وهدأت الثورات العارمة، والمظاهرات الغاضبة لقاء هذا الرد الأحمق، ونسي العالم الدمار الشامل الذي خلفه القصف المتواصل لأكثر من أسبوع دون رفق أو هوادةٍ.. وجاءت الليلة المنتظرة، وبالفعل تم الإفراج عن الآلاف من الرجال والنساء الذين اعتقلوا منذ سنواتٍ بعيدة.. غيّرت السنون ملامحهم، وبدل الأسر أحلامهم وطموحاتهم، خرجوا بأرواحٍ ليست كأرواحهم التي أسروا بها.. لا يعلموا فيما دخلوا ولا لمَ خرجوا؟

ودقت الطبول، وعلت الزغاريد ورأى الجميع أن في الإفراج عن ذويهم عوضاً عن الدمار الذي حدث منذ أيامٍ قليلة، وارتمى كل معتقل في أحضان ذويه، ورُد كل غائبٍ إلى أهله، وعاد كل واحدٍ منهم إلى بيته إلا واحدة، لا بيت لها، ولا مأوى ولا قريب أو حبيب.. غريبة وليست من أهل البلد، جاءت إلى هنا بطفليها منذ تسعة عشر عاماً، فغرق الولد، وتمّ اعتقالها قبل أن تعلم في أي بيتٍ، وضعت فتاتها الوحيدة قبل أن يفرقهما القدر فراقاً لا لقاء بعده!

******

أضيئ الممر الخارجي، وسُمع صوتُ أقدامٍ، تسرع الخطى، وتقترب من زنزانتها.. وفتح باب الزنزانة بشيءٍ من العنف، وأصابها إحساس بالجزع، ودخل " إيلان " بملامحه الجامدة التي تثير الرعب.. أحضر له أحد مساعديه مقعداً، ثم جلس قبالتها قائلاً في هدوءٍ:

-هذه الزيارة ليست كسابقتها كما أخبرتكِ، أنتِ هنا في أحد غرف التعذيب الخاصة بجهاز الموساد، تحديداً تقبعين في قبو الأسرى الخاصين.. الخاصين جداً، فاستمعي إليّ جيداً، وأجيبي على أسئلتي بكل صدق حتى لا نفعل بكِ مالا يُحمد عقباه، وحتى لا نستخدم معكِ أشد وسائل التعذيب.

وهل هناك وسيلة تعذيبٍ أكثر من النظر إلى وجهك البغيض هذا؟

قهقه " إيلان " ساخراً ثم قال:

-وصفٌ عجيبٌ، دائماً ينعتونني بالوسيم.. بعيداً عن الانفعالات، دعينا نتحدث كأصدقاء.

-لكننا لسنا أصدقاء.. أنت اختطفتني.

-أنتِ مَن جئتِ ورائي إلى هنا.. ثم قال ساخراً:

-أنا لم أضربكِ على يديكِ حتى تأتين على وجهكِ إلى هنا.

-ماذا تريد؟

-في غرفة الأسرى بأكبر جهاز مخابرات في العالم.. بظنكِ ماذا نريد؟

-كن واضحاً.

-نريد أن نعرف كل ما تعرفين عن فلسطين أولاً.

-ما المسئول عنها بأعلم من السائل.. أنا لستُ جاسوسة مثلك.

-لكنني متأكدٌ أنكِ تعلمين عنهم الكثير.. دعيني أعرفه أنا أيضاً.

-ولماذا تريد أن تعرفه؟

-لأنها أرضنا.. أرضنا التي وعدنا بها الله.

-تقصد التي وعدكم بها " بلفور " اللعين.

-على كلٍ نحن لم نرد أن نشردهم.. نحن طلبنا العيش معهم في أمان وسلامٍ لكنهم أبوا فاستحقوا ما يحدث لهم.

-أمانٌ وسلامٌ.. بدليل ما تفعلونه في سيناء والجولان، ومعظم البلدان العربية.. أنتم تريدون السيطرة على العرب، ولا أدري لمَ العرب بالذات؟.. أسمى أمانيكم أن يجمعكم وطنٌ واحد من النيل إلى الفرات.. ولكن هيهات.. بهذا وعدنا الله الحق وليس بلفور اللعين ذا.

-أكرر مرة أخرى هذه أرضنا.

-أرضكم.. تشردون أهلها، وتهدمون ديارها، وتيتمون أبناءها، وتقتلعون مزارعها، وتدمرون اقتصادها.. وتقولون أرضكم!!

-نحن أيضاً شردنا، وهدمت بيوتنا، وأحرقنا في الأفران كما أرغفة الخبز.. وإذا كنا نحن سقناكم إلى معسكرات اللاجئين، فهم ساقونا إلى معسكرات التعذيب؛ لنموت حرقاً، وأبادوا معظمنا، ولم يتركوا منا إلا القليل.

-وكانت هذه جريمتهم الوحيدة، ليتهم أبادوكم جميعاً.. هم آذوكم فانتقمتم منا نحن.. نحن الذين لم نسئ لكم في شيءٍ.. أليس عجيبا، ألا ينتقم المظلوم من الظالم بل ينتقم من شعبٍ آخر؟.. أليس عجيبا أن يغفر المقتول للقاتل؛ ليقيم القصاص في وطنٍ آخر؟.. لماذا نحنُ من دون كل هذه البلدان؟!.. لماذا فلسطين تحديداً؟!.. العالم مليئٌ بالدول التي يمكن أن تقيموا عليها وطناً.. أليست أمريكا أمكم الحنون؟ لماذا لم تمنحكم هي الوطن إذن؟

-تريدين الجدال، ولا وقت لدي، ونهض " إيلان " وكست وجه علامات التجهم قائلاً:

-غبية.. لا فائدة منكِ.

-لا فائدة مني حتى أموت.

لقد تحدثتُ معكِ مرتين بهدوءٍ، وفي الثالثة سأضطر لاستخدام وسيلة من نوع خاص لعلها تجدي معكِ نفعاً.

ثم همّ مغادراً، ولكنه قبل أن يخرج، التفت إليها مرة أخرى قائلاً:

-بالمناسبة أعددتُ لكِ مفاجأة.. مفاجأة سارة جداً.. تجهزي لها.

****

ومرت الأيام، وجهاد تثبت جدارتها في كل شيءٍ حاولوا تلقينها إياه، لم تتعد مدة تلقينها أياما فحسب، برغم أن مدربيها تلقنوا هذه التدريبات في عدة أعوام، والتفت الأنظار حولها، وزادت أهميتها، وباتت ركنا حصينا من أركان المعسكر، وساءها التفاف الأنظار حولها لو دقق أحدهم في النظر إليها؛ لعلم أنها فتاة، وليست رجلاً كما تدعي.. وزادت حيرتها إذا كانت مجرد امرأة، فمن أين أتتها كل هذه القدرات الخاصة؟.. قدرتها على القتال، وقدرتها على التنكر، وقدرتها على تنظيم الصفوف، وتوزيع المحاربين.. وشعرت جهاد أن في داخلها أشياء أخرى تستطيع أن تخدم بها هذا الوطن البائس.

وبعد بضعة أيامٍ، وذات صباح أمضت جهاد بضع ساعاتٍ، وهي تتنقل بين المواقع الخاصة بالمعسكر.. كل شيءٍ هادئ، الأمور تسير على ما يرام حتى تلك اللحظة التي سمعت فيها صوت بكاءٍ مكتومٍ آتٍ من إحدى الغرف الجانبية، والتي توقفت أمامها، وطرقت بابها؛ لتستطلع الأمر، ولكن صوت البكاء انقطع، ولم يأتها الأمر بالدخول، وظنّت أنها واهمة، فأكملت سيرها، وتقدمت بضع خطواتٍ أخرى، ولم تكد تبتعد حتى سمعت صوت ارتطام شيءٍ صلب بالأرض، فعادت مسرعة إلى الغرفة نفسها التي وقفت ببابها مسبقاً، وطرقت بابها بشيءٍ من العنف، وأحست في الأمر خطباً ما، وحاولت أن تستنجد بطاقم التمريض فوحدهم الموجودون بالقرب الآن.

وأتى اثنان منهم، وقاما بكسر باب الغرفة، ولكم كانت دهشتهم، حينما وجدوا " عبدالرحمن " معلقاً بحبل في سقف الغرفة، بعد أن سقط المقعد الذي كان يقف عليه، وصرخت " جهاد " صرخة كادت أن تكشف أمرها فغطت عينيها، وابتعدت مسرعة.

قاموا بإنزال جسد " عبدالرحمن " الذي لم يفارق الحياة بعد.. قاموا بإجراء بعض الإسعافات الأولية، والتي كانت عظيمة الجدوى والفائدة، ولحسن الحظ مرور جهاد في هذه الساعة كان له أكبر الأثر في إنقاذه.

وتناقل الجنود الخبر وسط ذهول واندهاش الجميع، فهذه أول حالة انتحار تحدث في أحد معسكرات الفدائيين، وساءت حالة الجنود، وأصبحت روحهم المعنوية في الحضيض، ولم يجرؤ أحد على سؤاله لمَ فعل هذا؟ وهو الذي يتقد شباباً، ويشتعل حماساً وحيوية، ولديه قدرة خارقة على أن يسخر من عظائم الأمور، وأن يحول الجو الكئيب الملبد بالخطر والخوف إلى جو مملوء بالحماسة والأناشيد الوطنية الثائرة، بالإضافة إلى روحه المرحة ونكاته المضحكة.. أيمكن أن يفقد همته العالية وحماسته المفرطة بسهولة هكذا؟!.. وما الذي دفعه إلى أن يفعل هذا؟!

واحتجز " عبدالرحمن " في حجرة الكشف الطبي بمفرده، ومنعت عنه الزيارة حتى يتم استجوابه وعلاجه إن احتاج الأمر إلى علاج.

وكُلفت "جهاد" بالحديث معه بعد أن فشل الجميع في التوصل إلى شيءٍ، ومحاولة التوصل إلى المشكلة التي دفعت به إلى ذلك حتى يتم حلها، ومساعدته في التخلص منها وحتى لا تسري عدواه بين الجنود كالطاعون.

وحاولت "جهاد" قدر استطاعتها الحديث معه، لكنه في كل مرة كان يأبى الكلام وبشكل عدواني، وتفاقم الأمر، وطلب " عبدالرحمن " مغادرة المعسكر، والسماح له بانتهاءِ خدمته، وساءت حالته أكثر وأضرب عن الطعام، وأصبحت

حكايته حديث الجنود في كل وقتٍ.. وأشفقت جهاد على حالته، وقررت الوقوف بجانبه كي يتجاوز محنته.

وفي الغد التالي عبرت " جهاد " باب غرفته، وكست ملامحها بابتسامةٍ هادئةٍ حتى تطمئن نفسه، وجلس أمامها " عبدالرحمن " وقد بدا عليه القلق والإرهاق ثم بدأت قائلة:

-ماذا بك؟.. صدقني أريد مساعدتك.

ورد " عبدالرحمن " في عصبيةٍ وعنفٍ:

-لا شيءَ.. أنا بخير.. فقط اتركوني وشأني.

-لا يصح أن نتركك في هذه الحالة، كيف تريد منا أن نتشبث بك في أوقات نشاطك وحماستك وصحتك وبريقك ،وأن نتركك وشأنك في وقت محنتك وضعفك ووهنك وخفوتك!.. أنت واحدٌ منا والوقوف بجانبك واجبنا حتى تتخطى أزمتك بسلام.. اهدأ واحكِ لي عن كل ما بك.

-لن أحكي.. وإن حكيتُ فلن تفهم.

-سأحاول أن أفهم.

ورد " عبدالرحمن " في حزمٍ قاطع:

-قلتُ لك لن تفهم.. وأرجوك اذهب ودعني.

-لا تغضب هكذا.. أنا أريد أن أساعدك.

فقال " عبدالرحمن " بحنق وإصرار:

-لايمكنك.

-لماذا؟

-لأنني لم أساعد نفسي، فكيف سيفعل الغرباء؟!

-ظننتُ أننا أصبحنا أصدقاء منذ أن كنتُ أطلب منك أن تغني لنا أناشيدك كل ليلةٍ.. وكنتَ تخبرني أنك لا تستطيع أن ترفض طلباً للفارس الجديد كما كنت تلقبني دائماً.

وساد الصمت برهة.. وعادت جهاد تقول:

-أقسمُ لك أنني ما جئتُ إلا كصديق أو أخٍ، ورغبتي هذه بعيدة كل البعد عن العمل المكلف أنا به من القائد، ولتتأكد من حسن نيتي سأرفع تقريراً كاملاً له بعدم رغبتك في الحديث معي أيضاً، وسأرفق التقرير بطلب فصلك من الخدمة.. ثم إن شئت بعدها أن تحدثني كأخ فافعل، وإن شئت أن تحتفظ بأسرارك لنفسك فلك ذلك.

زفر "عبدالرحمن" في نفاذ صبرٍ، وقال في حسمٍ:

-لستُ أخاً لأحدٍ.

فقالت جهاد في نبرةٍ حانيةٍ:

-كما تريد.. وهمت مغادرة.

لكنه نطق بلهجةٍ منكسرة:

-سامحني.

ورفعت جهاد حاجبها في دهشةٍ، وتساءلت في هدوءٍ:

-أسامحك على ماذا؟!

-على كل شيءٍ.. واطلب من الجميع أن يسامحوني.. فلقد خيبتُ آمالهم.

وساد الصمت برهة.. وقالت جهاد في رفقٍ وثقةٍ:

-اهدأ يا " عبدالرحمن "، وثق أنك من أفضل محاربينا هنا.. وإن شئت أن تحدثني فتكلم، وإن لم تشأ سأتركك؛ لتستريح، وسأقدم الطلب الذي حدثتك عنه.

وأطلق " عبدالرحمن " زفرة طويلة، أخرج معها بعض ما أنقض ظهره، وأثقل كاهله، واسترخى في مقعده، وقال وقد شرُد ذهنه وشخُص بصره، ويكأنه يحدث نفسه:

-أنا خائن.

-لا تقل هذا.. أنت من أكفأ الجنود هنا.

-أنت لا تعلم شيئاً.. أنا في الحقيقة خائنٌ.

-بل أنت مناضلٌ وشجاعٌ.

-هذا ما أوهمتكم إياه.

تنهد " عبدالرحمن " وبدأ يروي التفاصيل التي جعلت منه خائناً.........

******

" اسمي عبدالرحمن.. شابٌ فقيرٌ.. ولدتُ بأحد أحياء عكا منذ ستةٍ وعشرين عاماً.. توأمٌ لأختي الوحيدة.. كنا نحيا في رغدٍ من العيش.. يفيض خيرنا على جيراننا، والفقراء من أبناء حيينا.

ترعرتُ وسط هذا العز لمدة سبع سنواتٍ، حتى ذلك اليوم الذي أصيب فيه أبي بحادث سيارة، فبترت قدميه، وروعنا ما حدث، وخيمت على بيتنا سحبٌ من الكآبة.. وتساءلت أمي:

-مَن سيعولونا من بعد أبي؟.. بل مِن أين سنعول أبي ذاته؟!

وخيّم علينا جو يشبه الوفاة، وتحول البيت إلى سُرادق عزاء.. وكانت أمي تتصرف، وكأن أبي قد مات، وكأن زمن الخيرات قد ولى وانتهى، فمنعت عنا النقود واللعب، وأضحى الطعام بقدر، وحُرمت علينا بعض أنواعه كمظهر من مظاهر الترف.

وبدأت تطحننا رحى الحاجة والمذلة، واستطعنا أن نجمع شكل من هنا شكل ومن هناك؛ لنجمع حداً أدنى ندفع به عجلة الحياة.. وتعودنا على حياتنا هذه.

وذات ليلةٍ، عندما كنتُ في العاشرة من عمري قلتُ لأمي والكتاب بين يدي يشرد بصري بين سطوره أرى الكلمات ولا أعي منها شيئاً:

-كنتُ أودُ أن أحدثكِ في مسألةٍ ما.

ورفعت أمي رأسها عن السكين الذي كانت تقطع به الخبز، ونظرت إليّ وتساءلت:

-أية مسألةٍ؟

-أريدُ أن أترك الدراسة حتى أعولكم.

وتساءلت أمي بجزع:

-لمَ؟!.. هل قصرتُ معكم في شيءٍ؟!

فقلتُ بتلقائيةٍ:

-لقد نمتُ بالأمس، والجوع يكاد أن يفتكُ بجوفي.

وازدردت أمي ريقها.. وتساءلت في صوتٍ جريح:

-حقاً؟.. إنني أبذل كل جهدي من أجل الحصول على نقودٍ تكفيكم.. ماذا أفعلُ أكثر من ذلك؟.. إنني حاولتُ قدر استطاعتي.

ومنذ تلك الليلة، لم أعد إلى المدرسة.. وصممتُ أن أقوم أنا بدور العائل لأسرتي.. وأن أعفي أمي من العمل في المنازل، ومن كل هذه المذلة والاستجداء.

وبعد أيامٍ قليلةٍ، مات أبي حاملاً في صدره أكواماً من الهم والحسرة، ورغم تقاعده، وعدم قدرته على خدمة نفسه إلا أنه كان عمود البيت الذي انهدم بموته، وانهار السقف على رؤوسنا، وشعرنا بالفراغ العظيم الذي خلفه.

ومرت الأيام، وبهتت صورة أبي، وتعاظمت بمواجهتها صورة الفقر والحاجة، وظللتُ أتنقل من عمل إلى آخر، وظروف الاحتلال لم تسمح لي بالمكوث في عمل واحدٍ أكثر من شهرين.. فكلما التحقتُ بالعمل في حانوتٍ أو ورشةٍ ما، حجزت عليها قوات الاحتلال، وتداول الناس خبري وقالوا إنني نذير شؤم!

وأغلقت أبواب العمل في وجهي، وجلستُ في منزلنا مرة أخرى، وعادت أمي إلى استجداءِ الجيران، وبعض أقاربها للعمل في منازلهم، بعد أن كنا نمنحهم نحن ما يفيض عن حاجتنا.. وتارة يعاملونها برفق، وتارة أخرى يعبسون بوجهها حتى ضاق الجميع بنا ذرعاً.

وذات مساءٍ، حدث لنا حادث طبيعي اعتبرته أمي كارثة.. حضرت إلينا جارتنا ذات يومٍ؛ للحديث في أمر مهمٍ، ولم يكن هذا الأمر المهم سوى أنها تريد أن تزوج ابنها لأختي ليلى.. وطلبت أختي للزواج.

وجمت أمي، ووعدتها أنها ستفكر في الأمر، ورحلت المرأة، ولم تجد أمي ما تعبر به عن حيرتها سوى انهمار الدموع من مقلتيها، ثم دعت الله في مرارةٍ أن يفتح لنا أبواب الرزق.

صمت " عبدالرحمن " وبدأت جهاد مشدوهة، وهي تواجه كل هذه الحمم التي ألقاها هذا الإنسان البادي الرضى، الباسم الثغر، من خبايا صدره.. وأخرج زفرة طويلة، ثم أكمل:

-ورفضت أمي العريس؛ لأننا لا نملكُ مالاً نجهزها به، وتقدم العريس يليه آخر، ونحن لا نملك إلا الرفض.. تعرفين لماذا؟.. لإنني عاجز.

-لا تظلم نفسك.. ماذا كان يمكن أن تفعل؟

-وتبادل الناس الشائعات عنها!.. ولم يقدّر أحد سبب رفضنا لزواجها، وازداد الكلام، وكثرت اللغط، وأصبحت سيرتنا موضوع جلسات أهل الحي.

وذات يومٍ، جاءت هي إليّ؛ لتشتكي لي ما يقولوه الناس عنها.. ولم تكد تنطق بعض الكلمات حتى بكت، فأحسستُ بمطرقةٍ تهوي على رأسي.

وسعل " عبدالرحمن " سعلة عصبية قصيرة، ثم استطرد يقول:

-هل تصدقني إن قلتُ لك أنني أسمعُ صوت نشيجها حتى الآن في أذني؟.. وأخذتها بين أحضاني، وامتلأ صدري بالغضب والحقد على هذا المجتمع البائس الذي لا يتورع عن الحديث في أعراض الناس، ولكنه يطلب الستر من الله.

ذلك المجتمع الذي يعتبر الفقراء أحباب الله، لكنه يسخر من الفقير.. ذلك المجتمع الذي يحرم الانتحار، ولكنه يدفع الناس إلى قتل أنفسهم دفعاً.

ولم أجد ما أفعله.. أغلقت الأبواب في وجهي.. وضاقت عليّ الأرض بما رحُبت.. وجئتُ إلى هنا متمنياً الموت، وهارباً من الحياة وكارهاً لها.

-أهذا ما دفعك للانتحار؟

وعادت نبرة النحيب تسري في صوته، وهو يردف قائلاً:

-لا.

-إذن، لماذا أقدمت على قتل نفسك؟

-لأنني خائن.. خنتُ العهد وحنثتُ القسم.

-لا تضخم المسألة.. أنت متعب، ولعلك تجور في الحكم على نفسك.

-حتى لو أفشيتُ أسرار المعسكر للأعداء.. وكنتُ سبباً في أسر الرفاق؟!

وشهقت "جهاد".. وسالت دمعة كبيرة على وجنته.

****

الفصل التاسع
من تكون؟!

صمت أيمن وشرد ببصره في النظر إلى الأرض، وتحركت شفتيه ببعض الكلمات الخافتة المترددة، ولكنه ما لبث أن ابتلعها، ولم ينطق منها شيئاً.

وتقدم " أيمن " إلى الداخل، وارتمى على أقرب مقعدٍ، ووضع رأسه بين كفيه.. وتساءل خالدٌ في لهفةٍ:

-ماذا حدث؟.. تكلم فالقلق يعتصر فؤاد كل منا.

وتساءل الأب في صوتٍ متحشرج:

-هل أصاب "طارق" مكروه؟

وبذل "أيمن" جهداً خارقاً؛ ليتماسك قبل أن يهتف قائلاً:

-لقد سقطت أحد الأبينة عليه، وبترت ذراعه.. ودخل في غيبوبةٍ، لم يخرج منها حتى الآن.

وصرخت الأم، وأمسك خالد بذراع أيمن يهزه في عنفٍ قائلاً:

-أنت تمزح.. أليس كذلك؟.. وأتبع في أسى:

-يكفينا ما قدمنا من تضحية.. تكفينا زهرة.

وهتف الأب بصوتٍ مبحوح:

-متى حدث ذلك؟

-منذ اليوم الأول للغارة.

-أين هو الآن؟

-يرقد في مستشفى "الجلاء التخصصي".

وتمتمت الأم وسط سيول من البكاء:

-يارب رحمتك.. يارب ليس لنا إلا هو.

وأحس الأب أن الأرض تميد به وهتف متسائلاً:

-متى نستطيع زيارته؟

-وتلعثم " أيمن " وبدا أنه يحاول أن يخفي شيئاُ ما.. وحاول جاهداً السيطرة على أعصابه، ثم قال متصنعاً الصدق:

-كما تريدون.. في أي وقت يحلو لكم.

وتساءل الوالد في شكٍ:

-هل تخفي شيئاً ما؟

صمت أيمن، فأردف الأب:

-هات ما عندك.. فليس هناك أسوأ مما قلته منذ دقائق.

تلعثم "أيمن"، ثم قال والتردد يلوح على شفتيه:

-في الحقيقة لقد مُنعت عنه الزيارة، فحالته سيئة للغاية.

وصكت الأم وجهها وهي تهتفُ:

-وامصيبتاه.

وقال الأب في أسى:

-احمدي الله واسترجعي.. عسى أن يهون علينا ما نحن فيه.

-لقد كان ذراعنا في هذه الحياة.. وفي آنٍ واحدٍ، قطعت ذراعنا، وبترت ذراعه.

وترجل أيمن وصافح الأب، والأسى يستوطن ملامحه قائلاً:

-آسف على ما حملته من أخبار.

-هذا قدر الله يا بنى.. سأذهب إلى المشفى غداً، لأرى ماذا يمكن أن نفعل.

وهبط " أيمن "ا لدرج، وسار في ممر الحديقة الخارجي مبتعداً إلى الشارع.

وخيّم على الأسرة جو من الصمتِ.. ودفن الأب رأسه في سجادته داعياً الله أن يرفق بولده.. وعصبت الأم رأسها بمنديل، وجلست تبكي، وتحدث نفسها، وتبكي الراحلين واحداً واحداً.. وتدعو الله أن يرفق بطارق، وألا يحدث له إلا خيراً.. وأن يرده إليها سالماً معافىً.

وجاء الأب قائلاً:

-اهدئي يا أم طارق.. واطلبي من الله أن يشفيه بدلاً من هذا البكاء والنحيب.

انزوى "خالدٌ" في ركنٍ وحده، ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ منذ أن غادر " أيمن " وكأن على رأسه الطير، وامتلأت عيناه بنظرة ألمٍ ممزوجة بقوةٍ.. ولاحظ الأب حاله، وخشي أن يصيبه مكروه هو الآخر، وركز بصره معه حتى أذن لصلاة المغرب.

وهبط الظلام، وخفت الضوء الذي ينبعث من نافذة الغرفة.. وبهتت معالم الأشياء حولهم، وأسدل الظلام ستاره، ولم يهتم أحدٌ بإنارة الغرفة، فالظلمة قد استوطنت نفوسهم قبل أن يحل الظلام في بيتهم.

وبعد وقتٍ ليس بالقصير، قام الأبُ متوكأ على عصاه؛ ليضيئ الغرفة التي يجلسون بها، وتفاجأ بعدم وجود خالد، وعقد حاجبيه مندهشاً وتساءل في فزعٍ :

-أين ذهب خالدٌ؟!

ولم تجب الأم سبقتها عبراتها، واندفع الأب خارجاً من الغرفةِ؛ ليبحث عنه في أرجاء المنزل.

وعلى مائدة الطعام بردهة البيت وجد ورقةً صغيرةً خُط عليها جملة قصيرة.. قصيرة جداً، ولكنها كانت كافية؛ لأن تطفئ آخر شعاع أمل في نفس تلك الأسرة المنكوبة.

****

-أفشيتَ أسرار المعسكر.. إنت تمزح أليس كذلك؟

-على العكس تماماً.. للأسف أتحدث بكل جدية، ولم أفش أسرار المعسكر فقط، بل عرضتُ حياة الآخرين للخطر.. ولم يعد بينهم وبين الموت سوى خطوة واحدة، إن لم يكونوا قد ماتوا بالفعل..

تنهد بحرقةٍ ثم أردف قائلاً:

-لقد وُضعتُ في اختبار عسير، وبين نارين فاخترتُ أقلهم حريقاً لنفسي، وأخفهم لهباً على روحي.. وبالأخير اكتشفتُ أن النيران تندلع من صدري أنا وتتأجج بين جوانحي.

-لم أعد أفهم شيئاً.

-في اللية التي أتيتَ بها أنت إلى هنا متطوعاً للعمل في المعسكر، جاءت لزيارتنا ضيفة هامة للغاية؛ لتطئمن علينا، ولتدعمنا، ولترفع روحنا المعنوية.

وتحدثتُ معها بدون قيود.. وركنتُ إليها.. ولحسن الحظ أو لسوء الحظ لا أدري فلقد شعرتُ أنها قد بادلتني نفس الشعور.. وتحدثتُ معها في شأني كثيراً، وعندما حل الصباح، وارتفع أذان الفجر معلناً انقشاع ظلمة الليل البهيم، إذا بهذه الظلمة تسكب في روحي سكباً.. فلقد أخبرني رئيس العلاقات العامة بالموقع أن والدتي في عكا في حاجةٍ ماسةٍ إلى وجودي.

ولقد استعانت بجل شباب الحي للوصول إليّ منذ أيامٍ قليلةٍ، ولأن لا أحد يعلم وجهتي، فلم ينجحوا في الوصول إليّ.. وتركتُ الموقع، وركضتُ عائداً إلى عكا، ووجدتُ الناس بالشارع ينظرون إليّ نظرات حزن وشفقةٍ.. وساءني تصرفهم ذاك، وحاولتُ الحديث مع بعضهم، ووجدتهم يترددون في الحديث إليّ.. وبعضهم يقول لي:

-عظم الله أجرك، وأخرجك من محنتك سالماً غانماً.

ولم أفهم ما الذي يحدث، وركضت إلى بيتنا، ووجدتُ والدتي جالسة تبكي وحدها في منتصف ردهة منزلنا المتواضع.. ونظرتُ إليها طويلاً، وأمليتُ عيناي منها، وهي لم تلحظ وجودي فلقد ضعف بصرها في الأيام الأخيرة.

وأخيراً، ارتميتُ في أحضانها وما إن تأكدت من وجودي حتى ظلت تقبلني، وتشمني وتربت على ظهري، ثم ألقت لومها اللطيف عليّ؛ لأنني انضممتُ إلى فرق الفدائيين دون أن تعلم ثم قالت:

-لقد استكثرت على أمك أن تفرح بولدها المجاهد.

فدهشتُ لمعرفتها ذلك، وسألتها مِن أين علمتِ الخبر، فبكت ولم تنطق، وازداد نحيبها، وكاد قلبي أن ينفطر فقمتُ من بين يديها، أبحث عن أختي ليلى في كل الغرف، ولم أجدها حتى قالت لي أمي:

-لا تتعب نفسك بالبحث فلن تجدها.

ولم أعد أفهم، وتساءلتُ:

-ماذا هناك؟.. ولم ترد.

أمسكتُ ذراعها، وهززتها بعنفٍ قائلاً:

-أرجوكِ تكلمي.. ما الذي حل بها؟.. ولم يستطع عقلي أن يواصل التفكير.. إلى أي مكان ذهبت؟ فلقد انقطعت علاقتنا بكل أقاربنا، ومعظم جيراننا بسبب الكلام المنتشر عنها منذ مدة ليست بالقصيرة.

وارتديتُ سترتي مرة أخرى، واتجهتُ إلى الباب مغادراً البيت؛ لأذهب إلى جيراننا، وأسأل عنها..ولاحظت أمي أنني عزمتُ على المغادرة.

فتكلمت من بين دموعها قائلةً:

-لا تسأل أحداً.. إنها في أحد سجون الاحتلال.

وحل عليّ الخبر كالصاعقة.. ولم أفهم، لمَ حدث ذلك؟.. ولم تطل حيرتي، فلقد سمعتُ صوت بوق عربة، ووقع أقدامٍ تقترب ثم طرقات عنيفة متواصلة على الباب، وأصابتني رجفة، وفتح الباب دون أن أفتحه جراء طرقه العنيف، واندفع من الباب بعض جنود إسرائيل يحملون مدافعهم..

ودفع أحدهم فوهة مدفعه في صدري قائلاً:

-أنت المدعو " عبدالرحمن ".

فقلتُ:

-نعم.

فصاح في الجنود الآخرين:

-فتشوا البيت.

وبدت أمي في ردهة المنزل تحاول جاهدة بنظرها الضعيف أن ترى ما يحدث، وقد بدا عليها جزعٌ ممزوجٌ بكرهٍ وهتفت:

-ماذا تريدون منا؟.. ألا يكفي ما فعلتموه.

فصاح بها أحدهم، وهو يتجول في الردهةِ قائلاً بكل برودٍ:

-سنأخذه هو الآخر.

وتساءلت أمي في شيءٍ من الصراخ:

-لماذا؟

ورد عليها الرجل بعصبيةٍ:

-ليفعل ما نريد منه أن يفعله.. فإن استجاب سنرحمه.

وهتفت أمي في ثقةٍ:

-الرحمة من الله.. أنت لست الرب لترحم!

وكنتُ حينها أقفُ مبهوتاً، أراقب كل ما يحدث وكأنه شيءُ لا يخصني ، وفهمتُ من الحديث أن أختي قد انتقلت إلى سجونهم.

وكان الجنود قد أنهوا تفتيشهم، وبدا البيت وكأن زلزالٌ ألمّ به فقلب كل ما فيه رأساً على عقب، وقلتُ بهدوءٍ:

-ماذا تريدون مني أن أفعل؟

وقادني رئيسهم إلى غرفةٍ جانبيةٍ.. وراح يروي لي كل تفاصيل المهمة التي أريد مني أن أؤديها.. واستحقرتُ جلستي الهادئة؛ لأسمع منه تلك الكلمات الحقيرة.. ودون أن يكمل ترجلتُ واقفاً؛ وقلتُ في كلماتٍ مقتضبة:

-الزيارة انتهت.. لملم جنودك؛ وعد من حيث جئت.

-هل تعلن رفضك للمهمة سريعاً هكذا؟

-نعم.

-ولكننا لم نتفاهم.

-نتفاهمُ على ماذا؟.. على أن أصبح جاسوساً أو خائناً لكم.

-إنك معنا ستصبح أفضل حالاً.. وسنعيد لك أختك.. ومعها آلافٌ من الأموال حتى تستطيع أن تزوجها.. ووسنفتح لك مشروعاً خاصا بك..

وأردف بسخريةٍ:

-حتى لا يُقال عنك نذيرُ شؤمٍ.. بالإضافة لكوننا سنجعلك رئيساً على هذا الحي بدلاً من صبي في ورشةٍ أو عامل في حانوت بقال.. أهذا أفضل أم بقاءك في المعسكر هذا الذي لا يضمن لك حتى قوت يومك؟

-قوت يومي أضمنه؛ لأن الله هو الذي يأتيني به ليس أنت ولا المعسكر.

قلتُ مسبقاً:

-تفضل اخرج.. ودع أختي في سجونكم فهي ليست أفضل من مثيلاتها اللاتي تضج بهن معتقلاتكم.

-ألا تشفق على أختك؟

-شفقتي على وطني أكثر.. إنها الحرب، ويُفرض على كل منا أن يؤدي تضحية معينة.. لقد حان دورها في التضحية.

-عموماً.. فكر في الأمر وسنعود إليك ثانية في المساء؛ لنتناقش معك مرة أخرى.

قلتُ في ضيق:

-الأمر غير قابل للمناقشة.. تفضل ارحل ولا تعد.

فنهض الرجل، وقد كست وجهه علامات التجهم قائلاً:

-لقد حدثتك بالحسنى لكنك أبيتَ إلا القوة، وشئت أم أبيت تجهز لزيارتنا القادمة.

وقبيل المغرب لم يحل المساء وحده، بل حلت علينا دباباتهم وجنودهم ولعنتهم أيضاً.. وكُسر الباب وامتلأت البيوت والشوارع بهم، وجاء الرجل الذي تحدث معي في الصباح موجهاً مدفعه إلى صدري وقال في حقدٍ:

-غادروا المنزل.

فقلتُ:

-إلى أين؟

-إلى الخلاء، على أهل الحي أن يغادروه الآن.

وانطلقت الرصاصات.. واحدة من هنا وأخرى من هناك.. وعلت الأصوات.. وكاد أن يصم أذني صريخ النساء، وسمعتُ بكاء الأطفال، وشعرت أنهم قد بدأوا الحرب، وساورني إحساسٌ أن ذنب كل هؤلاء يقع على ظهري.. وإنهم إن قتلوا فأرواحهم ستعلق في عنقي.. ماذا يضير إن فعلت لهم ما يريدون، وحافظتُ على أرواح هؤلاء التي هي أعظم عند الله من هدم الكعبة.

ونجح الشيطان في السيطرة على نفسي الضعيفة، ولكنني حاولتُ أن أدحره وأن أعود إلى إيماني مرة أخرى.. وقلتُ:

-هي موتة واحدة فلتكن في سبيل الله.

ونظرتُ إلى أمي، فوجدتها تخرج متعسرة من المنزل، وأحدهم يسير وراءها موجهاً مدفعه إلى ظهرها.. وسارت بضع خطواتٍ في بطءٍ وتؤدة يستعجلها الأحمق الذي وراءها.. وحاولت أن تسرع، فسقطت على الأرض كذلك سقط قلبي من مكانه، وبكيتُ وانحنيتُ عليها ممسكاً بيدها ومحاولاً مساعدتها على الوقوف مرة أخرى، فجذبني أحد الجنود بقوةٍ، فصرت معه وتركتها خلفي تحاول أن تتوكأ على ركبتها للنهوض مرة أخرى.

وشعرتُ بالعجز والضعف والمهانة، وتذكرتُ قول الناس أنني نذير شؤم، فحتى المعسكر لم أنجح أن أؤدي واجبي فيه بعد أن فشلتُ في كل عمل حاولتُ النجاح فيه.

ولم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وقد سيقت الحشود إلى أرضٍ خلاءٍ توجد بآخر حيينا.. ومرت الساعات بطيئة.. والدقائق كأنها أيام.. وكاد برد الليل أن يفتك بمعظمنا.

وقبيل الفجر، سمعنا دوي شديد ثم توالت الانفجارات، وعلت النيران من كل بيوت الحي.. وبدأ بعض الجنود في الاتجاه إلى المكان الذي أجلس فيه بين الحشود.. وأمسكوا بي فدفعوني أمام كل الجموع وصاح أحدهم:

-أمركم كلكم في يد هذا الشاب.. وهذا أول إنذار له إن شاء فعل ما طلبناه منه، سنعيدكم إلى بيوتكم؛ لتبنوها من جديد.. وإن رفض ما طلب منه دفناكم هنا.

ونظرتُ إليهم، ورأيتُ ملامحهم المنكسرة، وعيونهم المترقبة.. هذه سيدة تضم وليدها وتبكي.. وهذه فتاة تحتضن صورة خطيبها المعتقل بعد أن انتقتها من المنزل تاركة وراءها كل شيءٍ.. وهذا طفل يرقد محتمياً بحضن أبيه.. وهذا شيخ قد شابت لحيته، وابيضت عيناه من الحزن على ..وهذا شابٌ قويٌ لكنه رفع يديه مستسلماً في ذلةٍ وانكسار.. وهذه أمي زوت ما بين عينيها محاولة أن تنظر إلي.

وشعرتُ أنني مسئولٌ عن أرواح هؤلاء.. وبدأتُ أوازن بين قتل المئات، وبين قتل واحدةٍ فقط _ألا وهي الضيفة التي حدثتك عنها ليلة مجيئك_ ولم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل؟

ومن بعيدٍ نظرتُ إلى أمي مرة أخرى، فوجدتها امرأة عجوز لا تقدر على إعانة نفسها، ولمحتها تفترش الأرض في ثباتٍ ممزوج بقلة حيلة.. وقد كست ملامحها أكوام من الأسى.. ونبض قلبي حباً لها.

ورفعت المدافع مرة أخرى إلى صدور الجميع، وزاد بكاء الأطفال وعويل النساء.. وأشفقتُ عليهم من هذا المشهد المروع.. ونطق لساني دون أن أدري:

-لقد وافقتُ على كل ما طلبتموه، لكن أعيدوا هؤلاء إلى منازلهم ثم أتبعتُ بحسرةٍ:

-أو إلى أنقاضهم.. وأخرجوا أختي من السجن.

وأنزلت المدافع، وتحرك الناس عائدين إلى الحي.. وركضتُ حيث أمي محاولاً جعلها تتوكأ عليّ فسحبت ذراعها من بين يدي في عنفٍ، وقالت بدموع تسيل على خدها:

-سوّد الله وجهك.. كل النساء هنا يطلق عليهن أم الشهيد_ وأشارت إلى النساء بجانبها_ إلا أنا يطلق عليّ أم الخائن.. من الآن لا أمّ لك.

ومضت تجر أقدامها، وتعثرت في بعض طوب الأرض، وسقطت مرة أخرى.. وبكيتُ.

وفي اليوم التالي، فعلتُ ما طلبوه مني، هاتفتُ تلك السيدة، وأخبرتها أنني بحاجةٍ ماسةٍ للحديث معها، لإخبرها شيئاً مهماً حتى تترك غرفتها، وتأتي إليّ بمفردها، فيقوم اليهود باختطافها على حين غرةٍ من الحراس الذين من المفترض أنهم قد وصلوا إليها.

وفعلت ذلك وأتت مهرولة إليّ؛ لتلبي لي طلبي الغادر، وقبل أن تصل إليّ، حاولت إنقاذ أحد الجرحى فأمسكوا بها قبل أن تفعل.. وكنتُ حينها أشاهد كل هذا، وسالت دمعة كبيرة من عينيه.

-مَن هذه؟.. ولِمَ لم تعتقلها قوات الاحتلال بلا كل هذه العراقيل، إنهم لا يتورعون عن اقتحام بيوت الناس في أي وقتٍ أو التهديد بهدم الفنادق للقبض على بعض نزلائها؟

-لأنها ليست فلسطينية.. ولقد عقدوا مع بلدها الاتفاقيات والمعاهدات.. ويريدون اعتقالها بشكلٍ غير رسمي حتى لا تثور ضدهم أفراد المجتمع الدولي.

-مَن هذه.. وما جنسيتها؟

-إنها السيدة " حياة حمدي ".

وبتر عبارته فجأة صوت طرقاتٍ على الباب، ودخل القائد " ياسر الصاوي " حاملاً على وجهه ابتسامة عذبة، وهتف في راحةٍ:

-يبدو أن الضابط " جهاد " سينجح في كل المهام المكلف بها.. لقد نجح في الحديث معك بعدما فشلتُ أنا، ونظر إلى جهاد قائلاً:

-هنيئاً لك أيها الفارس الجديد.

ولم ترد جهاد، لقد شرد ذهنها بعيداً متسائلاً:

-مَن " حياة حمدي " هذه؟.. لقد سمعت هذا الاسم مراراً لدرجة أنها تألفه كما تألف اسمها.

وحاولت قدر استطاعتها تذكر صاحبة الاسم لكن ذاكرتها لم تسعفها، ولم تستطع أن تسأل "عبدالرحمن " ثانية في وجود القائد..وطلبت الإذن بالرحيل.. وعادت إلى غرفتها، واستلقت على فراشها، وبذهنها تدور حرب طاحنة؛ لتذكر من حياة حمدي هذه.. ترى مَن تكون؟!!!

******

الفصل العاشر

السيدة شيرا..

وظلت السيدة تجوب شارعاً يتلوه آخر بحثاً عن مكانٍ يمكنها المبيت فيه.. ولأول مرةٍ، تشعر أن في السجن مأوىً لها، فإذا لم يكن أمامها الليلة سوى المبيت في العراء، فوجودها داخل أحد سجون الاحتلال خيراً من الله لم تعلم قيمته إلا الآن.. ثم أرجعت النظر ثانية فقالت في نفسها:

-فليكن العراء مقابل الحرية.

وظلت تغدو وتروح بطرقات المدينة.. وضاقت عليها الأرض بما رحبت.. وجال بخاطرها أن تطرق أبواب أحد البيوت، فتطلب من أهلها إيواءها ليومٍ أو اثنين، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، لكن خجلها وكسرةً خلفتها السنوات الماضية بروحها جعلها تخجل أن تطلب طلباً كهذا.

واستمرت في السير، وكلّت قدماها من التعب ولم تجد شيئاً غير السير لتفعله.. وظلت هكذا حتى فوجئت بأنها تقف وسط آلاف من اليهود الذين يتجمعون؛ للاحتفال بعيد الفصح الذي يوافق ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر في عهد نبي الله موسى" عليه السلام ".

وتضاربت دقات قلبها في عنفٍ، وامتلأ صدرها بالجزع، وحاولت السيطرة على أعصابها حتى تخرج سالمة من بينهم.. وحاولت الانطلاق من بين صفوفهم حتى تعود إلى الشارع الذي أتت منه ولكن المكان ازدحم، وكثرت الهمهمات والتي استطاعت أن

تفهم منها أن الكهنة قد وصلوا إلى المكان، وتدفق الرجال الذين أتوا؛ لتأدية الصلاة وإقامة طقوس" بركة الكهنة "، والتي هي أهم مظاهر احتفالاتهم بعيد الفصح.

وصمت الجميع، ووضع الرجال على روؤسهم الأقمشة البيضاء المزكرشة باللون الأزرق واتجهوا إلى الكهنة الذين يقفون على الجانب الآخر من الساحة حتى ينالون من بركتهم، ويصيبهم شيءٌ من دعائهم كما يدّعون، وحسب معتقداتهم.. ولم تجد بُداً من التقدم داخل الساحة وليحدث ما يحدث.

حاولت أن تجر أقدامها، وأن تسير إلى الأمام باتجاه الكهنة حتى تستطيع أن تتخلص من هذا الموقف السخيف الذي يجمعها بأشرار هذه الأرض.. أولئك الذين انتزعوا سنوات شبابها انتزاعاً، وكانوا سبباً في تشريدها، وإبعادها عن طفلتها بعد أن قتلوا وليدها.. وامتلأ صدرها بالغضب، ورفعت بصرها إلى السماء داعية الله أن يخرجها من هذا المكان المشؤوم.

وقبل أن تتم دعاءها، وبينما هي ترفع بصرها إلى السماء إذا بها تلمحُ تلك القبة الخضراء، والتي مال لونها إلى الرمادي الباهت، ولم تصدق أنها تقف في ساحة المسجد الأقصى، وخارت قدماها.. وحاولت جاهدة أن تدقق النظر من خلف دموعها؛ لتتأكد أنها بالفعل تقف أمام المسجد، فإذا بها تلمحُ تلك القبةِ الذهبية الأخرى ألا وهي " قبة الصخرة " التي بُنيت من خراج مصر لمدة سبع سنوات.

وبكت عندما جال بخاطرها اسم مصر.. وعندما تذكرت الوطن.. وتقدمت إلى الداخل، وليس إلى الخارج كما كانت تفعل، وفصلتها عن المسجد بضع خطواتٍ..

وتراقص قلبها محلقاً في السماء، وكأن العالم كله أصبح ملكها، وهي التي كانت منذ دقائق عاجزة عن الحصول على مأوى.

صعدت الدرجات القليلة للسُلم الرخامي الذي يقودُ إلى داخل المصلى، وخفق قلبها، وأغمضت عينيها؛ لتتأكد أنها ليست واهمة، ولا تغط في سباتٍ عميقٍ داخل تلك الزنزانة العفنة التي ترقد بها في أحد سجون اليهود.

وسالت دموع الفرح على وجهها، ولم تجد تعويضاً أفضل من هذا عن حرمانها من كل سنوات عمرها الفائتة والضائعة هدراً بين جدران الزنازين.. وأن الله قد اصطفاها من بين ملايين العرب الذين يحلمون برؤية المسجد الأقصى ولو من بعيد؛ ليأتي بها إلى هنا دون علمها ودون أن تجرأ على الحلم بذلك ولو لمرةٍ واحدةٍ.

وتقدمت إلى الداخل.. لابد أن تسجد لله شكراً قبل أن تؤدي بعض الركعات.. واتجهت إلى الباب، ولم تكد تقترب حتى لمحت أناساً بالداخل، ميزت أنهم من أبناء بني صهيون فلا يجرؤ مسلمٌ واحدٌ على الدخول إلى المسجد بحذائه كما فعل هؤلاء الأنجاس.. ولا تقدر مسلمة واحدة على الدخول إلى المسجد هكذا بدون حجاب.

وساورها إحساسٌ بالقلق، وسارت بضع خطواتٍ في الممر الخارجي؛ لتبتعد عن مصباح الإنارة الذي يقبع فوق رأسها حتى لا ينتبه لوقفتها أحد.. ووجدت مكاناً ملائماً بعض الشيء، يرتفعُ بضع درجاتٍ عن الممر الأساسي، ولا يصله سوى ضوء خافت فلن يستطيع أحد أن يلمح وجودها فيه.

واعتلت الدرجات بقامتها الهزيلة.. وجلست ترقب أولئك الأشخاص الموجودين بالساحة والذين يتبركون بالكهنة.. ونظرت إلى الموجودين بحقدٍ

واستخفافٍ.. واستطاعت أن تميز فيهم أنهم بالتأكيد من شخصيات بني صهيون العريقة مع بعض رجالات الدولة والصحفيين وبعض رجال الأعمال وسيدات المجتمع

وجلست على مقربة منهم ترقبهم في صمتٍ حزينٍ وقد بدا عليها سيماء الشرود وكان وجهها أبيض رقيق الملامح به تجاعيد قليلة تخبرك عما فعلته بها السنون.. وقد ظهر على بشرتها صفرة وهزال ينبأنك أنها قضت جل أيامها بأحد سجون الاحتلال الصهيوني.. وبدا جسدها طويلا نحيلاً .. وزاد إرهاقها ذلك النعاس الذي يقف على أطراف أجفانها محاولاً أن يفرض سلطانه على عينيها، وقد جلست متربعة فوق الدرجات العالية، واستقرت يداها متشابكتين في حجرها، وانحنى كتفها، ومال رأسها حتى استقر ذقنها على صدرها، واستسلمت أجفانها لنومٍ متقطعٍ خائفٍ ومرتجفٍ.

وانتصف الليل، ولفحها البرد، وسرت الرعشة في أوصالها، وتيقظت من النوم مندهشة ومبهوتة لا تدري أين هي؟ وماذا تفعل هنا؟ ونجحت ذاكرتها في العودة إلى واقعها بسرعةٍ، وتذكرت كل شيءٍ.

ونظرت إلى الموجودين بالمسجد نظرةً سريعةً خاطفةً، وحولت بصرها إلى الآخرين الموجودين بالساحة لكن شيئاً غريباً لمحته داخل المسجد.. شيءٌ لمع في عقلها، وذكرها بطفلاها، وعاد بها إلى الوراء.. شيءٌ أدمى قلبها، وبث بداخلها لهيباً من الحزن.

وعادت ببصرها إلى المسجد مرة ثانية، وراحت تبحث بعينيها عن ذلك الشيء الذي رأته فأرق قلبها، وأحزنها كل هذا الحزن، ولكنها لم تجد شيئاً غريباً.. مجرد عابثين يتواجدون بالمسجد؛ ليواصلوا الاحتفال بعيدهم المزعوم.. وألقت نظرة على الموجودين

بالساحة من جديد، وكست وجهها سحابة من الوجوم، وتساءلت في داخلها بغضبٍ مكتومٍ:

-متى سينصرفُ هؤلاء؟ حتى تدخل المسجد وتضع فيه بعض همومها.. وتلقي عن كاهلها بعض يأسها؛ لتدعو الله أن يفرج عنها ما هي فيه.

ونظرت إليهم مرةً أخرى.. ووقفت في عنفٍ، وكأن عقربا لدغتها، وشهقت بشيءٍ من الصراخ.. لقد لمحت ما رأته قبل دقائق مرة أخرى.. لقد قدر الله لقاءهما من جديد وبعد مرور تسعة عشر عاماً.. تركت مكانها، واندفعت إلى داخل المسجد كلبؤةِ المفترسةِ.. إنها هي ولابد أن تنتقم منها الآن.

واقتحمت باب المسجد ووُجهت الأنظار إليها في دهشةٍ واستغرابٍ.. واتجهت إلى السيدة التي تجلس على أحد المقاعد هناك قائلةً برغبةٍ واضحةٍ في الانتقام:

-لقد وضعكِ الله في طريقي ثانية؛ لأنتقم منكِ.

وزاد الهرج، واندفع إليها بعض الحراس يطوقونها.. وصرخت المرأة:

-دعوني أقتلها كما قتلتني من قبل.. لقد كنتُ أموتُ في اليوم ألف مرةٍ بعدما كانت هي سببٌ قتل ابني وتشريد ابنتي.. وتدمير حياتي.. إنها السيدة شيرا التي ألقت بي وبأبنائي مسبقاً في اليم.

******

استمر بقاء " عبدالرحمن " في المعسكر وحيداً في غرفته، لا يحدث أحداً، ولا أحد يحدثه حتى الضابط " جهاد " أو " الفارس الجديد " كما يحب أن يلقبه قد توقفت زياراته بعد تلك الليلة التي وثق به فيها وحكى له كل ما حدث.. لا يدري لمَ انقطعت زياراته؟ لكنه علم بعد ذلك أن الحمى قد أصابته، ومزقت أحشاءه وفتتت عظامه.

وقرر " عبدالرحمن " زيارته لكن " ياسر الصاوي " أخبره أن الطبيب قد منع عنه الزيارة؛ لسوء حالته.. وطلب منه الجلوس معه؛ ليتشاركا الحديث ولو لبضع دقائق.. وجلس " عبدالرحمن " وبدأ ياسر الحديث قائلاً بلومٍ:

-ألم تشتاق للقتال بعد، أم ضقت بنا ذرعاً إلى هذا الحد؟

وابتسم " عبدالرحمن " ابتسامة سخرية ثم هتف:

-لم أضق ذرعاً سوى بنفسي التي بين جنبي.

-لمَ؟

-لأن تفكيري المحدود، وقلبي المرهف، ونفسي التواقة للخير دوما أوقعاني في الهاوية، وأورداني موارد الهلاك.. أنا غير صالح للقتال.. غير صالحٍ لأي شيءٍ نافعٍ في هذه الحياة.

-أستطيعُ مساعدتك إن أردت.

-كيف.. هل سيعود الزمن إلى الوراء؛ لأعرض عليك الاختيارات التي وُضعتُ بينها، وتختار بدلاً عني ؟

-دائماً الخطأ يمكن تصحيحه.

-ليس في كل الحالات.

-أريد أن أعرف.

-وبعد أن تعرف ستقتلني بيديك هذه.

-ألهذه الدرجة؟

-وأكثر من ذلك.. " يا أيها الذين ءامنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ".. لم أعلم قيمة هذه الآية إلا الآن.. سيسؤوك ما فعلته، ولو أخبرتك حقيقتي سأورطك بقتلي، وأنت في غنى عن ذلك.. لا تلوث يدك بدماء مَن هم مثلي.

-لقد أثرت فضولي.. الخطأ وارد، وكل بني آدم خطاء.. تكلم فقد يريحك الحديث، وأعدك أنني سأضع تهوري جانباً وقبل حتى أن أسمع.

-أنا لا أخشى قتلك لي، ولا أهابُ الموت، ولعلك تدرك ذلك لكنني أخشى عليك.. أخشى أن يقولوا قتل أحد جنوده، وهم لم يعلموا حقيقتي بعد.

وتنهد " عبدالرحمن " وراح يحكي كل ما حدث.. وختم حديثه ثم أمسك بمسدسٍ صغيرٍ موضوعٍ على المكتب وقدمه إلى الضابط قائلاً:

-إن شئت أن تفعل فأنا لن أمنعك.. إنني أريد الراحة، وأعتقد أنني لن أجدها في هذه الحياة.. فإن شئت قتلي فعجّل به.

زفر " ياسر " زفرة حارة تحملُ بعض الأسى الذي ترسب في أعماقه من الحديث، وترك " عبدالرحمن " ووقف أمام النافذة؛ ليستنشق بعض الهواء الذي انحسر عن رئتيه بسبب كلام " عبدالرحمن".

وعاد " عبدالرحمن " إلى عزلته يقضي بها أياماً متشابهة.. ذهب مرة إلى والدته في عكا، فرفضت زيارته، وامتنعت عن رؤيته، فعاد إلى المعسكر، وهو يشعر أنه بات خير ملجأ له حتى يقضي الله في أمره.. ويتوب عليه كما تاب مسبقاً على كعب بن مالك وأقرانه.

وأخذت أيامه تمر بعد ذلك لا تخلو من الملل والكآبة، ولا يقطع مللها سوى بعض الأخبار التي تلتقطها أذنيه من حديث الجنود عن أنباء هجماتٍ لقواتنا هنا أو اشتباكٍ لهم مع العدو هناك.. ويوماً وراء يومٍ بدأت الضربات تشتد.

وذات يوم وقف أمام النافذة ينظر إلى الجنود ويستمع إلى حديثهم لقد فجر موقعانِ من مواقع العدو، وانفجرت ثلاث من طائراتهم في الجو، واشتبك الفريقان في معركةٍ حاميةٍ عند الطريق الشرقي بغزة، واستمرت لمدة أربعةِ ساعاتٍ، وأنزلنا بالعدو خسائر كبيرة.. ودكت الصواريخ ثلاث مبانٍ ذات أهمية للعدو في تل أبيب.

وصمت العساكر، وتحرك " عبدالرحمن " من خلف النافذة عائداً إلى فراشه، وقبل أن يسلتقي عليه سمع أزيز طائراتٍ، ثم صوت دويٍ وتوقف في مكانه لحظة.. وازداد الأزيز، وكثر الدوي وعرف أن العدو يغير بطائراته على الموقع وتحرك الجنود..

وهتف القائد:

-العدو يهجم.. أنزلوا المخابئ.

ثم اندفع بأقصى سرعةٍ داخل الموقع، وبعد لحظاتٍ خرج منه، وكان يجلسُ في ممر القيادة بجانبه جهاد، وازدادت ضربات العدو.. وأخذت طائرات " السكاي هوك "

تمر مجموعة تتبعها أخرى؛ لتفرق حمولتها فوق الأبنية ومخازن الطعام، وتدك الموقع في كل مكان.

وتطلعت " جهاد " إلى " ياسر " متسائلة:

-نضرب؟

-نضرب ماذا؟ سندعهم يفرغون حمولتهم كما يريدون.

ولقد أمرنا عساكرنا بالاختفاء في المخابئ خلف الصخور جيداً.. نحن لا نريد خسائر لا مبرر لها ومن الأفضل أن نحتفظ بذخيرتنا نطلقها فيما يجدي.

واستمر ضرب الطائرات في عنادٍ وإصرار.. ثلاث ساعاتٍ من الضرب المتوالي والموقع يهتز من الانفجارات.. وخرج أربعة من الجنود من خلف الصخور يحملون مدافع " أر.. بي.. جي.. " واشتبكوا مع طائرات العدو والتي فتكت بهم دون رحمة.. وهبط جنود العدو من الطائرات، وانتشروا داخل الموقع، وبدأوا في التحرك داخله، والعبث بكل ما يحويه.

وتوصلوا إلى غرفة القائد، فأخذوا يعبثون بأوراقها وبالكتب والخرائط التي تضمها مكتبة الغرفة.. وقاموا بنقل كل ما يفيدهم إلى طائراتهم ثانية بعد أن فتشوا غرف بعض الشخصيات المهمة بالموقع وعلى رأسهم " جهاد "، وبمجرد أن انتهوا أشعلوا النيران في مخزن الذخيرة.

وصرخت " جهاد " من داخل غرفة القيادة وهتفت:

-هل سنظل صامتين هكذا؟ ألم تقل أننا بحاجة إلى كل طلقة؟

وبتر سؤالها صوت العدو من مكبرات الصوت قائلاً بالعربية:

-كانت هذه محاولة للتأديب؛ لأنكم تجرأتم على المقاومة، وإطلاق النيران في تل أبيب نفسها.. في المرة القادمة سنشعلها حرباً ليس بمواقع التدريب فحسب وإنما أيضاً بالمدن والأحياء حيث المدنيين.. وارتفعت الطائرات بجنودها مرة أخرى عائدة من حيث جاءت.

****

وعادت الحشود إلى الحي الذي كان يبدو كله كأنه أطلالاً والدخان يتصاعد من كل مكان.. وأصوات انفجارات ما زالت تعلو من هنا أو هناك، وعربات الحريق تخترق الحشود بسرعة، لإخماد الحرائق التي نشبت.. وأحست العجوز أنها لا تقدر على السير، وحاولت الاستناد على أحد الجدران.. وجاءت إليها " آسيا " إحدى فتيات الحي، والتي كانت ترى في " عبدالرحمن " دائماً فتى أحلامها!

وقادت العجوز إلى البيت المحطم.. ووقفا بين الأنقاض وقالت " آسيا ":

-البيت لم يعد يصلح للسكن يا خالتي.. تعالي إلى بيتنا إن به جزءا سليما يصلح العيش فيه.

وأحست العجوز بعجزٍ عن التفكير.. لقد حطمت الأحداث المتلاحقة أعصابها.. ولم تعد تعرف كيف تتصرف

ولكنها هتفت:

-اذهبي أنتِ يا ابنتي، إنه بيتي سأعيش به مهما كانت حالته.. وسأحاول أن أرممه من جديد كما سيفعل كل أهل الحي.

-إن بيتنا هو بيتكِ يا خالتي.. وفي هذه الشدائد يجب أن يسع بعضنا بعضاً.

وتنهدت المرأة.. لو هدم المنزل على رأسي لكان أهون مما فعله ابني الآن.

-لا تظلميه.. لعل له ظروفه الخاصة ومبرراته المقبولة.

-الخيانة لا مبرر لها!

هي الجملة ذاتها التي نطقها " عبدالرحمن " في المعسكر، وهو يحمل أحد ضحايا الغارة الأخيرة عندما هتف به " ياسر ":

-لا تقسو على نفسك، لك مبرراتك المقبولة، وأعذارك المنطقية.. ثم تنهد مردفاً:

-لقد استأسد هؤلاء الكلاب وتجبروا .. لقد ركبهم الغرور، وباتوا يعاملوننا بحقد الغزاة.. لقد فاجؤنا الليلة بحربهم كانت شيئاً بشعاً، أجلس في غرفة القيادة ولا أقدر على فعل شيءٍ.

كنتُ أسمع الدوي من هنا والانفجار والصراخ من هناك ولا أقدر على فعل شيءٍ سوى أن أهتف في اللاسلكي:

-اختبؤوا بين الصخور.

-تركتُ الضابط " جهاد " أكثر من مرة مغادراً الغرفة؛ لأفعل شيئاً لكنني كنتُ أقفُ على بابها كل مرةٍ لم أستطع أن أرى شيئاً في الظلام.. كان كل شيءٍ مضطرباً مختلطاً ومتشابكاً، ولم أكن أعرف أين هم وأين نحن؟

وكلما نظرتُ إلى " جهاد " وجدته يهذي من الحمى مرة، ويستفيق منها أخرى، ولمحتكم تحملون الجرحى، وتخبؤوهم بين الصخور.. وكدتُ أخرج ولكنني خشيتُ أن

يلمحوني فأدلهم على المركز الاحتياطي للقيادة الملتصق بمخزن الذخيرة فيشعلون النيران فيه.

كنتُ أشعرُ بالعجز والفشل وعدم قدرتي على تحمل مسئولية معسكر بأكمله.. كان الشعور بالعجز يفتكُ بي فتكاً.. لكنهم كانوا كثيرين.. طائراتهم تملأ السماء.. تذهب وتجيء.

وازدرد " عبدالرحمن " ريقه قائلاً:

-لقد صمد جنودنا.. لقد فعلوا كل ما يمكنهم؛ لإنقاذِ المعسكر، ولكنهم فشلوا فمات منهم مَن يستحق الحياة.. وظل منهم مَن يستحق الموت، وأشار إلى صدره.

ومضى الليل.. ليلٌ لم يغمض فيه جفنٌ لأحد.. العيون مفتوحة والدوي ما زال صداه يصم الآذان.. وفي الصباح، تركت العجوز بيت " آسيا " الذي قضت فيه ليلتها، وغادرت إلى بيتها، وحاولت آسيا أن تمنعها لكنها آثرت ألا تترك البيت ستعود إليه؛ لترمم صدعه، وتقيم سقفه، وستربؤ ما تبقى منه.. ستبيع غرفة عبدالرحمن لنجار الحي.. لم تعد لها قيمة الآن، لقد مات صاحبها منذ الأمس، وستعيد بثمنها بناء المنزل كما كان.

-بل ابقي معي، واتركي الباقي من غرفة " عبدالرحمن " كما هي فكما تعلمين لا أهل لي.. ابقي معي واتركي منزلكِ.

-غير معقولٍ أن أتركه.

-بل غير معقولٍ أن تسكنين في ثانيةً.. لو فعل " عبدالرحمن " شيئاً لا يريده اليهود قد يدمرونه مرة أخرى.

-سأبنيه مرة أخرى.

-قد يدمرونه وأنتِ فيه.

-أغريبٌ أن أدفن في بيتي؟!

وخلال أيامٍ قلائل رُمِمَ الحي وأعيد بناؤه من جديد.. وعاد كل واحدٍ إلى بيته، وكأنهم يمدون جذورهم في الأرض كلما حاول اليهود اقتلاعهم منها.. لن يهجروا هذه الأرض أبداً.. إن اليهود يبثون الرعب في نفوسهم كي يتركوا الوطن ولكنهم أبوْا إلا أن يموتوا فيه.

******

-حمداً لله على سلامتك.. أقلقت المعسكر كله عليك.. وقع الحمى عليك كان أسوأ من وقع الاحتلال ثم أردف " ياسر " ساخراً:

-الحمى فعلت بك أكثر مما فعله العدو بنا.

ردت " جهاد " في ابتسام:

-ليس لهذه الدرجة.

-على العكس تماماً.. لقد توقفت بعض عملياتنا ريثما يتم شفاؤك.

-ألهذه الدرجة؟

-بالتأكيد.. وليس أمامنا وقتٌ للحديث في ذلك سنبدأ في التخطيط من الآن.

-ولكنني كنتُ أحتاجك في أمرٍ ما أولاً.

-ماذا هناك؟

-كنتُ أود سؤالك.. مَن تكون " حياة حمدي " هذه؟

عقد ياسر حاجبيه قائلاً في دهشٍ:

-مِن أين لك بهذا الاسم؟

-لقد سمعته من " عبدالرحمن ".

-هل حكى لك كل شيءٍ؟

-نعم.. ما عدا الجزء الذي يخص هذه الضيفة الهامة.

مط ياسر شفتيه قائلاً:

-الحربُ خدعة.. والسياسة لعبة قذرة لذلك كي تكون محارباً جيداً وسياسياً محنكاً عليك أن تشك في كل ما يدور حولك حتى أصابعك لا تمنحها كل الثقة فقد يبترها العدو في أي وقتٍ.

-لم أفهم!

-ليس من الفطنة أن تضعَ كل ثقتك في ضابطٍ واحدٍ.. وقديماً قالوا:

" لا تضع البيض في سلةٍ واحدةٍ حتى إذا كُسرت واحدة بقيت لك أخرى".

وهذا المبدأ نسير عليه نحن هنا.. هناك أشياء تعرفها أنت وأحفظها أنا تمام الحفظ عن ضابطٍ مثلك، ورغم أنه بنفس قدرتك وكفاءتك.. وهناك أشياء أخفيها عنك وأمنحها له.. وهناك أشياء أخرى أخفيها عنكما رغم ثقتي التامة بكما، مَن يدري ربما أسر أحدكما وأجبره التعذيب على الاعتراف بكل ما يعلم؟ ربما أخبرتك مَن تكون هذه الضيفة، وبالمناسبة المعسكر كله يعلم مَن تكون هي لكن الأحداث المتلاحقة شدت أعصابهم، وألهتهم عن السؤال عنها وهذا ما كنا نريده بالضبط.

لذلك لقد قررنا نشر خبرٍ خاصٍ جداً في أحد صحف الصباح غداً أو بعد غدٍ يفيد أن صاحبة الشخصية الحقيقة قد عادت إلى بلدها سالمة آمنة حتى يشعر اليهود بضآلة هذه الذي يعتقلونها، وننجح في مساومتهم عليها مقابل أسيرٍ إسرائيلي، أو على الأقل نثير البلبلة في أجهزتهم، ونبعث الشك في عقولهم.

في هذه المعسكرات كل شيءٍ يحتمل الصواب.. وأيضاً كل شيءٍ يحتمل الخطأ.. كل شيءٍ يحتمل أن يكون حقيقيا أيضاً من المحتمل أن يكون كل ما حولنا مزيفًا وسرابا.. لنتحدث عن العمل.. أخذ نفساً عميقاً ثم أتبع:

-تعلم أن الغارة التي أطلقت نيرانها على المدنيين لعشرة أيامٍ فأذاقوهم سوء العذاب.

هزت " جهاد " رأسها مؤكدة.. فواصل الحديث قائلاً:

-ولقد كان لرجالنا في غزة من هذا أكثر النصيب وواجبهم علينا الآن أن نقف بجوارهم حتى يتجاوزون محنتهم لذلك قررت اللجنة الاجتماعية مساعدتهم مادياً ومعنوياً حتى يزيح الله عنهم ما هم فيه..ولقد وقعتُ على قرار اللجنة............

وتساءلت " جهاد " مقاطعة:

-لأول مرةٍ تقحمني في عملٍ خاص باللجنة الاجتماعية.. أعتقد أن دوري هنا بين مدفعٍ أو قذيفةٍ.

-لم أكمل حديثي بعد.. إنني اخترتك على رؤوس الزملاء للذهاب إليهم.

ودق قلبها في عنفٍ، فالجميع يألفونها في غزة، ويمكنهم بسهولة تمييز تنكرها

فتساءلت بجزعٍ:

-أنا؟!

-نعم.. لمحتك فيك ذكاء وفطنة الكاتب أو الصحفي.. لا أدري، ولكنني متأكدٌ أنك قادرٌ على حمل القلم كأعز ما يمكن أن تحمل، وأعتقد أن حمل القلم بالنسبة لك لا يقل عن أهمية حمل المدفع بالنسبة لي!

وألهب حديثه في صدر " جهاد " تذكر الكتابة والحديث عن تجربتها المريرة في الموقع ووصف ما مرت به وما يعانيه الجميع هنا.. لقد اشتاقت فعلاً إلى قلمها، وإلى مكتبها وإلى آلالات التصوير.. لكم طاقت إلى ضم صديقتها سلمى ونظرات الود التي تحملها أعين الزملاء ولكنها حاولت كبح جماح مشاعرها حتى لا يُكتشف أمرها.

-شرد ذهنك.. أليس كذلك؟

هزت رأسها نافية.

-كنتُ أخبرك أننا سنبدأ في الذهاب إلى تلك الأسر المنكوبة من الغد، وسنترك الموقع وستذهب أنت أيضاً معي، وهذا ليس دائماً لكن زيارة الغد ستجمعنا نحن الاثنين.

-لمَ؟

-أهلها مكافحون.. أبٌ عن جد، بذلوا من وقتهم وجهدهم وروحهم الكثير من أجل هذا الوطن.. أقل ما يمكن أن نقدمه لهم أن نشعرهم أن تضحيتهم لمْ تذهب هباءً منثوراً رغم علمي التام أنهم ليسوا في حاجةٍ إلى شكرٍ منا ثم تنهد تنهيدةً تذخر بالأسى قائلاً:

-لقد كان وليدهم أعز أصدقائي.. شاباً طيباً يحمل من الهموم ما لو وزع على أهل الأرض لكفاهم.. يحمل عبء عمله وعبء أعمال أبيه وعبء أعمالنا هنا في حركات المقاومة.. كان هو قائد اللجنة الاجتماعية؛ لتوزيع المساعدات على الأسر من أهل الضحايا والمنكوبين، ثم ها نحن نعلن اسم أسرته ضمن الأسر المنكوبة!

-وأين ذهب؟

-ما زال حياً.. لكنه أقرب للموت من الحياة.. يقولون إنه لم يفصله عن الموت سوى سويعاتٍ قليلة.. لم أقدر على زيارته ولو لمرةٍ واحدةٍ.. أخشى أن أسلم بما هو فيه.. أخشى رؤيته عاجزاً على قيد سنتيمترات من الموت.. إنه أعز من عرفت.. وأفضل مَن صادقت.. وأخشى أن يصيبه مكروه فيصيبني ضعفه.

-سينجو بإذن الله لو أراد له الله الوفاة؛ لأماته من يومها، لكن الله وضعه في الاختبار ووضعنا معه؛ ليرى هل سنصبر أم سنجزع.. لقد حمستني لزيارة أسرته، وأعدك أنني سأبذل قصارى جهدي في البحث عن طبيبٍ متخصصٍ؛ لعلاج هذا النوع من الحالات.

-ليفعل الله ما يشاء.. مر على عساكرك؛ وتأكد من تأمين مخزن الذخيرة؛ واذهب إلى النوم وستبدأ رحلتنا بعد الفجر.

******

الفصل الحادي عشر

لأنك لم تفعل

-" ألبرت ناعوم "، ما كل هذا النجاح يبدو أنك تصارعني من أجل انتزاع اللقب.

قهقه " ألبرت " قائلاً:

-صقر الموساد لا يليق إلا بك يا " إيلان ".. لم أهاجم المعسكر؛ لأنتزع اللقب منك، ولكني كنتُ أؤدي واجبي تجاه إسرائيل فحسب.

-لم تكن غارةً على نحو واسعٍ ولكنها كانت موفقة.. لقد نجحت في بث الرعب في نفوسهم، وبالتأكيد هم الآن يحاولون توقع أي المعسكرات سيكون محل هجومنا في الفترة القادمة.

-دعك من هذا كله.. القيادة المصرية أعلنت وجود السيدة " حياة حمدي " داخل الأراضي المصرية، ونفت أي إشاعاتٍ مغرضةٍ تدل على اختفائها.. كما أن حركات المقاومة الفلسطينية أعلنت وصول السيدة " حياة حمدي " إلى مطار القاهرة الدولي منذ عدة أيامٍ.. أعتقد أنه من المحتمل أنهم قد أرسلوا إلينا بواحدة أخرى غير مستشارة رئيس الجمهورية.. لم أنم ليلة أمس من التفكير في هذا الأمر لو كان الأمر كذلك ستكشفُ كل وسائل الأخبار فضيحتنا المؤلمة هذه.

قال " إيلان " بابتسامةٍ عريضةٍ:

-دعك منهم إنهم يشتتون تفكيرنا ليس إلا.. أنا أعلم تمام العلم أن الموجودة هنا هي" حياة حمدي " بنفسها.. ومتيقنٌ من هذا تمام اليقين.

-ومن أين أتيت بكل هذه الثقة؟

-" إيلان إيرائيل " له طرقه الخاصة ومصادره الموثوقة.

-الأمر لك.. والعملية تخصك كما تعلم، ولكنني أردتُ تنبيهك.

-لا تقلق بشأني.

-ماذا ستفعل بأمرها إذن؟

-لقد أعددتُ للجميع مفاجأة خاصة بشأنها، ستعرفونها في الوقت المناسب.

قال " ألبرت " ضاحكاً:

-" ألبرت ناعوم " عليه أن ينتظر الوقت المناسب هو الآخر؟!

-هو بالذات.

-هكذا إذن.. على كلٍ "جان " في طريقه إلينا الآن؛ لنتحدث بشأن العملية القادمة.

-" جان " هذا لا يروق لي.

-في الحقيقة، هو أيضاً يبادلك الشعور نفسه.. وبكل أسفٍ، أنتما تروقان لي، وأرى أنكما ثروةٌ عظيمة للموساد.. ولم يكد يُتم كلمته حتى طرق باب المكتب، ودخل منه " جان " دون أن ينتظر الإذن بالدخول.

ألقى التحية على " ألبرت " متجاهلاً وجود إيلان، وبدون مقدمات فتح الخريطة التي بين يديه، ثم وضعها على المكتب، وأمسك بالقلم وراح يروي كل تفاصيل العملية الجديدة.

******

وقبيل الفجر، استيقظت " جهاد ".. أدت صلاتها وتناولت فطورها بغرفتها.. ارتدت ملابسها، ولفت شعرها بحرصٍ حول رأسها، ثم ارتدت غطاء الرأس العسكري.. غادرت غرفتها، واتجهت إلى السيارة المتوقفة أمام المعسكر.. ألقت التحية على السائق الذي ما إن رآها حتى قال:

-القائد يُتمم على الجنود في عجلٍ، وترك لك أمراً بالانتظار حتى يأتي.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى أتى، وانطلقت السيارة تجاه الطريق المؤدية إلى غزة.. وبدأت الشمس ترسل أشعتها الدافئة، والتي لم تنجح في السيطرة على البرودة التي تنتشر في الجو.. وحكّت جهاد كفيها ببعض في محاولةٍ لاستجلاب الدفء، وأحسّت أن البرد ينفذ إلى عظامها من خلال الملابس التي ترتديها.. ورغم ذلك عقلها لم يهدأ من التفكير في كيفية ذهابها إلى غزة ثانية رغم معرفة الجميع بها هناك.. دورها كصحفية سابقاً جعل لها شهرة عريضة وفرض لها مكانة مميزة وسط الجميع.. وإذا كانت قد نجحت في تقمص شخصية رجل في المعسكر فترى هل ستنجح أيضاً في تقمصها أمام مَن يعرفونها؟!

وأمسكت بإحدى الكوفيات الموجودة أمامها على مقدمة السيارة ونظرت إلى ياسر الذي يجلس بجانبها قائلةً:

-الجو بارد.. ولقد لفح الهواء وجهي حتي تشققت بشرتي، والتهبت جيوبي الأنفية سألفّ هذه الكوفية على وجهي حتى يهدأ.

ودون أن ينطق مبدياً رأيه لفّت هي الكوفية حول وجهها بحرصٍ فلم يظهر منها سوى عينيها اللاتي ملأتها الدموع والخوف الممزوج بالحنين إلى المكان الذي ترعرعت

بين ساكنيه، وبيوته، وطرقاته.. واقتربت السيارة، وأحسّت جهاد بريحٍ من الحنين تلفح قلبها فظلت تُملي عينيها من الطرق واحداً يلي الآخر.. تلك الطرقات، التي تحفظها عن ظهر قلبٍ.. وأخيراً، وصلت السيارة إلى المنطقة التي كانت تسكن به.

هذه نهاية حي " الأحرار "، وهذا شارع " باريس " الذي يفصل حي الأحرار عن حييهم.. وعبرت السيارة يميناً في الشارع الشبه خال من المارة؛ لبرودة الجو وللساعة المبكرة التي أتوْا بها.. ودق قلبها في عنف، يبدو أن صديقه هذا يقطنُ بالحي الذي كانت تقطن به، وازدادت المهمة صعوبة وهتفت " جهاد ":

-أين يقطنُ صديقك هذا؟

-في هذا الحي.. لا يفصلنا عن بيته سوى خمس دقائق.

وهتفت " جهاد " في ذعرٍ:

-أمتأكدٌ أنت؟

-نعم.. لقد أتيتُ لزيارتهم في بيتهم من قبل.

نظر إليها ياسر في تعجبٍ لطريقة سؤالها قائلاً:

-هل حدث شيءٌ ما؟

-لا.. كنتُ أستفسر فقط.

مط " ياسر " شفتيه متسائلاً:

-تستفسرُ عن ماذا؟

فقالت في تلعثمٍ:

-عن مكانهم.. لربما أتيتُ لزيارته فيما بعد.

وظلت السيارة تقتربُ من الشارع الذي كانت تسكنه، وقلبها يكاد أن ينخلع من مكانه.. تحسست الكوفية التي تغطي وجهها، ومسحت دمعة كادت تسقط من جفنيها.. ترى مَن تكون هذه الأسرة؟ إنها تعلم الجميع هنا.. تعلمهم واحداً واحداً.. ولم تسعفها ذاكرتها في تخمين مَن تكون الأسرة المنكوبة والتي قرر" ياسر" المجيء إليها بنفسه؟

وعبر زجاج السيارة، نظرت مرة أخرى إلى الطريق.. هذا هو الطريق الغربي، وهذه هي شجرة الزيتون التي لطالما جلست تحتها.. وهذه هي المدرسة التي تخرجت منها.. أمعقولٌ أن يعيدها القدر إلى هنا مرة أخرى في ثياب مجاهدٍ فلسطيني بعد أن فرت من هنا في ثياب يهودية خائنة؟ هل الدنيا صغيرة إلى هذه الدرجة؟ وفركت كفها في عصبيةٍ.. وبحذر شديدٍ نظرت إلى " ياسر " الذي يرمقها بنظراتٍ مستفهمة بين آنٍ وآخر مستفسراً عن سبب توترها غير المبرر.

حاولت أن تقول أي شيءٍ يخرجها من هذا المأزق الذي وضعها القدر فيه، لكن الكلمات هربت من بين شفتيها.. فجذبت نفساً طويلاً أنقذها من الاختناق، ثم تلفتت حولها فلم تنظر سوى الشارع التي كانت تسكن به، وكادت الأنفاس أن تحتبس في صدرها، والسيارة تقطع المسافة القليلة المتبقية بينها وبين مسكنها، وأحسّت بالخوف، إنها تكره أن يخونها القدر، ويظلمها مرة أخرى، ويعلم الجميع أنها من أصلٍ يهودي فيسومونها سوء العذاب دون ذنبٍ لها أو جريرة.

وكادت أن تأمر السائق بالتوقف؛ لتهبط من السيارة ذاهبة إلى غير عودة.. ليتها تموت، وتحديداً في هذه اللحظة.. لن ينقذها من هذا الموقف الذي وضعها القدر فيه

سوى الموت.. الموت شيءٌ هينٌ.. هينٌ جداً.. قد يأتي في أعز أوقات احتياجنا للحياة.. وقد يأبي الوصول في شدة احتياجنا له.

لو علم أحد بوجود يهودية الأصل في أحد معسكرات المقاومة؛ لأذيعت فضيحتها على كافة محطات الوطن العربي، ولن يلتمس لها أحد أي عذر، ولن يشفع لها ماضيها في التمثيل بها.. وبغير إرادةٍ قرأت الفاتحة.. تلتها بسرعة خلال المسافة القليلة الباقية بينها وبين بيتها.. وتوقفت السيارة، واستعد " ياسر " للنزول، وهي ما زالت جامدة مثبتة في مكانها كالتمثال.. ونظر إليها " ياسر " قائلاً:

-يبدو أنك متعبٌ اليوم.. لو كنتُ أعلم هذا؛ لتركتك في المعسكر؛ لتستريح، أو كنتُ سأصطحب أحداً غيرك.

ورددت في داخلها:

-ياليت.

ثم أردف هو:

-على كلٍ ، حدث ما حدث، ولا يوجد أمامنا إلا أن نكمل المهمة.. وترجلت من السيارة.. ونظرت يميناً إلى بيتها، ودمعت عيناها، وحاولت السيطرة على الغيث الذي يكاد يهبط منهما لكنها فشلت.. نظرت إلى الحديقة التي قصفت نصف أشجارها، وشلّ النصف الآخر.. وإلى البيت الذي أصبح أثراً بعد عين.. إلى غرفتها التي تهشمت نافذتها، فأصبح البيت كله كأطلالٍ خربةٍ مهجورةٍ.. هل هذا هو البيت الذي عاشت أفضل أيامها فيه؟

جذبها " ياسر " من شرودها، وتكلم في ضيقٍ :

-هل سنقفُ طويلاً هنا؟

وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ :

-أين البيت المقصود؟

-ها هو.. وأشار إلى البيت المجاور.. المجاور لبيتها تماماً.. وكانت المفاجأة

******

ذهبت " سلمى " إلى المحطة، وأحسّت أن هناك جواً غريباً مشحوناً بالقلق، ومنذ أن سُحبت التراخيص من المحطة والجريدة التابعة لها فأصبحت الأجواء غريبة ومزرية.. منذ انتهاء الغارة، ولا يجسر أحد من الإعلاميين أو الصحفيين أن يكتب مقالاً واحداً طبقاً لتعليمات الصحافة الجديدة التي وضعتها الرقابة الإسرائيلية، فشددت على كافة الوسائل الصحفية المرئية منها والمسموعة.

وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت منذ الأمس، وانتشر جنود الاحتلال في الشوارع، وأخذت دباباتهم تتجول في الطرقات، وأقبلت " سلمى " على زميلاتها بالمحطة؛ لتقطع عليهم صمتاً ثقيلاً يخيّم على رؤوس الجميع.. وتبادلت معهم كلماتٍ قصارٍ تدل على إلقاء التحية، وتساءل حسام:

-هل سنظل جالسين هكذا؟ إننا لم نكتب تقريراً، ولم نزر موقعاً واحداً منذ أكثر من عشرين يوماً.

وأجاب آخر:

-ماذا بأيدينا أن نفعل؟ إننا ندفع ضريبة الاحتلال من وقتنا ومن شبابنا ومن نفوسنا أيضاً.

وقال أحدهم:

-ظننتُ أن " جهاد " ستعود بعد هذه الغارة.. كانت تشتعل حماساً وقوةً، وتخوض غمار التصوير وقت اندلاع الغارات دون أن تخشى على روحها، ودون أن تهاب أحداً.. ترى أين ذهبت؟

وأرهفت الأسماع عند ذكر " جهاد " وتطلعت الأبصار إلى " حسام " ولم يعرف هل هذا التطلع لإنهم يشعرون بما يكنّ لها أم هو مجرد اهتمامٍ بشخص " جهاد " المبهر وباعتباره كان من فريقها؟

وازدرد ريقه، ثم قال:

-لربما عادت، مَن يدري؟

ورد أحدهم في لهجةٍ سخريةٍ:

-لو كانت ستعود؛ لأعادتها الأحداث العظام التي مرت.

وردت " سلمى ":

-" جهاد " بطلة.. لربما وجدت شيئاً ذا قيمة أكثر من الصحافة، فقررت القيام به.

فقال أحدهم في تهكمٍ وسخرية:

-لعلها ذهبت إلى الحرب.

ورد "حسام" في تمنٍ:

-يا ليت!!

وضحك الجميع فترجل واقفاً مغادراً الجمع كله.. وقالت "سلمى":

-خيرٌ لكم الذهاب إلى بيوتكم بدلاً من التهكم على زميلٍ أو زميلةٍ.. لا الوقت ولا المكان يسمحان بذلك.. ونهضت إلى خارج الغرفة، وتبادلت بعض الكلمات القصيرة مع "حسام" ثم عادا إلى الداخل مرة أخرى، ولم تمضِ بضع دقائق حتى أخذت "سلمى" حسام" يعدانِ فريقهما للمخاطرة والنزول إلى الشارع؛ لتوثيق ما يستحق التوثيق.

وقال أحد الجالسين ناصحاً:

-لا تفعلا ذلك.. إنكما إن فعلتما ستخالفان التعليمات، وتصويركم الآن سيعد جريمة.

رد "حسام" في حسمٍ:

-لن نأبه للتعليمات.. هل سنظل كالنساء لا نفعل شيئاً، منذ صدورهذه التعليمات الجائرة ونحن بلا فائدة فهل سنظل كذلك؟

-ليس هذا وقت تحدٍ.. النفوس مشحونة، والتوتر يعم الأرجاء، ولن يدفع الثمن سوى المدنيين.

-الوطن كله سيدفع الثمن إن ظللنا هكذا.

-أنتما تلقيان بأنفسكما إلى الهاوية.

-ولكننا على حافتها، ولن تغير المقاومة من قدرنا شيئاً..

ثم قال عابساً ومحاولاً أن يغير دفة الحديث:

-على كلٍ، أعدكم أن هذا التقرير الذي سنسجله تصويراً وكتابةً سيقلب كافة الموازين.

وتساءلت "سلمى":

-هل لديك خطةٌ ما؟

والتمعت عين "حسام" قائلاً:

-نعم.. عندي خطة محكمة جداً.

وترك الغرفة وتبعته "سلمى" وتطلعت إليهم عيون قلقة حذرة، وبداخل أصحابها صوتٌ يردد:

-ليحفظكما الله.. ليتنا نملكُ نصف شجاعتكما.. بالفعل تستحقان أن تكونا في فريق "جهاد".. أو تستحق هي أن تكون ضمن فريقكما بعد غيابها غير المبرر هذا!

عبرت "سلمى" الممر شبه راكضة حتى تستطيع أن تلحق "حسام" بخطواته الواسعة، وما إن وصلته حتى هتفت:

-إلى أين سنذهب.. أنا لم أعلم وجهتنا بعد؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ثم قال:

-دعيها مفاجأة.

-لا أصبر على المفاجأت، أخبرني الآن.

-قلتُ لا.

كادت "سلمى" أن تتشبث بذراعه، وأن تمنعه من التحرك حتى يخبرها وجهتهما أولاً.. ولكنها تراجعت في اللحظة الآخيرة.. لا تدري لمَ تتحول إلى طفلةٍ صغيرةٍ بجانب "حسام"؟ لا تدري لمَ تكنّ له نفس شعور سندريلا لأمير القصر؟ إنه لم يمنحها فرصة واحدة للحصول على قلبه.. دائماً قلبه معلقٌ بجهاد، ورغم ذلك كثيراً ما حاولت أن تجمع بينهما متجاهلةً نداءاتِ قلبها ما دام هو متعلقٌ بجهاد فليسعد معها فهي لا تريد سوى سعادته.

احتل الاسرائيلون وطنها، واحتل "حسام" قلبها، واحتلت "جهاد" قلب "حسام".. الاستعمار يفرض نفسه على هذه المدينة، كل القلوب جريحة، وكل النفوس محتلة لقد نفاها "حسام" من قلبه ونفته " جهاد " من قلبها.

وهي الآن تعاني الهزيمة في كل شيء كجنديٍ فقد كل ما يخصه في الحرب حتى جثث أصدقائه لم ينجح في إلقاء نظرة أخيرة عليها.

إنها تحتاجه.. لكنها ترفضه عندما يمد لها يد العون، وتتجاهله وقلبها منتبه لكل تفاصيله، ودائماً ما تخرجه من حسابات قلبها وسرعان ما تعيده على رأس القائمة.

-في ماذا تفكرين؟

-في الحرب.

-حرب الوطن؟

-بل التي في صدري.

-ماذا بكِ؟ هل آذتكِ تعليقاتهم بالداخل؟

-لم يؤذني أحد.. لم ينجح أحد في إيذائي إلا أنا.

-ماذا؟

-لا شيء.. هيا بنا.

-بالمناسبة، ما فتأت أمي عن الحديث بشأنكِ، وبالمناسبة أيضاً لقد اختارت عريس لكِ.. ونظرت له في دهشةٍ:

-ماذا؟!!

-لا تنظري إليّ هكذا.. لقد أخبرتني أنها تكلمت معكِ بخصوص زواجكِ من قبل.. أليس كذلك؟

-نعم.

-هل تعلمين مَن هذا الذي تتمناكِ له؟

-لا.

-إنه أخي، وهي تراكِ خير زوجةٍ له.

وقالت بصوتٍ مبحوح:

-وأنت ماذا قلتَ لها؟

قلتُ لها:

-إنني لن أرى له أنسب وألطف منكِ.

توقفت في منتصف السلم وهتفت بصوت يحمل رنة البكاء:

-لقد دفعتني بكل قوتك إلى جهنم، وأنا التي لطالما بكيتُ لك شمعةً أحرقني لهبها.

-اهدئي.. اشرحي لي ماذا هناك؟

-لا شيء.. إني راحلة.

-والمهمة التي سنقوم بها؟

-غداً.. نقوم بها أو بعد غدٍ.. وابتعدت مسرعة.. وأسرع خلفها.

-"سلمى"، لم أقصد أن أقول شيئاً يُحزنكِ.. لقد خانتني الكلمات.

-لقد خانني العالم أجمع.

-ماذا فعلتُ؛ لتبكي بكل هذا الحزن.

-أبكي لأنك لم تفعل..وأكملت طريقها.

-سأطلب من أمي أن تهاتفكِ في المنزل؛ لتطمئن عليكِ.

-كما تشاء.. وابتعدت مغادرة تاركة خلفها حبيباً وخيبةً وجرحاً يأبى أن يندمل.

****

التفتت "جهاد" إلى البيت الذي أشار إليه "ياسر" وهوى قلبها على الأرض، فتوقف عقلها لبرهةٍ، ولم تعد لديها القدرة على التفكير، ولم تستطع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام، وجلست على الأرض في شبه صدمةٍ شلت كل أطرافها، وهتف "ياسر" حانقاً:

-هل جئنا بك من المعسكر؛ لتفترش الرصيف؟

-سأعود إلى السيارة إنني مريضٌ جداً.

-لن نمكث طويلاً، اكتب ما تقدر عليه حتى نستطيع أن نكون لهم ملفاً كاملاً نعود إليه في أي وقتٍ، ثم أردف في عصبيةٍ:

-وهذا أمرٌ لا مجرد طلب.. إن كنت تقدر على مخالفة الأوامر فعُد إلى المعسكر مرة ًثانيةً.

وحاولت جهاد النهوض مرة ًأخرى، وسارت تتبعهم إلى الحديقة في خطواتٍ وئيدة ومترددة، وعبرت من الباب الخارجي الذي تحطم نصفه، فلم يعُد ذا فائدة.. وتوقفت تنظر إلى البيت الذي لا زال رابضاً وإلى الحديقة التي أعلنت الاستسلام، مَن يصدق أن هذه الأطلال الخربة كانت حديقة غنّاء، وجنة مزهرة يوماً ما؟

كانت هنا أشجار الكروم تتهدّل عناقيدها، وعلى بعد أمتارٍ قليلةٍ، كانت هناك شجرة موز عجوزة تغطي أوراقها العريضة مساحة ليست هينة من الحديقة، ويفصل الحديقة الأمامية عن الخلفية هذه البئر التي هدمت جوانبها وتعكر ماؤها.. كانوا يسقون منه أشجار الليمون والزيتون والبرتقال.. لطالما ملئت هي الجرار من البئر، وكثيراً ما تسلقت تلك الأشجار واحدة واحدة.. كثيراً ما ركضت وراء زهرة وطارق.. هنا كانت الحياة جميلة، وكانت تحسّ بالطمأنينة والسلام.

تحولت ناحية البيت بمشاعر متضاربة ما بين الخوف والحنين، واتجهت إليه.. لقد حوى هذا المبنى لها السكن والعائلة، وهي اللاجئة والمشردة.. أيمكن أن تعود إليهم الآن؛ لتعينهم على الحياة من جديد؟

هل الحياة ضيقة إلى هذا الحد؟.. هل "طارق" هو المقصود بأنه على قيد سنتيمترات من الموت.. حاولت أن تطرد الفكرة من عقلها.. ربما البيوت المتهدمة والأسقف المنهارة جعلته يخطئ العنوان وتنهدت ورفعت بصرها إلى السماء في تمنٍ.

وطرق "ياسر" الباب الذي انفتح بمجرد أن وضع يده عليه، فتقدم إلى الأمام منادياً على أهل المنزل بصوتٍ عالٍ.. ومن إحدى الغرف برزت سيدةٌ خطّ الشيب رأسها، وبدأت التجاعيد في وجهها، وارتسمت الدهشة على ملامحها، وهي تسأل:

-مَن أنتم؟

ورد "ياسر":

-كيف حالكِ يا خالتي؟ إنني من طرف "طارق".. وأتيتُ هنا مرتين؛ لزيارته لعلكِ تذكرينني.

وابتسمت المرأة في مرارةٍ، وأفسحت الطريق قائلةً:

-تفضلوا.

لم يكن في لهجة المرأة من الترحيب والحماس والفرحة ما توقعه "ياسر".. كانت رنة الحزن تسيطر على صوتها.. وكانت "جهاد" تشعر أنها في شبه حُلم.. هل حقاً عاد الزمن بها؛ لترى هذه الأم مرةَ أخرى بكل هذا الحزن وهذا الانكسار؟ وأحسّت برغبةٍ عارمةٍ في احتضانها، وإخبارها بكل شيءٍ.. لقد خارت قواها، ولم تعد تستطيع المقاومة والاستمرار في كذبتها.

ونظرت "جهاد" إلى الناحية الأخرى؛ لتواري دمعةً أوشكت أن تسقط، وألقت نظرة على الردهة التي تجلس بها، وتساءلت في باطنها:

-أين العم "محمود".. أين "خالد"؟

ساد الصمت برهةً، وتكلم "ياسر":

-جئتُ للحديث معكم، ورغبة في لقاء الوالد والتخفيف عليه؛ ولأخبره أنني مثل "طارق" تماماً وبإمكانه أن يتكئ عليّ في أي وقتٍ.. إنه مثلي الأعلى في البطولة والفداء، فكثيراً ما قام بتهريب أسلحةٍ لنا عبر البحر متنكراً في زي صيّاد.. وآن الأوان أن نكرمه، وأن نرد له جميله.. وأن تمنحه المقاومة إحساناً فوق إحسانه.

لم يبدو على السيدة أنها أدركت شيئاً مما قاله، ولم تعلق بشيءٍ واستطرد "ياسر" يقول:

-لقد علمنا ما حدث لطارق، وسنعرضه بإذن الله على أكبر أطبائنا.. وسنرسل "خالد" إلى إحدى القرى النائية البعيدة عن القصف؛ لينجح في إتمام دراسته بعيدة عن هذه الأجواء المتشبعة بالقلق.

بدا التردد في عيني السيدة، ثم أطلقت تنهيدة طويلة، وقالت وكأنها تنعى خيبتها:

-خالد رحل.

وللحظة لم تفهم جهاد ماذا تقصد الأم برحيل خالد؟ وتساءلت:

-ماذا؟

فردت الأم:

-لقد رحل خالد ولم نعلم وجهته بعد.. لقد ذهب فور علمه بما حدث لطارق.

وهتفت جهاد مذهولة:

-وأين العم محمود؟.. ونظر إليها "ياسر" في تعجبٍ:

-هل تعرفه؟!

ولم تهتم "جهاد" بالإجابة عليه.. وكررت سؤالها ثانية.

-إنه يذهب كل يوم بعد صلاة الفجر؛ للبحث عن خالد.. وفي اللحظة نفسها دخل العم" محمود" محدوْدب الظهر منكسر الملامح.. ألقى السلام، وابتسامة عريضة تزين وجهه.. وضع طبق الفول الذي يحمله وأرغفة الخبز على المنضدة المجاورة.. ولم يكتف بالسلام على ياسر بل احتضنه حضناً عنيفاً ويكأنه يضم طارق إلى صدره.. لم تؤثر الظروف العصيبة في نفس العم "محمود"، ما زال كما هو مبتسماً وراضياً.. ويا لعجائب الحياة.. بلاءٌ يتبعه بلاء.. شيخٌ صابرٌ، وعجوز مكلوم، وزهرة ميتة، وابن ضائع، وسندٌ بين الحياة والموت.

مد يديه للسلام على "جهاد" فشعرت أنها في حاجةٍ لتقبيل هذه اليد التي مسحت على رأسها وآوتها ورحمتها عندما لم ترحمها الدنيا بأسرها.. واحتفظت بيد العم "محمود" بكفها دون أن تقصد فسحبها في رفقٍ وجلس يتحدث ويتساءل عن أخبار المقاومة وكأنه يتجنب ذكر ما حدث لطارق.

وبدأ العم "محمود" قائلاً:

-أحييكم على ما فعلتموه في الأيام الأخيرة.. إن العدو يمر بأيامٍ صعبة ومرهقة.. لقد فقد أكثر من مائة وخمسين قتيلاً في اشتباكاتٍ مباشرةٍ وضربٍ بالمدفعية وانفجاراتٍ وألغامٍ.

وتمتمت الأم بصوتٍ خافتٍ:

-إذا كان الأمر كذلك فلماذا حدث لنا ما حدث؟!

ورد الأبُ:

-حتى يرفع الله من درجاتنا في الجنة.

وتكلم "ياسر" بأسى:

-لقد علمتُ ما حدث لطارق وجئتُ؛ لتقديم المساعدة.

فقال العم "محمود":

-ليساعدنا الله يا بني.. لا تشغل نفسك بنا.. ما دام أمرنا في يد الله فهو لن يضيعنا.

-أعلم، ولكن هذا واجبي، ومن حق طارق عليّ أن أكرمه في أهله.. ألا توجد عندكم خادمة أو أحد للمساعدة؟

- كان هنا طباخٌ لكنه رحل فور اندلاع القصف، ولا يوجد هنا سوى أنا وهذه السيدة التي تؤنس وحدتي، وأشار مبتسماً إلى زوجته.. وضحك "ياسر" وتساءل:

-في المرات القليلة التي زرتُ بها طارق كنتُ أرى قريبة لكم هنا، ودق قلب جهاد، وهتفت الأم في عنفٍ:

-ليست قريبة لنا.. لقد آويناها، وأحببناها لكنها خانت العشرة، وأخلفت العهد، ولا أستطيع أن أفهم حتى الآن لمَ هُنّا عليها، ولمَ غادرتنا بكل هذه القسوة؟!

ورغم كل ذلك في كل مرةٍ أتخيل عودة طارق، وخالد أحلم بعودتها معهما.. إنني لم أفرقها عن أولادي قط.. إنها ابنة قلبي الذي أوجعته.. حاولت "جهاد" أن تتماسك، ولكنها فشلت، ولاحظ الجميع بكاءها، وقال الأبُ موجهاً الكلام إليها:

-أقلقناكم بمشاكلنا.

رد "ياسر": - لا تقل ذلك.. إنه متعبٌ من قبل حتى أن يأتي.. ولكن ماذا حدث لخالد؟ سمعتُ أنه قد رحل.

وتغيرت ملامح الأب، وكسا الحزن ملامحه، وشعرت " جهاد " أن قلبها يعتصر في جوفها وتمتمت الأم في أسى قائلةً:

-لم يرحم ضعفنا هو الآخر، ولم يرحم حاجاتنا له..

ولمعت صورة "خالد" في ذهن جهاد أثناء آخر لقاءٍ لهما عندما كان يحاول إقناعها بأن يذهب إلى إحدى المعسكرات، وهتفت في حماسٍ:

-إنني أعلم مكانه.. بالتأكيد في إحدى معسكرات التدريب.

ونظر إليها ياسر في تعجبٍ مرة أخرى قائلاً:

-مِن أين لك هذا؟

تلعثمت "جهاد" موجهة الكلام إلى العم "محمود" قائلةً:

-بالتأكيد هو هناك، سأبذل قصارى جهدي؛ للتأكد من ذلك.. وسنرسل أحد جنودنا؛ لنطمئنكم عليه في القريب العاجل.. فبسبب الرقابة على المصالح البريدية فلن نستطيع أن نكتب لكم ذلك.

دوّنت "جهاد" بعض المعلومات التي أشار إليها "ياسر" أن تكتبها، وبينما هي تفعل أخرج ياسر مظروفاً منتفخاً ووضعه على المنضدة المجاورة، وأحسّت "جهاد" بالرغبة في البكاء ولكنها جاهدت كي تطويه في باطنها.

أهذه هي الأسرة التي كانت تعيل الكثير من أسر الشهداء سراً؟ أيعقل الآن أن تقبل الصدقة والتبرعات؟.. ما أعجب القدر؟! وما أَصدق قول الله تعالى " وتلك الأيام نداولها بين الناس " وشعرت أنها بحاجةٍ لأن تواري دموعها التي أفلتت من عينيها رغماً عنها.. وأن تتأكد من مظهرها المستعار فطلبت الدخول إلى دورة المياه..

وأشار إليها العم "محمود" بأنها في نهاية الطريق واتجهت إليها "جهاد" وبعد أن تأكدت من مظهرها، وجدت نفسها أمام الباب الخلفي والذي يطل على الحديقة التي تربط بيتها ببيت العم "محمود" والتي كثيراً كثيراً ما صنعت ذكرياتٍ فيها.

وفتحت الباب، وخطت بضع خطواتٍ في الممر الذي يؤدي إلى حديقة بيتها تماماً.. وتعثرت بأحد فروع الأشجار، وكادت أن تقع لكنها استعادت توازنها في اللحظة الأخيرة، وجلست على الأرض مثنية قدميها تحتها.. وأتى "ياسر" من الخلف وشعر أن في الأمر خطباً ما، وليس المرض كما يدعي جنديه المفضل، وتقدم خطواتٍ قليلة، واقترب منها من الخلف، ومسّ كتفيها برفقٍ فأصابتها رجفة.. واستدارت إليه فوجد في عينيها الواسعتين الزرقاوين دمعتان قد انحدرتا حتى بللتا زاويتي شفتيها فابتلعتهما في صمتٍ، وأحسّ من دموعها الصامتة المنحدرةِ على وجهها أنها بحاجة للراحة ومغادرة المكان.

في تلك اللحظة تحديداً، كانت إحدى سيارات المحطة تقلُّ "حسام" و"سلمى" وبعض أفراد فريقهما؛ لتنفيذ خطة "حسام" في تصوير أحد المواقع التي لا تخطر على بال أحد.. وإذا بالسيارة تعبر الشارع نفسه الذي كانت تقطنُ به "جهاد" يوماً.. وأخذت "سلمى" نفساً عميقاً، وقالت:

-لكم اشتقتُ إليها؟

وتمتم "حسام" بصوتٍ خافتٍ:

-وأنا أيضاً.

واقتربت السيارة من منزل "جهاد" ولمحا إحدى السيارات المتوقفة أمام البيت، وتبادلا النظرات المتسائلة، وهدّأ السائق من سرعته بناءً على أمر "حسام" الذي نظر إلى "سلمى" دون أن ينطق لكنها فهمت مغزى نظرته، وتركا السيارة، واتجها إلى بيت العم "محمود".. وطرق "حسام" الباب، وكان اللقاء غير المتوقع.

الفصل الثاني عشر

جهــاد

غادرت "جهاد" المنزل، وقهر الدنيا كلها يجتمع في صدرها، واتجهت إلى مشفى "الجلاء التخصصي" الذي يقطنُ به "طارق"، وتوقفت أمام زجاج الغرفة الخاصة به.. وظلت تنظر إلى جسده الممدد على الفراش في ضعفٍ ووهنٍ.. حدقت بملامح وجهه المستكين فتساقطت العبرات على وجنتيها.. ظلت تراقبُ الأجهزة الموجودة بالغرفةِ، ثم أتت إحدى الممرضات وتساءلت:

-هل تعرفه يا سيدي؟

وبسرعةٍ مسحت "جهاد" دموعها، ثم هتفت:

-تقريباً.

فقالت الممرضة:

-لفت نظري الزي الذي ترتديه.. إنه يدل على أنك ضابطٌ بإحدى فرق المقاومة الفلسطينية.. لذلك جئتُ للحديث معك في أمر المقاومة والجهاد.

ورفعت "جهاد" كتفيها في عدمِ فهمٍ، وأتبعت الممرضة:

-هذا المريض استفاق من غيبوبته مرةً واحدةً، ونطق خلال إفاقته كلمات متشابكة، لم نفهم منها شيئاً سوى كلمة " جهاد " أو " الجهاد ".. ولم تنجح "جهاد" في السيطرة على دموعها وتساءلت:

-هل معنى هذا أنه من الممكن أن يفيق من غيبوبته، وأن تعود إليه ذاكرته قريباً؟

-ها هو الطبيب المختص يا سيدي، يمكنك أن تستفسر عن حالته.

وطرقت "جهاد" باب الغرفة الذي أشارت إليه الممرضة، ورحب بها الطبيب، ودار الحديث بطيئاً مملاً عما يدور في المنطقة من حربٍ وإرهابٍ، وتحدث الطبيب عن أداء المتطوعين في الجيش مراراً وتكراراً، وأخيراً، انتهزت "جهاد" فرصة ابتلاعه لشربة ماء؛ لتبدأ هي بالحديث عن حالة المدعو " طارق محمود دراز ".. وزوى الطبيب ما بين حاجبيه متسائلاً:

-صديقك.. أليس كذلك؟

-شيءٌ من هذا القبيل.

-إن حالته جدٌّ خطيرة، فلقد كان تهدم المبنى فوق رأسه كفيلاً بأن يكون الآن في عداد الشهداء.. لكن الله قدر له الحياة، لكن العجيب رغم أن عقله بالكامل قد سقط في فوهة الغيبوبة إلا إنه هناك حدثٌا لا زال يتربع فوق عرش ذاكرته غير مبالٍ بطبيعة مرضه، وهذا في حد ذاته شيءٌ استثنائيٌ لم نره في كل الحالات التي مرت علينا.. إذا دخل الجسم كله في غيبوبة فقد العقل الإدراك بأكمله وطارق فقد وعيه بالكامل إلا شيئاً ما، ونحن لم نفهم كلماته المتشتتة، وحروفه المتقطعة التي نطق بها أثناء غيبوبته، ولم ندرك منها سوى كلمة " جهاد ".

وعندما نطق هذه الكلمة، ازدادت ضربات القلب، وارتفع ضغط الدم، وزاد أزيز الأجهزة، وهذا إن دل على شيءٍ فإنه يدل على أن هناك في الأمر خطباً ما.

تساءلت" جهاد":

-هل من الممكن أن يعود إلى الإدراك مرةً ثانيةً؟

-الطب مهما بلغ من تطور، لا يستطيع أن يحدد قدرة المريض عل العودة إلى الإدراك في مثل هذه الحالات، ولذلك وضعناه تحت المراقبة الشديدة حتى نستطيع أن نميز ما سينطق به ثانيةً.

-وما الفائدة من ذلك؟

-هو ليس فاقداً للذاكرة، لكن عقله متوقفٌ ما عدا جزء صغير، هذا الجزء تكلم عنه أثناء غيبوبته وهذا إن دل على شيءٍ فإنه يدل على قوة وسيطرة هذا الجزء على بقايا عقله، ولذلك نحن أبلغنا والده أننا بحاجةٍ؛ لمعرفة إذا كان لطارق تاريخٌ في الجهاد ضد اليهود أو أن اسم "جهاد" هذا يخص أحد معارفه.

-لمَ؟

-لأننا وإن نجحنا في الوصول لصاحب الاسم سندخله إلى "طارق" مباشرة؛ ليتحدث معه ويكلمه، وسينجح هذا الجزء الصغير من عقله في تمييز صاحب الصوت، وتمييز كلماته، وحينها قد ينجح العقل بأكمله في مغادرة الغيبوبة، والعودة إلى الواقع.. وللأسف هذا احتمالٌ ضعيفٌ، ولكنه آخر ما تبقى لنا من محاولاتٍ؛ لإنعاش عقله الذي يغرق في سباتٍ تامٍ.

-وماذا كان رد العم "محمود"؟

-قال إنه لا يعرف أحداً بهذا الاسم!.. لذا نحن بحاجةٍ لمعرفة أصدقاء "طارق" واحداً واحداً حتى نستعينَ بهم في معرفة هذا الشخص الذي لم يبالِ ذهنُ "طارق" بانهيار مبنى كاملٍ عليه كمبالاته بصاحب هذا الاسم.

ونظرت "جهاد" إلى الأرض، ولم تدرِ ماذا تفعل؟.. هل من الواجب عليها أن تقوم على الفور لزيارة "طارق" وفعل ما يطلبه الطبيب منها ولئن نجحت في ذلك فستكون قد ردت ولو شيئاً بسيئطاً من جميل هذه الأسرة عليها.. وإن لم تنجح هذه الطريقة فهي قد فعلت كل ما يمكنها فعله تجاه "طارق" حتى يفيق من غيبوبته، لكن ماذا إن استفاق "طارق"، وأخبر الجميع بحقيقتها وبأصلها اليهودي.. وضعها الآن لم يعد كالسابق إنها من أكفأ الضباط الموجودين على الساحة، ولو علم أحد بماضيها اليهودي فلن يتورعوا عن إعدامها في إحدى الميادين العامة.. خيرٌ لها أن تعود إلى المعسكر، وليفعل الله ما يريد.

وقفت جهاد، واعتذرت من الطبيب، وأخبرته أنها ستعود للاطمئنان على "طارق" ولن تدخر مجهوداً أو تعباً في البحث عن صاحب الاسم الذي تلفظ به "طارق".. وتساءلت:

-إذا لم نعثر على "جهاد"، ماذا سيحدث؟

ورد الطبيب بأسى:

-سنودعه قريباً.. إن جسده يموت قطعة قطعة، وأعضاؤه تتوقفُ عضواً عضواً، إنه أقرب إلى الموت من الحياة.. وارتجف جسدها وغادرت على الفور.

******

وسمح "ياسر" لجنديه بالرحيل، والعودة إلى المعسكر مرةً أخرى، وعاد إلى الردهة عبر الباب الخلفي مكملاً الحوار.. وطرق الباب، وذهب العم "محمود" كي يفتحه، وتناهى لمسامع "ياسر" صوت كلامٍ متبادلٍ وترحيبٍ حارٍ، وسمع وقع خطواتٍ تقترب، وعرف أن بعض الزوار قد حضروا، وعليه أن يكتفي بما حدث في هذا اللقاء حتى لا يوقع الرجل في مزيد من الحرج.

ووقف كي يعتذر من العم "محمود"؛ لينهي اللقاء ولكنه تفاجأ بأن الزائر لم يكن سوى السيد "حسام" أهم إعلامي موجودٍ على الساحة الآن، والسيدة "سلمى الحسيني" وتبادل عناقاً حاراً مع "حسام".. وبعض عبارات التحية مع "سلمى".. ووقف "حسام" بالمنتصف موجهاً الكلام إلى "سلمى" قائلاً:

-لعلكِ لا تعرفين السيد "ياسر الصاوي"، إنه قائد إحدى المعسكرات التدريبية، وقبل ذلك هو أخي الوحيد!

وتلعثمت "سلمى" واستقرت الدماء بوجهها، وجلس الثلاثة من جديد، وبدأ الحديث المعروف، والذي لا يخلو من عبارات الترحيب والسؤال عن الحال.. وجلست "سلمى" بجاب الأم، والتي بكت بمجرد رؤيتها وربتت على كتفها قائلة:

-إن "جهاد" طيبة، وترعرعت بمنزل أناسه طيبون، وبالتأكيد هناك حائلٌ يحول بينها وبين العودة.. إنها لا تعرف لنفسها أهلاً غيركم يا خالتي، ولن تصبر على فراقكم.

قالت الأم:

-إنني أشعر أني رأيت جهاد بمجرد رؤيتك يا ابنتي.

ابتسمت "سلمى" في مرارةٍ.. وتكلم "حسام" قائلاً:

-إنني لم أقدر على العبور من هذا الشارع دون أن نزوركم؛ للاطمئنان عليكم.

وقال العم "محمود" وابتسامة مريرة على شفتيه، وكأنه لا يصدق ما ينطق به:

-ما زالت الدنيا بخير!

وربت "ياسر" على كتفه مجدداً قائلاً:

-كلنا بخير.. طارق بخير.. وخالد بخير.

وأردفت "سلمى":

-وجهاد كذلك.

وقال "حسام" موجهاً الحديث لياسر:

-هل تصدق أنني كنتُ ذاهباً إلى المعسكر الآن؟

ورد "ياسر" في دهشٍ:

-حقاً!!!

وقالت "سلمى":

-بالفعل لم يخطر على عقلي أبداً أن التصوير سيكون هناك.

وقال "حسام":

-لابد أن يكون لنا لقاءٌ مع الجنود؛ ليحدثونا عن قوتهم وشجاعتهم.. عن انتظارهم للموت في كل دقيقة.. عن تحملِ غربتهم عن أهليهم تاركين خلفهم أمهات ثكالى وزوجات وأولاد.. لابد أن نعرف كيف يأكلون وينامون ويشربون.. وكيف يخوضون الحرب وكأنهم يندفعون إلى نزهةٍ لابد من تكرارها كل صباحٍ؟

وهزت "سلمى" رأسها في إعجابٍ، ورفعت الأم كفها إلى السماء داعيةً أن ينصر الله الوطن، وأن يخلصه من هؤلاء الأنجاس.. أولئك الذين رمّلوا النساء، ويتموا الأبناء، وهدموا المساكن، ودنّسوا المساجد، وشردوا شعباً بأكمله.

وترجل الجميع، وأوصلهم العم "محمود" وزوجته إلى الباب.. واحتضنت "سلمى" وأخبرتها أنها ستنتظر زيارتها قريباً.. واستقلوا السيارة، واتجهت العربتان إلى المعسكر.

وأخيراً، توقفت السيارتان أمام أحد الأبنية العريضة الموجودة بالصحراء، وتقدم أحد جنود حراسة المدخل الخارجي إلى السيارة حتى يفتح الباب لياسر، والذي هتف به قائلاً:

-أبلغ الضابط "جهاد" أن يأتيني في مكتبي على الفور فلديّ زوارٌ أعزاء.

ووقفت "سلمى" تنظر إلى المبنى الكبير الرابض في منتصف الصحراء، وتحدث ياسر قائلاً:

-معذرة المكان لا يليق بكما.. لكننا في حالة حربٍ كما تعلمون.

هزت "سلمى" رأسها قائلةً:

-على العكس تماماً، لم أتوقع أنه سيكون بهذا الحجم، وبهذا التنظيم.

-أنتِ لم تري شيئاً بعد، إنه مقسّم إلى عدة وحدات ومراكز.. الأطباء في ناحية، والمتدربون الجدد في ناحية، والضباط ومهندسي الصيانة في ناحيةٍ أخرى.. إننا نحاول أن نفعل شيئاً قدر استطاعتنا حتى لا تدعو علينا الأجيال القادمة وحتى لا يقال:

-"أضاع القدماء القدس ".. لن يرحمنا التاريخ سيذكر أننا أضعنا القدس بعدما أعادها لنا "صلاح الدين" و "قطز"، ومن قبل "عمر بن الخطاب"" رضي الله عنه".. إن ضاعت في عهدنا فنحن أسوأ رجالٍ أتت بهم البشرية.. واتجه إلى الداخل يتبعه حسام وسلمى.

****

خرجت "جهاد" من حجرة الطبيب، ونظرت إلى الطفلة الواقفة أمام حجرة "طارق" نظرةً فاحصةً، واقتربت منها؛ لعلها تسمع ما تهمس به، وسمعتها تتحدث بصوتٍ يملؤه الأنين:

-اصمد يا أبي.. تحدّ المرض من أجلي، إذا أصابك مكروهٌ فمَن سيبني لنا الملجأ من جديد؟.. لقد هدمه اليهود بعدما قتلوا كل مَن فيه.. مَن سيذهبُ بنا إلى المتنزهات؟ ومَن سيخبرنا أننا الجيل الذي سيحرر هذا الوطن؟.. وبكت الطفلة مرردة:

-مَن سيكون أباً للأيتام من بعدك؟.. من فضلك، أكمل المشوار حتى نهايته.. مسحت دموعها بطرف ثيابها وأكملت:

-كلما أتيتُ إلى هنا، عدتُ إلى الشارع بيتمٍ أكبر، وبفقدٍ أصعب.. لقد مات الجميع في القصف وبقيتُ أنا وحيدة.. لقد رحلت "فاطمة وآيات وبسمة " لقد رحل " إياد وعاصم وعمر" وجلستُ أبكيهم وحدي حتى أنت ما عدتَ هنا.. لا أعلم لمَ تخليتم عني وتركتموني بمفردي؟

وفتحت ورقة كانت تطبق عليها بيديها الصغيرتين، ونظرت إلى الراقد خلف الزجاج قائلةً:

-" لقد كتبتُ لك كل شيءٍ لكي تقرأه عندما تستفيق.. لقد كتبتُ لك كل ما حدث منذ أن غبتَ عني حتى هذا الجرح الذي أصاب قدمي وأنا أبحث عن "جهاد".. لقد أخبرني الطبيب أنك بحاجةٍ إليها.. وقابلتُ الكثيرين ممن يحملون هذا الاسم، لكنهم لا يعرفونك.. عجباً كيف لا يعلمون مَن هو بابا طارق؟! لكنني سأبحث مرة ثانية حتى أجد صاحب هذا الاسم، فأنا بحاجةٍ إليك، وبحاجةٍ للحديث معك، وبحاجةٍ لاحتضانك، لكن يحول بيننا هذا الزجاج، وهذه الأسلاك التي تلامس جسدك وتصلك بالحياة.. هل تصدق أنني أشعر بأنك تسمعني وتحسُّ بي؟ لقد كتبتُ لك كيف مات إياد وآيات وعاصم؟ لقد قصفتهم الطائرات وهم يلعبون الكرة، وفي اليوم التالي خرجتُ للبحث عن "جهاد" وعندما عدتُ وجدت الملجأ قد هُدم، ومات كل مَن كان به.. حفرتُ الأنقاض بيدي علني أستطيع أن أنقذ أحداً مع فرق الإنقاذ، ولم أنجح سوى في إنقاذ دميتي التي أهديتني إياها يوم أن ذهبتَ بنا إلى المتنزهات.. وحكيتُ لك أيضاً قصة والدتي التي قدمها اليهود طعاماً لكلابهم في الشارع أمام الجميع، ولم يجرأ أحد على إنقاذها.. ندمتُ لأنك طلبتَ مني؛ أن أحكي لك كيف ماتت أمي، لكنني كنتُ أرفض في كل مرةٍ.. عد مرة ثانيةً، وأعدك أنني سأحكي لك كل ما تريد.. سأحكي لك عن حجاب جدتي الأبيض الذي علقته على بيتنا يوماً ما حتى يرى الصهاينة الراية البيضاء على منزلنا فيريحونا من القصف لكن في الأخير قصف المنزل، ورحل أبي وجدتي وأختي الوحيدة.. عُد وسأحكي لك كل ما طلبتَ مني حكايته لك.. ها أنا أطلبُ منك أن تسمعني لكنك ترفض.. هذا خطابي التاسع لك سأضعه في يد الممرضة، وسأطلبُ منها أن تضعه تحت وسادتك علّك تقرأه يوماً ما ".

سأرحل أنا الآن وسأعود إلى الشارع بحثاً عن "جهاد" ولكنني سأرحل للمرة التاسعة، وأنا أحملُ خيبيتي وخذلاني وأحلامي المنكسرة، فهلاّ رفقت بي وعدت للحياة مرةً أخرى؛ لتصلح أحلامي المعطوبة؛ ولتشرق شمسي الغائبة منذ مرضك.

ذهبت الصغيرة إلى حجرة الممرضات.. قبّلتها إحداهن، ثم وضعت الطفلة في يدها ورقة ما، وانصرفت مسرعةً تتبعها "جهاد" ورأتها تقفُ أمام المشفى تحملُ لوحةً كبيرة بين يديها المرفوعتين كُتب عليها بخطٍ صغيرٍ أعرج

" هل اسمك "جهاد"؟.. أريد الحديث معك لدقائق "

نظرت "جهاد" إليها طويلاً من خلف دموعها.. خطت بضع خطواتٍ قصيرةٍ، وأشارت إلى أول عربةٍ تاكسي مرت بهم.. أملت السائق طريق المعسكر، وجلست في المقعد الخلفي تجاهد حبل أفكارها الذي يلتفُّ حول عنقها خانقاً إياها.

وصلت السيارة إلى المعسكر، وترجلت منها وسارت باتجاه الباب الخارجي.. أوقفها أحد الجنود وأخبرها أن القائد ينتظر وصولها منذ نصف ساعةٍ، فلديه ضيوفٌ على قدرٍ من الأهمية.. واتجهت "جهاد" إلى الداخل بخطىً واسعةٍ، وأتاها صوت "ياسر" من بعيد هاتفاً بحنقٍ:

-أين الضابط "جهاد"؟ من المفترض أنه هنا منذ ساعةٍ ونصف.

وانعطفت "جهاد" ناحية مكتبه، وتوقفت على بُعد أمتارٍ منه عندما لمحت الموجودين بالداخل من النافذة، وعادت قليلاً بظهرها إلى الوراء فاصطدمت بعبدالرحمن والذي هتف بتعجبٍ:

-ما الذي تفعله يا "جهاد"؟ ولماذا تمشي بظهرك هكذا؟

وحاولت "جهاد" أن تعتذر لكن مفاجأة الموجودين بالمكتب قد ألجمت لسانها، واتجهت مسرعةً نحو غرفتها وهتف بها "عبدالرحمن" قائلاً:

-"جهاد"، انتظر.. كنتُ أودُّ الحديث معك في شيءٍ هام.

وقالت "جهاد" دون أن تنظر إليه:

-نتحدثُ فيه غداً.

وخرج "ياسر" على صوتِ الجلبة وسأل "عبدالرحمن":

-ما كل هذه الضوضاء؟ ومع مَن هذا الصياح؟

-الضابط "جهاد".

-أحضره إليَّ فوراً.

وجاءت "جهاد" ونظرت إلى الغرفة نظرةً خائفةً قبل أن تسأل:

-ماذا هناك سيد "ياسر"؟

-بعض الصحفيين هنا سيساعدوننا في أشياءَ كثيرةٍ.. سنقوم بتدشين حملةٍ صحفية مكبرةٍ ضد إسرائيل، وسنحاول من خلالها لفت أنظار الشباب إلى معسكرات التدريب.. وقبل أن يُكمل هتفت جهاد:

-لكن حالتي ليست على ما يرام.. ولا أستطيع الحديث في شيءٍ اليوم.

نظر إليها "ياسر" في شكٍ، ورفع أحد حاجبيه ثم هتف قائلاً:

-أين كنتَ طوال هذا الوقت؟!

تلعثمت "جهاد" ولم تدرِ بماذا تجيب؟ وكان صدرها يعلو ويهبط بشكلٍ ملحوظٍ فتوقفت عن الحديث.. وصمت "ياسر" وشعر "عبدالرحمن" أن هناك خطباً ما.. وحاول أن يضفي المزاح على هذا الحوار الثقيل فقال مازحاً:

-لعل الضابط "جهاد" متزوجٌ ونحن لا ندري.. لعله افتقد زوجته فذهب؛ ليسري عن نفسه.

وقال "ياسر" باقتضابٍ موجهاً الكلام إلى "جهاد":

-اذهب إلى غرفة التحقيق.. بمجرد أن أنتهي من مقابلة الصحفيين سيتم التحقيق معك، وعاد مسرعاً إلى مكتبه.. واتجهت "جهاد" إلى غرفتها وتبعها "عبدالرحمن" قائلاً:

-"جهاد"، أعلم أن الوقت ليس ملائماً لكني أريد الحديث معك.. هناك شيءٌ هامٌ للغاية.

-سأبدل ملابسي، وآتي إلى غرفة التحقيق حتى لا أخالف الأوامر.. انتظرني هناك، لكني لا أحتمل الانتظار ولو لخمس دقائق.

التفتت إليه في دهشةٍ، وقبل أن تنطق، وجدت ملامحه مشدودة، وعينيه تملؤها الدموع، وينظر إليها نظرة متوسلة.. سارت باتجاهه، واتجها نحو غرفة التحقيق.

ألقى "عبدالرحمن" التحية على الجندي القابع خلف المكتب، وجلس في مواجهتها خلف الطاولة الآخرى، ولم تنفرج شفتاه عن شيءٍ سوى عن ضحكةٍ عصبيةٍ قصيرةٍ أتبعها بقوله:

-آسف على ما سببته لك من متاعب.. أعلم أن ظروفك الآن لا تحتمل.

قاطعته جهاد قائلةً:

-ماذا هناك؟

-أشعر وكأن هناك مصيبة على وشك الحدوث.

تنهدت جهاد بعنفٍ، وهتفت:

-هل كل هذه البلبلة؛ لتحدثني عن شعورك؟!

-وماذا في ذلك؟ إن لم أتحدث عن شعوري السخيف مع صديقي المقرب فمع مَن سأستمتع بسخافتي وتفاهتي؟ثم أتبع:

- الحياة الرتيبة العاقلة طوال الوقت لا تطاق.

-هل هناك شيءٌ؟

قال "عبدالرحمن" حانقاً:

-لا شيءَ محدد.

-ألم تستطع أن تصبر كي نتحدث في اللاشيء هذا لاحقاً؟

-اسمعني أرجوك.. سأحكي لك من البداية.....

-يتملكني إحساسٌ بأن مصيبة كبرى قد أوشكت على الحدوث فاضطررتُ لأن نجلس هذه الجلسة؛ لإخبارك أن هناك كارثة.. ومع ذلك طلبتُ منك الإصغاء إليَّ للحديثِ عما هو أهم.. تنهد بعمق وأسند ظهره إلى الوراء ثم قال:

-يراودني كابوسٌ واحدٌ منذ ثلاثةِ أيامٍ.

وأسندت "جهاد" ذراعيها على الطاولة، وتملكها الاهتمام قائلةً:

-كابوسٌ واحد كيف هذا؟!

-أقصد أن هناك حلماً واحداً تكرر ثلاث مراتٍ على طوال الثلاث ليالٍ الفائتة.

-ما هو؟

-رأيتُ في منامي أن الضابط الصهيوني الذي حدثتك عنه مسبقاً ذاك الذي زارنا في منزلنا مرتين، وكان السببُ في أن أفعل ما فعلتُ.. رأيته وقد أمسك بسكينٍ فغرسه في قلب أمي لكنها أطلقت زغرودة بدلاً من أن تبكي.. فجنّ جنونه، ونزع سكينه من قلب أمي فغرسه في صدر ليلى، لكنها زغردت أيضاً فأخرجه من بين ضلوعها ووضعه في قلب آسيا فبكت!

زوت "جهاد" ما بين حاجبيها، وهتفت:

-مَن آسيا؟

-سأحدثك عنها وما طلبتُ الحديث معك إلا من أجلها.. تكرر هذا الحلم ثلاث مرات كما أخبرتك، وفي كل ليلةٍ كنتُ أستيقظ مذعوراً عند صراخ وبكاء آسيا، فشعرتُ أنني مقبلٌ على الموت، وأن الله سيتوب عليّ، ويصطفيني من الشهداء، وستسعد أمي وأختي بذلك لكن آسيا ستشقى به.. آسيا هذه إحدى فتيات الحي، كنتُ أحلمُ دائماً بالزواج منها والاستقرار معها، وإنجاب جيلٍ لا يحمل من بؤسنا وتعاستنا شيئاً.. لكن ظروفي البائسة، والتي تعلمها حرمتني من نعمة الزواج أو حتى من التفكير به، أو التخطيط له.. وآثرتُ الإحجام عن التفكير بها، أو إدراجها ضمن أحلامي المستحيلة.

وذات يومٍ هُدم منزلهم على رأس ساكنيه، ونجت هي من الموت؛ لوجودها خارج المنزل ذاك الوقت، وبعد موارة جثث أهلها التراب، عادت "آسيا" إلى المنزل، ورغم توشحها بالسواد ودموعها المنهمرة، بدأت في تشييد المنزل بنفسها من جديدٍ،

حجرةً حجرةً، وأعجب الجميع بها، وبصلابتها غير المعهودة، والتفتت الأنظار إليها وتوقف عن الهجرة الذين هُدمت بيوتهم، وبدأوا في تشييدها من جديد كما فعلت هي.. ولم تفلح إنذارات الإسرائيليين في تهجير أهل الحي بعد ذلك.

وذات يومٍ طلب أحد شباب الحي خطبتها والزواج منها حتى لا تواجه الحياة وحدها، فما كان منها إلا أن زارت أختي "ليلى" وقالت لها:

-إنها ستنتظرني ولو طوال العمر.

ووضعتُ بين شقي الرحى ولم أدرِ ماذا أفعل إن وافقتها على قرارها أضعتُ عليها عمرها وشبابها، فأنا لم أنجح في تزويج أختي فكيف سأنجح في الزواج منها.

وبعد طول تفكيرٍ قلتُ لليلى:

-أخبريها أنني لا أفكر بالزواج مطلقاً، وأنني سأهبُ حياتي من أجل تحرير الأرض، وأنني لم أر زوجاً لها أفضل من هذا الذي تقدم لخطبتها.. وذبحتها بذات الخنجر الذي ذبحتُ نفسي به.

وبعد يومين تفاجأتُ بأنها رفضت الخطبة، وبعد ذلك كنتُ أسمع عن رفضها لكل مَن طلبها للزواج قائلةً:

-لقد وهبتُ نفسي من أجل تحرير الأرض!

فرك أصابعه، ثم وضع إحدى يديه تحت ذقنه قائلاً بعصبيةٍ:

-عدني إن أصابني مكروه أن تذهب لأمي وتواسيها، وأن تخبرها أنني لم أرد من هذه الدنيا إلا رضاها.......... .

وطُرق الباب ودخل منه "ياسر" دون أن يتلقى الإذن بالدخول، ونظر "عبدالرحمن" إلى "جهاد" نظرة شفقةٍ وتساءل:

-هل رحل الصحفيون يا سيدي؟

-لقد ذهبوا إلى جناح الأطباء.. سيقضون اليوم هناك، وينزلون الليلة عند جناح الضباط، وسيبدؤون في التصوير من الغد..فقد يستغرق تصويرهم عدة أيامٍ.

ودق قلب "جهاد" في عنفٍ ونظر إليها "عبدالرحمن" كأنه يواسيها، ودون أن ينطق اتجه ناحية الباب مغادراً، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى فتحه مرةً ثانيةً، وقال بانفعالٍ موجهاً الكلام إلى ياسر:

-إن كان هناك مَن يستحق التحقيق فأنا أولى به.. أنا الوحيد الخائن هنا.. مهما فعل جهاد ومهما خالف من أوامر فلن يتخطى جرمه ما ارتكبته أنا، ودون أن يتلقى رداً، أغلق الباب.

وبعد ثوانٍ دخل أحد ضباط التحقيق، وجلس إلى جانب "ياسر" الذي بدأ بتجهيز الأوراق التي سيخط عليها كل دفوع جهاد.. وأمسك بالقلم وأعطاه للضابط الذي يرافقه.

وفجأةً ارتفعت أصوات الجنود، وصراخ الممرضات، وجاء أحد العساكر يهتفُ بصوتٍ عالٍ:

-" أدركونا هناك خائنٌ بيننا.. خائنٌ تأويه جدران المعسكر".

ونظر "ياسر" إلى جهاد قائلاً بعصبيةٍ:

-اترك أمر التحقيق لوقتٍ آخر.. اتبعني؛ لنرى ماذا هناك؟

تحاملت "جهاد" على نفسها وحاولت أن تقف لكن شعورها بأن "حسام وسلمى" قد اكتشفا حقيقتها كان السبب في أن تخار قواها، وأن تخونها قدماها فلم تستطع الوقوف.. ونظر إليها "ياسر" متعجباً قائلاً في صدمةٍ وذهولٍ :

-هل يقصدونك بالخائن؟!

وفُتح الباب، واندفع منه الضباط واحداً يلي الآخر.. ونظرت "جهاد" في وجوه جميع المتوافدين إلى الغرفة في انتظار دخول "سلمى وحسام"، لابد أن تحتضن "سلمى" ولابد أن تلقي نظرةً أخيرةً على وجوههم البريئة، حتى وإن كانا سبباً في إلحاق العار بها وتوجيه اتهاماً باطلاً لها.

الفصل الثالث عشر

رائحة فقد

-آلو.. "إيلان إيرائيل" مَن المتحدث؟

-"إيلان".. هلاّ أتيت إلى شقتي؟ أريد الحديث معك في أمرٍ ما.

-مرحباً" ألبرت"، لكن ماذا هناك؟

-هناك أمرٌ هامٌ جداً، وددتُ الحديث معك بشأنه.

-إذن تعالى إلى هنا، ولنتحدث في مكتبي أو مكتبك.

-لا أريد الحديث في المكتب الأمر لا يتعلق بالعمل بتاتاً.

ورد" إيلان" مازحاً:

-لعله يتعلق بالزواج إذن.

قهقه "ألبرت" بصوتٍ عالٍ ثم هتف:

-لم أخطئ حين اتخذتُ منك صديقاً.. لم أجد شخصاً آخر يفهمني مثلك.

-الأمر صحيحٌ إذن؟

-مائة بالمائة.

-يا له من خبرٍ سارٍ، كنتُ في أشد الحاجة لمثله.. انتظرني، سآتي إليك بعد دقائق.

-سأنتظر لكن لا تنسى أن "جان" آتٍ هو الآخر.

-أوه، يا له من مأزق.. هل وجود هذا الجان ضروريٌ إلى هذا الحد؟

-لا تكن سخيفاً.. أنا في انتظارك.

وضع "إيلان" الساعة، وعدّل قليلاً من رابطة عنقه.. هبط درجات السلم في سرعةٍ وصفيرٌ خافتٌ يصدر من بين شفتيه.. استقل سيارته، واتجه صوب شقة "ألبرت".

دق جرس الباب، ولم تمضِ بضع دقائق حتى فتح "ألبرت" الباب، وتبادلا عناقاً حاراً، وقال "ألبرت" بصوتٍ خافتٍ:

-كن لبقاً قدر استطاعتك، فجان بالداخل، ولا أريد أن يتحول خبر زفافي إلى عراكٍ بين ضابطين من أكفأ ضباط الموساد.

-هكذا إذن.. واضح أنك وجدت الفتاة المناسبة، والتي قلبت حياتك رأساً على عقب.. لم أرك متحمساً لفعل شيءٍ ما كحماسك الآن.

- هل سنظل نتحدث هنا؟ هيا إلى الداخل.

ألقى "إيلان" تحيةً مقتضبةً على "جان".. وردها "جان" بنفس الاقتضاب.. وبعد دقائق، جاءت الخادمة، ووضعت كأسين من الخمر، وقالت:

-سيدي قادمٌ بعد دقائق.

وجاء "ألبرت"، وبدأ الحديث:

-تعلمانِ جيداً أنني أتيتُ بكما إلى هنا؛ لإخباركما بأمر زواجي، وهذا الخبر على قدر أهميته هناك ما هو أهم منه، ولكنني آثرتُ إخباركما بأمر زواجي أولاً حتى لا يضفي سوء الخبر الثاني على أمر زفافي جو من الكآبة، وقال "جان" بعصبيةٍ:

-تحدث يا "ألبرت".. ماذا هناك؟

-دعنا ننتهي من موضوع الزواج أولاً.

وتحدث "إيلان":

-أعتقد أننا بالفعل قد انتهينا منه.

-ليس بعد.. لم أخبركما مَن تكون العروس؟

وتحدث "جان" قائلاً:

-لا أعتقد أن هذا الأمر ذا أهميةٍ عند ضابطي مخابرات إلا إذا كانت العروس خائنة.

قال "ألبرت" ساخراً:

-ليست خائنة، لكنني بمساعدتكما سأجعل منها كذلك.

-أنت غامضٌ أكثرُ من اللازم.. مَن تكون العروس؟ تحدث بوضوح.. قال "إيلان".

ولم يكد "ألبرت" ينطق باسمها حتى هب "إيلان" واقفاً وكأن حيةً لدغته، وهتف في عصبيةٍ:

-أنت تمزح أليس كذلك؟.. لابد أنك تهذي!

****

أحسّ "ياسر" أن الأمر سيزداد سوءاً، وأن الفوضى ستعمّ المعسكر إن ازداد تدافع الجميع أكثر من ذلك.. وسيعمّ الهرج، ولن يستطيع السيطرة على المعسكر ككل، ثم إن وجود خائنٍ بالمعسكر للمرة الثانية سيكون له أبلغ الأثر السلبي في نفوس الجنود وخاصةً إن كان هذا الخائن هو جنديه المقرب.. وأصدر الأوامر بأن يعود كل جنديٍ إلى مكانه وإلا سيحاسب مَن يخالف الأمر وذنبه على عنقه.. لكن الغرفة كانت قد امتلأت

عن آخرها، وهدوء "جهاد" والخوف الذي يلوح على ملامحها قد وجّه كل الأنظار حولها.

وتدافع الصحفيون إلى داخل الغرفة، وثبتت "جهاد" نظرها على "سلمى وحسام" وحاولت أن تتمالك نفسها، وأن تجاهد البكاء الذي سيشطر قلبها نصفين.. ودخل أحد عمال النظافة إلى الغرفة، وهو يهتفُ:

-هذه هي الورقة التي وجدتها على فراش السيد "جهاد" يا سيدي.. إنني في حالة صدمة لا أكاد أصدق.

ولم تدرِ "جهاد" عن أي ورقةٍ يتحدثون؟ أيعقل أن يكون ما حدث ليس له علاقة "بسلمى وحسام"؟ ولم يُفلح عقلها المجهد في فهم ما يجري حولها، ولم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك، فأجهشت بالبكاء.. وتقدمت إليها "سلمى" وطبعت قبلة على جبينها، وهتفت بصوتٍ خافتٍ:

-لا تخشي شيئاً.

نظرت إليها "جهاد" في ذهولٍ .. وابتسمت "سلمى" برغم دموعها، وهي تقول:

-مَن سيحسّ بكِ غير صديقتكِ؟

تكلم "حسام" حانقاً:

-"سلمى" .. ما هذا الذي تفعلينه؟ كفي عن هذا العبث.

لكنها لم تعره اهتماماً، وتقدمت إلى "ياسر" وطلبت منه أن يغادر الجميع الغرفة، وأن يسمح لها بالجلوس مع الضابط "جهاد" لدقائق.

وتساءل ياسر في عدم فهمٍ:

-ماذا هناك؟

-من فضلك.. اسمح لي بما طلبته منك.

وأمر "ياسر" الجميع بالخروج، ولم يتبق سوى "سلمى وجهاد"، والتي بمجرد أن خرج الجميع ارتمت في أحضان "سلمى"، وتلقتها "سلمى" بين ذراعيها تضمها في لهفةٍ ضمة أمٍ لوليدها، وتتحسس رأسها، وكأنها لا تصدق أنها لا زالت على قيد الحياة، وبكت "جهاد" وكأنها تبث "سلمى" كل آلامها.. ظلت "سلمى" تربت على كتفها بهدوءٍ، وأخذت تمتمُ والدموع في عينيها:

-لماذا ابتعدتِ عنا؟.. كيف هُنّا عليكِ؟!

وشعرت "جهاد" أن "سلمى" لم تفهم شيئاً مما تفوه به "طارق"، وأن "سلمى وحسام" لا زالا يجهلان أمرها.. وفُتح الباب فجأة، ودخل منه "ياسر" وتفاجأ بتواجد "جهاد" بين أحضان "سلمى" فهتف مأخوذاً:

-ما الذي يحدث هنا؟!

وقبل أن يتم عبارته، لمح شعراً طويلاً قد انسدل على كتفِ "جهاد" تاركاً غطاء الرأس العسكري دون قصدٍ منها، فابتسم دون قصدٍ منه.. ثم هتف موجهاً الكلام لسلمى:

-اتركينا بمفردنا لدقائق.

تركت "سلمى" الغرفة فوضع ورقة كانت بين يديه على الطاولة، ثم هتف:

-لم أفهم ما الذي يحدث؟ لكن هناك ما هو أخطر، وطبيعة عملي علمتني أن نتحدث في الشيء الخطير أولاً.. أحد عمال النظافة يقول أنه وجد هذه تحت وسادتكِ.. وأمسكت "جهاد" بالورقة لتقرأها

" الليلة سيختطف "عبدالرحمن" وسيصبح أحد أهم أسرى الموساد، بأي شكل ومهما كان الثمن حاولي التواجد في شارع " دونلي " بتل أبيب عند العمارة رقم ٥، والتي تقع في الجهة الخلفية لمبنى الموساد.. هناك حقيبة ملابس خلف شجرة الكافور الضخمة القريبة من المعسكر، ويوجد بها قفاز مطاطي يحمل بصمات أحد أهم رجال الموساد، والذي تشبيهينه تماماً في تنكركِ الرجالي.. وموجودٌ بالحقيبة أيضاً بطاقته المعدنية.

في الواحدةِ صباحاً يمكنكِ الدخول إلى المبنى، والذي سيكون شبه خالٍ من المارّة، وذلك استعداداً؛ لإقامة عرسٍ سيقلب الأمور رأساً على عقبٍ.. فوراً اصعدي إلى الدور الثالث، المكتب رقم ٧، واحملي أكبر قدرٍ من الوثائق والأوراق، والتي سنحاول أن نستخدمها؛ لإثبات خيانة أحد أهم ضباط الموساد.. واهبطي من سلمٍ غير الذي صعدتِ منه.

في الحديقة الخلفية للمبنى ستجدين أحواضاً من المياه؛ لسقيا الزهور، اذهبي إلى الحوض العاشر وستجدين "عبدالرحمن" قد وُضع في حوضٍ من المياه المكهربة كنوعٍ من أنواع التعذيب قبل البدء في مهمته.

افصلي مفتاح الكهرباء عن الحوض، وأخرجي "عبدالرحمن" وسيري باتجاه السور المقابل سبعة أمتار فقط، وستجدي أمامك البوابة المعدنية وقد تركتها مفتوحة خصيصاً لكِ.. ستجدين سيارة سوداء بدون لوحاتٍ معدنية ستقلكم إلى "نابلس" حتى يتم إخفاء "عبدالرحمن" بعض الوقت وستعود بكِ السيارة نفسها إلى المعسكر بعد قليل.

وددتُ أن أقوم بهذا بنفسي لكن التشابه بينك وبين أكفأ ضباط الموساد سيساعد في نجاح العملية بشكلٍ أعظم.. ثقي بي جيداً، واعلمي أن هناك الكثير من العمليات التي سنقوم بها سوياً أنا وأنتِ فقط، ولذلك أقترحُ عليكِ أن تتركي المعسكر إلى غير عودةٍ، فتخلف محارب لن يضير، ومع ذلك سنكسب فدائياً مهماً يستطيع أن يغدو ويروح داخل أروقة الموساد دون أن يكشف أمره أحد.

إذا كُللت العملية بالنجاح ستجدين مني رسالة أخرى بعد ثلاثة ليالٍ ، وُضعت بنفس الكيفية تحكي تفاصيل عمليةٍ قادمةٍ"

أنهت "جهاد" قراءة الورقة، وقالت في عدم فهمٍ:

-هذه هي الرسالة الأولى من نوعها التي تصلني بهذا الشكل، كما أنني لا أجد في الرسالة ما يثبت أنني خائنة!!

-يبدو أن العامل قد قرأ الثلاثة أسطر الأولى فقط، والتي تحملُ نبأ اختطاف "عبدالرحمن"، فلم يكمل آخرها.

وطُرق الباب، ولم يكن الداخل منه سوى "سلمى وحسام" الذي ارتسمت على ملامحه مشاعر بهجةٍ ممزوجةٍ بحب، فجلس على الجانب الآخر من الطاولة دون أن ينطق، فهتفت "جهاد":

-كيف حالك يا "حسام"؟

- تنهد ثم قال بصوت خافت:

-ليتكِ لم تتركينا.. كنا بحاجةٍ إليكِ.. لكن حاجة الوطن إليكِ أعظم؛ لذلك سأسامحكِ.. بالمناسبة هذا هو "ياسر" أخي الوحيد، والذي لطالما حدثته عنكِ، وكثيراً ما استعنتُ به في البحث عنكِ، والعجيب أنه كان يسأل عنكِ كل معارفه بالمدن والقرى رغم أنكِ كنتِ بجانبه طوال الوقت.

قال "ياسر"متنهداً:

-للأسف وددتُ الحديث معكم، والاحتفال بلقائكم أنتم الثلاثة بعد كل هذه الغيبة لكن هناك أمرٌ لا يحتمل تأجيل الحديث فيه.. وأعطى الخطاب إلى "حسام وسلمى" كي يقوما بقرائته.

وبمجرد أن انتهى "حسام" من القراءة هتف:

-وماذا إن كان هذا فخٌ دبّره اليهود؛ لإيقاعنا به.

وهتفت "سلمى":

-ثم كيف توصلوا إلى حقيقة "جهاد" بسهولةٍ هكذا.. رغم أننا أقرب الأقربين إليها، ومع ذلك لم نستطع الوصول لها إلى بعد معاناةٍ.

نظر "ياسر" إلى "جهاد"؛ ليستحثها على إبداء رأيها.. وهتفت "جهاد":

-أعتقد أن كل ما جاء في الخطاب حقيقي مائة بالمائة.. كاتب الخطاب قال إنه بشكلٍ أو بآخرٍ سيأسرون "عبدالرحمن" الليلة حتى لو اضطروا إلى هدم المعسكر، وإبادة مَن فيه؛ لإنهم بحاجةٍ إليه وإذا كانوا متأكدين من نجاحهم من أسر "عبدالرحمن" فلمَ لا يأسرونني معه بذات الطريقة توفيراً لكل هذا الجهد والتعب؟

وهزّ "ياسر" رأسه مصدقاً على كلامها.. وهتف "حسام" بعصبيةٍ:

-مستحيلٌ أن أتركك تذهبين إلى هناك وحدكِ.. أتظنينها نزهة؟! هذا الخطاب يثبت أنهم أحدُ أهم أقوى جهاز مخابرات في العالم.. وإن دخلتيه ستخرجين منه جثة هامدة.

وهتفت "جهاد":

-ولا يخلو أي جهاز مخابراتٍ في العالم مهما كانت قوته من وجود بعض الثغرات به.. وكاتب هذا الخطاب يبدو أنه هو الثغرة المقصودة، وأمسكت "سلمى" بيد "جهاد" وكثرت الآراء، واحتدمت المناقشة.

******

-لماذا انفعلت هكذا؟.. وما سرّ رفضك التام لزواجي منها يا "إيلان"؟

وتحدث "جان" في تعجبٍ:

-كنتُ أعتقد أنك أول مَن سيرحبُ بزواج "ألبرت" من "حياة" وإطلاق إشاعة أنها ترغب في هذا الزواج وسعدت به.. إن نجحنا في فعل هذا سيكون له أكبر

الأثر في نفس كل مصري وعربي، وتخيل إن أسقيناها مسكراً أو دواءً مخدراً حتى تتفوه ببعض الكلمات التي تدل على سعادتها، وفرحتها العارمة بهذا الزواج.. زواج واحدةٍ مثلها برجلٍ من أخطر ضباط الموساد سيكون بمثابة انتصارٍ عظيمٍ لنا، يكاد يفوق انتصارهم في حرب أكتوبر اللعين، والذي سنعاني ذكراه بعد أيامٍ.

ترجل "إيلان" ووضع يديه في جيب سترته هاتفاً:

-عملية "حياة" تخصني من البداية وحتى النهاية.. وأعتقد أنني الأحق بأن أقرر مصيرها.. ومنذ أن أتيتُ بها إلى هنا، وأنا حددتُ موقفها بشيئين لا ثالث لهما، إما أن تعترف ونعلن نحن خيانتها، وإما أن ترفض الاعتراف فنقتلها.. مسألة الزواج هذه لم أضعها ضمن الخطة مطلقاً، وأكرر أمر "حياة" راجعٌ إليّ، ولا يمكن لأحدٍ التصرف فيه بدون موافقتي.. هل انتهينا؟

-وماذا إن وافق الرئيس نفسه على زواجي منها؟.. ولم يقتصر رده على الموافقة فحسب بل أعجب بما أنا مقدمٌ عليه، وأخبرني أن "حياة" هذه لا يمكن أن تقتل بسهولةٍ هكذا.. شأنها شأن أي أسيرٍ عاديٍ، لابد أن نستفيد من وجودها هنا بأي شكلٍ ومهما كانت الطريقة.

-زواجك من "حياة" وإن كان في نظر الموساد مكسباً فستخسرون في مقابله رجلٌ من أكفأ ضباط الموساد.. ثم أتبع " إيلان كوهين إيرائيل " .. قال إيلان، ثم توجه خارجاً.

-انتظر يا "إيلان" اشرح لنا كيف لأمر أسيرة كهذه أن يكون على هذه الدرجة من الأهمية لديك لدرجة أنك تضع استقالتك من خدمة إسرائيل في مقابله.

شد "إيلان" رابطة عنقه في ضيقٍ ، وهو يهتف:

-ماذا تقصد؟

ورد "جان" باستفزازٍ واضحٍ :

-"إيلان" ليس غبياً.. "إيلان" يفهم كل كلمةٍ قيلت في هذا الباب.

-لا تقحم نفسك أنت في أمورٍ لا دخل لك بها يا هذا، ذكرني باسمك إذا سمحت!

وهتف "ألبرت" في عصبيةٍ:

-كفا عن هذا العبث.. "جان" كلامه صحيح يا "إيلان".. لقد عبث الشك بقلبي رغم قربي لك وتأكدي من وطنيتك تجاه وطننا إسرائيل!

-صحبتك لهذا الأحمق يا "ألبرت" جعلتْ منك أحمقاً مثله.. لا تتحدث معي مطلقاً بشأن موضوع الزواج من "حياة".

أدار "إيلان" ظهره، وتوجه إلى الباب عابراً منه إلى الخارج، وقبل أن يغلقه خلفه تحدث "ألبرت":

-لمْ نتحدث في الموضوع الآخر..

-نتحدثُ فيه غداً في المكتب.. بالتأكيد يخص العمل، والحديث بشأن العمل يكون في مكان العمل.

- لو كان الأمر عمليٌّ بحت ما جمعتكما هنا.. طلبتكما في شقتي حتى يكون معنا متسعٌ من الوقت، وفرصة للهدوء إذا ما تعقد الأمر، وتشوهت طريقة الحديث، وحتى نكون بعيدين عن كاميرات المكتب وحضور الحراس وما إلى ذلك.

وتحدث "إيلان":

-أخبرتك ما لديّ.. أنا راحلٌ.

-حتى لو كان الحديث يخصّ امرأة َتدعي أنها مصرية، وتهذي بكلامٍ غير مفهومٍ كقولها أن السيدة شيرا ألقتها وأبناءها في اليم، وكانت سبباً في أسرها منذ تسعة عشر عاماً.

وتجمد "إيلان" في مكانه كأنه الصخر، وتصلبت نظراته، وتغيرت ملامح وجهه، وصمت وكأن على رأسه الطير.. وعاد بخطواتٍ وئيدةٍ إلى داخل الشقة، وارتمى على أقرب مقعد.. وبهت "جان" و"ألبرت" من ردة فعله، والطريقة العجيبة التي تقبل بها الأمر.. وهتف "ألبرت" في دهشٍ :

-ماذا هناك؟.. لماذا تصلبت هكذا؟!

******

طُرق الباب، ودخل "عبدالرحمن" لاهثاً، وهو يهتفُ:

-وجدتُ هذه تحت وسادتي يا سيدي.

ووضع الورقة على الطاولة، والتي لم يكن بها سوى تهديدٌ لعبدالرحمن بمغادرة المعسكر، والذهاب إلى شارع " بنويلا " الشارع الرئيس بتل أبيب قبل السادسة مساءً، وإلا سيتم تفجير المعسكر عن آخره بالإضافة لأسر والدته، وتدمير حييهم بالكامل.

وبهت الجميع.. وهتفت جهاد بصوتٍ نسائيٍ لأول مرةٍ أمام "عبدالرحمن":

-لن نتخلى عنك.

دهش "عبدالرحمن" ثم أمعن النظر في وجهها، وابتسم عند رؤيته لشعرها المنسدل على كتفيها والتي بادرت هي بإخفائه، فقال ضاحكاً:

-والله كثيراً ما حدثتني نفسي بذلك لكنني كنتُ أخشى مضايقتكِ إن صارحتكِ به.

وهتف "ياسر" في عصبيةٍ:

-ليس هذا وقت مزاح!!!

وقال "عبدالرحمن" ساخراً:

-اتركوني أمزح كيفما أشاء لربما كانت هذه آخر مرةٍ نمزح فيها معاً.

وتحدثت "جهاد":

-لن نتركك حتى لو كلفنا الثمن حياتنا.

-حياتكم أغلى من أن تهدروها من أجل خائن.

وقال "ياسر":

-نحنُ لم نعتد الحرب يا "عبدالرحمن"، ولم نفقه حتى إطلاق الرصاص وتبادل النيران.. كل ذلك لمْ نتدرب عليه إلا قريباً.. نحن أرض السلام التي دُفعت إلى الحرب دفعاً دون أن يكون لها يدٌ في تقرير مصيرها.. فالحرب خدعة، وأنت لم تفقه خدعتهم.. أنت لم تذهب إليهم؛ لتخبرهم أسرارنا الحربية.. أنت وازنت بين حياة شخص واحدٍ وبين حياة ألف فرجحت كفة الألف.

-لا تضيعوا وقتكم بالحديث معي.. سأذهب إليهم ربما طُلب مني تنفيذ عمليةٍ ما لصالحهم وربما نجحتُ في إبلاغكم بها حتى تنجحوا في إيقافها.

-سيقتلونك إن فعلت.

-ليس أعز عندي من الشهادة في سبيل الوطن.. يا ليتني أملك ألف روحٍ حتى أنفقها كلها في سبيله لعل الله يغفر خطأي في حقه يوماً ما.

-المسألة تتأزم.. لابد أن ترحل أنت وجهاد من هنا فوراً.. قال "حسام".

وترجلت "جهاد" قائلةً:

-أما أنا فلن أتراجع فهي إحدى الحسنيين.. إما أن أنفذ عملية ناجحة وإما شهادة.. لكن هناك أمراً ما لابد أن أوؤديه أولاً.

-انتظري يا "جهاد" سآتي معك.

وانطلقت إحدى سيارات المعسكر في طريقها إلى غزة وتحدثت "سلمى" بعنفٍ:

-إلى أين نحن ذاهبتان؟

-هناك أمرٌ ما يتحتم عليّ أن أنجزه أولاً.

توفقت العربة أمام مشفى الجلاء التخصصي، وهبطت "جهاد" من العربة ببطءٍ، وعقلها يكاد يقف من التفكير.. ستذهب إلى "طارق" ستحاول قدر استطاعتها أن تعيده إلى وعيه، لابد أن تقف إلى جانبه قبل أن تدخل إلى الموساد.. مَن يدري؟ ربما لن تخرج منه بعد ذلك.. وسيظل قلبها يلومها على موقفها السلبي، وتخاذلها في حق "طارق".

ربتت "سلمى" على ظهرها، وكأنها تشجعها على ما هي مقدمة عليه.. لكن ماذا إن نجا "طارق"؟ ماذا سيفعل بها؟.. لابد أن وثائق مهمة جداً وقعت بين يديه أنبأته بماضيها اليهودي، ويبدو أنه لم يتقبل ذلك مطلقاً مما دفعه بأن يفعل ما فعل في آخر لقاءٍ بينهما.

وكادت جهاد أن تتراجع لكن يد "سلمى" التي تربت على ظهرها جعلتها تتقدم إلى الأمام وقلبها يكاد يسقط أرضاً.. وأخيراً اقتربا من حجرة "طارق"، وازداد قلق "جهاد" وما إن وقفا أمام زجاج الغرفة حتى تفاجأتا بشيءٍ لم يخطر لهما على بال، فهتفا في صوتٍ واحدٍ:

-أيعقل؟!

****

حاول إيلان أن تبدو لهجته طبيعية ثم قال :

-لأن أمي حدثتني بشأن هذه السيدة يوماً ما، وكثيراً ما عانت والدتي بسببها فقد كانت تراها في يقظتها قبل منامها.

فقال "ألبرت" متسائلاً:

-تقصد أن كلام السيدة قد حدث بالفعل.. وأن السيدة "شيرا" كانت السبب في أسر المرأة رغم أن المرأة كانت يهودية مثل والدتك، وكانت ترغب في السفر إلى أحضان الوطن الوليد؟

وتحدث "إيلان" بصوتٍ ثابتٍ وملامح جامدةٍ:

-نعم.. لكن والدتي توقعت أن هذه المرأة جاسوسة.. بعض أفعال المرأة أنبأتها بذلك.. فكان ما كان.. ومع ذلك عانت والدتي بسبب هذه المرأة وأبنائها أكثر مما عانت هي.

وتساءل "جان" في شكٍ:

-كيف ذلك؟!

-تعلمانِ أن والدتي تعاني من الهياج العصبي والمرض النفسي الذي أصابها في الأيام الأخيرة، وقد كانت صورة هذه المرأة وأبنائها هي السبب.. لم تفارق صورتهم وهم يغرقون ذهن والدتي، ولم تفارق كلمات المرأة سمع والدتي " لمَ تشردين يهودية مثلكِ.. ألا يكفي ما هي فيه من تشرد"؟!

وأنتما تعلمانِ أن والدتي تقدس كل ما هو يهودي، وتستميتُ من أجل خدمة هذا الوطن لذلك في أيامها الأخيرة شعرت بموقفها المتخاذل تجاه هذه المرأة والتي باتت تظهر لها في كل وقتٍ وفي أي مكان.

ورغم أنني أجريتُ أبحاثا مطولة عن هذه المرأة، واكتشفتُ أنها كانت جاسوسة خطرة، ولطالما آذت اليهود المصريين، وأن أبناءها لا زالوا على قيد الحياة حتى الآن وتكبدت إسرائيل بسببهم آلاف وأعظم الخسائر، ومنذ أسبوعين وأنا أضع خطة؛ للإيقاع بهم؛ لأنهم ما زالوا يقيمون العمليات الفدائية، ويدبرون المكائد؛ للإيقاع بنا في كل وقت، ثم إنني حاولتُ إقناع والدتي مراراً وتكراراً بادعاء هذه المرأة وكذبها حتى تنجو من الموت إلا أن حالتها كانت قد ساءت بالفعل، وظنت أنني إنما أقول ذلك كذباً رفقاً بها وبمرضها الذي يتضخم في كل ثانيةٍ.

وتساءل "جان" في شكٍ:

-وماذا إن كنتُ لا أصدق ما تقول يا "إيلان"؟

-ولكنني لا أقول هذا لك من الأساس.. أنا أتحدث مع "ألبرت" فلا تحشر أنفك في الحديث.

وقال "ألبرت" متجاهلاً تعليقات جان:

-ماذا سنفعلُ إذن؟

ورد إيلان في سرعةٍ وتشفٍ واضحٍ:

-نكّلوا بها أشد التنكيل، وعذبوها بأبشع وسائل التعذيب، وأجبروها على الاعتراف بحقيقتها المزرية وبخطيئتها الشنيعة في حق إسرائيل. وأذيقوها كل ألوان العذاب، لكن إياك أن تقتلها إنني أريدها حية وخلال الأيام القليلة القادمة سآتي بوالدتي كي تسمع اعترافها بأذنيها حتى يهدأ قلب والدتي، وتتحسن حالتها بعض الشيء.

-لا تزعج والدتك، سآتي أنا بالمرأة تحت أقدام والدتك حتى تقول لها ما تودُ منها قوله.

-إياك أن تفعل.. أخشى أن ينجح أبناؤها في إنقاذها وتحريرها من الأسر.

-كما تشاء يا "إيلان".

-وهناك أمرٌ آخر وددتُ ان أحدثك فيه.. أتذكر المفاجأة التي حدثتك عنها بشأن "حياة"، سنقوم بتنفيذها غداً.

-وهل ستظل مفاجأة بالنسبة "لألبرت"؟

ورد "إيلان" ضاحكاً:

-سأكشف لك جزءاً من الخطة حتى تساعدني في تنفيذ هذا الجزء.

وضحك "ألبرت" بصوتٍ عالٍ قائلاً:

-لولا أنك تريد المساعدة؛ لتفاجأتُ بما ستفعل مثلي مثل أي أحدٍ هكذا.

وقهقه "إيلان" عالياً.. وراح يشرح خطته الكاملة لألبرت وجان.

****

أسرعت "جهاد" إلى غرفة الطبيب المختص، وهتفت لاهثةً:

-"طارق" ليس بغرفته.. ماذا حدث؟

وتنهد الطبيب في أسى دون أن ينطق.. وهتفت "جهاد" في فزعٍ :

-أرجوك تحدث.. ماذا هناك؟

فقال الطبيب:

-للأسف فقدناه.

وانهارت "جهاد" على أقرب مقعد، وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ لا يكاد يخرج من بين شفتيها:

-أنا السبب!

وحاولت "سلمى" تهدئتها في حين أن الطبيب هتف متعجباً:

-حاولنا إنقاذه قدر استطاعتنا لكن إرادة الله كانت نافذة وقدّر الله له ذلك.. لم يعطونا الفرصة؛ لإنقاذه، هجموا علينا عند منتصف الليل، وقتلوا اثنين من الحراس وأصابوا الممرضة، ولم نقدر على انتزاعه من بين أيديهم.

لم تفهم "سلمى" شيئاً مما قاله الطبيب، فقالت في تعجبٍ:

-معذرة، لم أفهم.. انتزعوا مَن من يد مَن؟

-أقصد السيد "الطارق".. من الواضح أنه ذو أهميةٍ عظيمةٍ في حركات المقاومة التي بدأت تشمّ أنفاسها منذ فترةٍ قصيرة ....

-أرجوك لا أريد أن تشرح لي ما الذي حدث لطارق.. أنا أريد أن أعرف أين هو؟

-اختطفته إحدى الدوريات الإسرائيلية.. أخذوه بالقوة، ووضعوه في سيارة الإسعاف الخاصة بهم، وانطلقوا به بعيداً، ولم نستطع اللحاق بهم.

وهتفت "سلمى":

-اهدأي يا "جهاد".. كفي عن هذا النشيج.. "طارق" لم يمت.. إنه خُطف.

فتوقفت "جهاد" عن البكاء في شبه صدمةٍ، في حين أن الطبيب هتف:

-جهاد!.. هل أنتِ صاحبة هذا الاسم؟

ولم يجبه أحدٌ.. وانطلقتا إلى خارج المشفى.

****

وقفت السيارة أمام الباب الخارجي للمعسكر، وهبطت منها "سلمى" و"جهاد" متجهتين إلى الداخل، وبمجرد أن خطيا خطواتٍ قليلةٍ حتى وصلت إلى أنفيهما رائحة فقدٍ، وتساءلت "جهاد" رغم أنها كانت تعرف الإجابة مسبقاً:

-هل فقدنا "عبدالرحمن"؟

-نعم.

واتجه "ياسر" إلى مكتبه، ومن خلفه "حسام" و"سلمى" و"جهاد" وقام جميعهم بدراسةٍ للخطة الموضوعة؛ لدخول الموساد بشكلٍ أدق وبصورةٍ أقرب، وبعد ساعة ونصف الساعة خرج ثلاثتهم من المكتب، واحتضنت "سلمى"" جهاد" وهي تقول:

-عديني أنكِ ستعودين مرة أخرى.

-أعدكِ.. سأعود من أجلكِ ومن أجل طارق ومن أجل المعسكر.. سأعود من أجل أشياء كثيرة لابد أن أنجزها قبل أن يداهمني الموت.. ورحلت "جهاد"!

******

وفي تمام السابعة مساءً، توقفت السيارة السوداء في شارع " دونلي " بتل أبيب، وهبطت منها "جهاد" وهي ترتدي ثياباً رسمية تحمل العلم الإسرائيلي على صدرها.. وقفت أمام الباب الرئيس، وأبرزت بطاقتها المعدنية، والتي تحمل شعار المخابرات الإسرائيلية، ودون أن تنطق أدى رجل الأمن التحية، وهو يهتف:

-المبنى خالٍ من جميع الضباط يا سيدي، ولا يوجد سوى بعض عمال النظافة وبعض أفراد الأمن، فإذا احتجت لشيءٍ بخصوص الأسير الجديد فأنا رهن إشارتك.. لقد أخبرني حارس الأمن النوبتجي الذي تسبقني فترة عمله بأمر ذاك الأسير الجديد، والذي يتحتم علينا أن نحافظ عليه ولو كلفنا ذلك أرواحنا.. هزت "جهاد" رأسها وتمتمت:

-ليكن إذن.

أدى الرجل التحية مرةً أخرى.. وتركها تعبر إلى الداخل فاتجهت مباشرةً إلى الدور الثالث.. كان الممر خالياً سوى من بعض أفراد الأمن الذين يجلسون والملل متجسدٌ على ملامحهم.. توقفت أمام الحجرة رقم ٧، ووضعت يديها على مقبض الباب، ولم تدرِ أنها تفتح على نفسها أحد أبواب جهنم

وفتحت الباب.. لكنها كانت المفاجأة التي لم تخطر لها على بال.. لقد وجدت بالغرفة شبيهاً لها لا تختلف عنه في شيءٍ، ودق قلبها في عنفٍ، ولم تدرِ ما الذي يتحتم عليها فعله؟ لقد وقعت في الفخ.

همت بالخروج من الغرفة مرةً أخرى لكن الجالس وراء المكتب هتف في صرامةٍ:

مَن أنت؟.. وماذا تفعل هنا؟

وتلعثمت "جهاد" دون أن تنطق.. أعاد سؤاله مرةً ثانيةً بصوتٍ جامدٍ كأنه الرعد.. لم ترد أيضاً فأخرج من جيبه مسدساً فجأة، وهو يهتف في عنفٍ:

-هذا ما حذرتهم منه.. إقامة التأبين الليلة سيدفع الفلسطينيين للاستهتار بأمن الموساد، وسيدفعهم إلى محاولة خداعٍ أو تخريبٍ؛ لإنقاذ الأسير الخاص بهم.. هيا ارفع يديك فوق رأسك فلقد انكشف أمرك.

ولم ترد "جهاد" فقط قالت بصوتٍ رجولي:

-أنت مَن أرسلت لنا الخطاب.. أليس كذلك؟

-أيُّ خطابٍ؟

-أقصد أنك مَن رتبت الفخ.. وأنت من دبرت دخولي إلى هنا؟

عقد "إيلان" حاجبيه واتجه إليها في بطءٍ وهتف:

-هل وصلكم خطابٌ يحوي ذلك؟

وشعرت "جهاد" أن هناك حلقاتٌ مفقودةٌ لا تعلمها.. وإنها إن نطقت بأي شيءٍ يخص أمر الخطاب فقد يدفعهم إلى البحث عن ذاك الذي يمنح أخبارهم إلى الفلسطينيين.. فآثرت الصمت.

فقال "إيلان" في تهديدٍ صارمٍ:

-احكِ لي ما لديك وإلا قتلتك هنا.

ولم تجب.. فاقترب منها في هدوءٍ، وقبل أن يصل إليها، فُتح الباب ولم يكن الداخل منه سوى "ألبرت" الذي شهق في ذهولٍ قائلاً:

-بحق الشيطان.. مَن أنتما؟

ودون أن ينتظر إجابة أخرج مسدسه.. وهتفت "جهاد" بصوتٍ حاولت قدر استطاعتها أن تجعله ثابتاً:

-أنا "إيلان إيرائيل".

فقهقه "إيلان" قائلاً في سخرية:

-حقاً.

وأسقط في يدِ "جهاد".

****

الفصل الرابع عشر
قد جعلها ربي حقاً

ثمانية وأربعون ساعة، و"جهاد" في زنزانةٍ لا يتعدى حجمها الثلاثة أمتار، طليت جدرانها باللون الأسود، ووضع في نهايتها إبريق ماء للشرب والوضوء وغير ذلك.. لم يأتِ إليها أحدٌ، ولم يستجوبها أحدٌ.. لابد أنهم ينضجونها على نارٍ هادئةٍ كما يقولون.. توضأت ببقايا الماء الموجود في الإبريق، وقبل أن تقف مصلية انفتح الباب في عنفٍ، وقبل أن تلتفت؛ لترى الداخل منه استقرت أحد الرصاصات الغادرة في كتفها الأيسر، وصرخت من هول الصدمة، لقد انطلقت رصاصته المفاجأة على حين غِرةٍ منها، وسقطت على الأرض فانكب عليها محدثاً إياها بصوتٍ جامدٍ كأنه الرعد:

-تحدثي وأخبريني بكل شيءٍ وإلا دفنتكِ هنا.. حدثيني عن الخطاب الذي وصلكِ قبل كل شيءٍ وإلا وضعتكِ في الغرفة المجاورة.

ولم تستوعب جهاد ما الذي يحدث في الغرفة المجاورة، ونظرت تجاهها في خوفٍ، وصمت هو؛ لمنحها فرصة سماع الصراخ الآتي من هناك.. وخارت قواها، وشعرت أنها تفقد القدرة على المقاومة وهتفت بصوتٍ واهنٍ :

-أنا بحاجة للطبيب.

-اعترفي أولا

-لقد فقدتُ الكثير من الدماء.. أنا بحاجةٍ ماسةٍ للطبيب.. سأموتُ إن لم تفعل.

-ولن أفعل.. رصاصة في الكتف لن تودي بحياتكِ.. غاية ما هنالك سيشلّ ذراعكِ، على افتراض أسوأ الأمور.

وبصقت "جهاد" في وجهه فجنّ جنونه، وأمسكها من عقصة شعرها؛ ليجرجرها بين جدران الزنزانة الضيقة، وارتفع صوت صراخها، ويبدو أن ذلك أزعجه، فما كان منه إلا أن أطلق رصاصة أخرى في الكتف الثاني، وشعرت بسحابةٍ من السواد تطبق على جفنيها، ولم تعد تحسّ بشيءٍ، وسمع "إيلان" صوت تصفيقٍ حارٍ آتٍ من الخلف، ولم يكن المصفق له سوى "ألبرت".

****

فتحت "جهاد" عينيها ببطءٍ؛ لترى وجهاً ملائكياً يبتسم لها، ويقول في هدوءٍ:

-حمداً لله على سلامتكِ.

وتمتمت "جهاد" ببعض الكلمات، فعاد الصوت الملائكي يقول:

-أحاول إفاقتكِ منذ ساعةٍ ونصف.. وحاولتُ قدر استطاعتي إيقاف النزف، ولأنني لم أستطع أن أخرج الرصاصتين فاكتفيتُ بتضميد جرحكِ حتى لا يتلوث، وحتى لا تفقدين الكثير من الدماء.

ولم تهتم "جهاد" بكل هذه التفاصيل وجعها كان أكبر.. لم يمنحها الوجع الفرصة؛ لتستمع لتقريرٍ عن حالتها، وشعرت بأن هناك ألما مميتا في كتفيها، وأن الوجع أكبر من أن يحتمل فتعكزت على الحائط، واستندت على مقبض الباب، ووجهت صوتها عبر فتحت باب الزنزانة، وظلت تصرخ بهستريا " اقتلوني " يوجد أسيرة هنا تتمنى

الموت، وبكل ما أوتيت من قوة ظلت تركل الباب بعنفٍ وهي تكرر نداءاتها المستغيثة بكل ما أوتيت من قوةٍ.

اقتربت منها رفيقتها بالزنزانة؛ لمحاولة تهدئتها وهي تهتفُ:

-اهدئي.. حتى لا تفقدين الوعي مرةً أخرى.

وبكل ما أوتيت من ذل هتفت "جهاد":

-ليتني أفقد حياتي كلها.. الوجع لا يحتمل.. هناك نيران تشتعل في كتفيْ، وعادت للصراخ مرة أخرى.

وفتح الباب ودخل "إيلان" يتبعه "ألبرت" وفي يده أسيرٌ ثالث قاموا بتغطية وجهه بوشاحٍ أسود.. وتحدثت "حياة" بعنفٍ موجهة كلامها "لإيلان" وهي تهتفُ:

-إنها تموت.

ولم ينطق "إيلان" ودون أن يرد قام بتوثيق يد كل منهم في حلقاتٍ موجودةٍ بجدران الزنزانة، ونظر إلى "ألبرت" مبتسماً في ظفرٍ وهو يهتفُ:

-هيا بنا.

وعادت "جهاد" للصراخ مجدداً، وقال صاحب الوشاح الأسود:

-صاحب هذا الصوتِ أعرفه جيداً.. لكنني لا أستطيع أن أميزه.. جلسات الكهرباء لا زالت تعبث بعقلي.

وردت "حياة":

-إنها فتاة.

وبهت صاحب الوشاح الأسود قائلاً:

-لابد أنها "جهاد".

وحاول أن يتحدث بصوتٍ عالٍ ؛ ليفوق صوته صراخها وهتف:

-"جهاد".. اهدئي أنا هنا.. ليتني بدلاً منكِ لا تقلقي ستخرجين قريباً.

وتحدثت "جهاد" ببكاءٍ واضحٍ :

-"عبدالرحمن".. إنني أموت.. ليتنا تبادلنا الأدوار، وأخبرتك أنا وصيتي!

-لا تقولي ذلك.. مَن هم مثلكِ لابد أن يموتوا في ساحة معركةٍ، وليس كالجرذان في زنزانةٍ قذرةٍ كهذه.

وبتر عبارته فجأة صوت الأسيرة الأخرى وهي تهفُ:

-أنت "عبدالرحمن".. أليس كذلك؟

وذهل "عبدالرحمن" وآثر الصمت.. وأعادت "حياة" عبارتها مرةً أخرى:

-ألا تذكرني؟ إنني أنا السيدة "حياة حمدي".

والتفتت إليها "جهاد" وحاولت أن تمعن النظر في وجهها لكن طاقتها نفذت ودماؤها أوشكت على الانتهاء، وخرّت فاقدة للوعي للمرةِ الثانيةِ.

****

التف "جان" و"ألبرت" و"إيلان" حول المنضدة، وجلس "ألبرت" قبالة "إيلان" وهو يهتف وإبتسامة هادئة تلوح على ثغره:

-لا أستطيعُ أن أصف لك مدى الهدوء الذي بعثته في نفسي.

وتساءل "إيلان" في عدمِ فهمٍ:

-أنا؟

-نعم.

-وكيف ذلك؟!

-الرصاصتان اللتان أطلقتهما في جسدي شبيهتك هذه أراحاني كثيراً.

-لم أفهم ماذا تقصد؟

تنهد "ألبرت" ولم ينطق، وعاود "إيلان" سؤاله:

-ماذا هناك يا "ألبرت"؟ لمَ تتعجب من أمرٍ كهذا؟ بل ما العجبُ في أن أجبر أسيرة اقتحمت مكتبي في غفلةٍ منا على الاعتراف؟

-لا شيء.. لا تهتم.

-بل أنا مهتمٌ.. وقبل أن نبدأ في الحديث عن العمل لابد أن أخبرك أنني قد وافقتُ على زواجك من "حياة" وأرى أن زواجك منها إن تم كما دبرتم له سيكون نقطةِ نصرٍ فارقةٍ في تاريخ الموساد.

وهب "ألبرت" واقفاً وهو يغمر "إيلان" في سعادةٍ قائلاً:

-لا أصدق.. أنا لا أصدق.

-لا تصدق ماذا.. أكل هذه السعادة الغامرة التي تواثبت على وجهك؛ لأنني سمحتُ لك بالزواج من هذه.. أعتقد أن هناك ما تخفيه عني.

-في الحقيقة نعم.. ولكني سأقوله لك حالاً فلم يعد هناك ما يبعث على الشك.

ردد "إيلان" في عدمِ فهمٍ:

-الشك!! تشك فيَّ أنا؟!

-سامحني.. هذه هي طبيعة عملنا.. تصرفاتك في المرحلة الأخيرة أوحت للجميع بذلك، ولقد طُلب مني مراقبتك واقتفاء أثرك.

-أنت تمزح أليس كذلك؟

-بل هي الحقيقة الكاملة.. ولقد رُفع ملفٌ بذلك إلى المدير.. ولقد كلفني هو بالبتّ في هذا الأمر.

وحاول "جان" أن يتدخل لكن "ألبرت" أشار إليه بأن يصمت ثم واصل قائلاً:

-لكن موافقتك على الزواج من "حياة" والشروع في قتل شبيهتك والتي تحمل نفس بطاقتك المعدنية ووجودها في مكتبك من قبل، ومع ذلك عندما فتحتُ أنا الباب وجدتك تتحدث معها بهدوءٍ لم أعهده فيك، كل ذلك بعث في قلبي الشك، فوضعتُ أمر صداقتنا جانباً، وأعليتُ عليها أمر الوطن فكما تعلم الوطن أهم من أي أحدٍ حتى لو كان "إيلان إيرائيل" نفسه.

-وأنا بدوري أحييك على هذا يا "ألبرت".. لقد تعاملت مع الأمر تعاملاً يستحق أن يدرس لطلاب المدارس. قال إيلان.

عاد "إيلان" للسيطرة على المناقشة، وكسب جميع الأطراف في صفه.. وتحدث "جان" ساخطاً:

-لابد أن نضع حداً للأمر.

-أي أمرٍ ؟

-الأمر المؤسف الذي نحن فيه.

وتساءل "ألبرت" بعصبيةٍ:

-تكلم بوضوح يا "جان" ماذا تقصد؟

-منذ متى ونحن نخبر مَن نشك في أمره عن رغبتنا في التحقيق معه.. وقبل أن نتأكد من براءته.. منذ متى ونحن نكشف أوراقنا بهذه السهولة إلى ضابطٍ اعتقدنا أنه مذنبٌ، ووقفت أفعاله كلها ضده؛ لتثبت تورطه في جريمةٍ ما.

قال "إيلان" ساخراً:

-كما تعلم يا "ألبرت" وبغير جدال أنا محاطٌ بمجموعة من الأفاقين والحاقدين الذين يحسدونني على ما قمتُ به من أجل هذا الوطن، ويحز في أنفسهم أن شاباً صغيراً سبقهم بمراحل فدفع الحقد كل واحدٍ فيهم أن يسلط لسانه عليَّ بما يتفق وذهنه من شائعاتٍ مغرضةٍ؛ لمحاولة إقصائي عن القمةِ حتى تتسع لهم طريق الصعود إليها.

وتحدث "ألبرت" قائلاً:

-أرجوكما.. كفا عن هذا العبث.. الأمر لا يحتمل، أولئك الفلسطينيون الكلاب قد عرفوا طريق المقاومة، وقد شدّ بعضهم أزر بعض، وتصلب عودهم، وكثرت عملياتهم، وكلما حاولنا القضاء على فرق المقاومة التي تفشت أخيراً ثارت ضدنا أفراد المجتمع الدولي.. والمسألة تتعقد شيئاً فشيئاً.

-لكنك تعلم أن العقد لا يستعصى حلها على "إيلان إيرائيل".. لذلك فقد فكرتُ في خطةٍ عبقريةٍ نستطيع بها التخلص من أكبر ثلاث مراكز مقاومة منذ أن عرف

الفلسطينيون طريق الجهاد في الفترة الأخيرة.. سنفعل ذلك دون أن تثور ضدنا دولة واحدة، ودون أن تهدد الدول العربية بإيقاف تصدير النفط إلينا.

وراح "إيلان" يشرح خطته العبقرية؛ لتطهير المنطقة من رجال المقاومة؛ ولتأديب الأهالي حتى يمتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى مثل هذه المعسكرات.

****

-أرجوكِ يا سيدة "حياة" حاولي إفاقتها إنني أحتاجها في أمرٍ مهمٍ.

-ولكنني مقيدة كما تعلم.. ثم أردفن بعد برهة:

-ثمة إبريقٌ به بقايا ماء سأحاول أن أركله بقدمي فلعل المياه تنسكب على وجهها.. إن يديها لا زالت معلقة في الحلقة، لكن جسدها سقط بشكلٍ أفقي، فتعلق على الحائط دون أن يصل إلى الأرض.

وحاولت "حياة" أن تركل الإبريق لكنه كان بعيداً عن قدميها، وكلما حاولت الاقتراب منه كلما شعرت أن الحلقة المثبتة بالجدار ستقتلع يدها، وبينما هي تحاول فتح باب الغرفة، ودخل منه رجلان.. أحدهما يرتدي معطفاً أبيضَ وقال الرجل الذي يتبعه:

-ها هو الطبيب.

****

استخرج الطبيب الرصاصتين، وبعد أربع ساعاتٍ استفاقت "جهاد" وتحدثت بصوتٍ واهنٍ :

-"عبدالرحمن".. لا تقلق فأنا بخير.

والتفت نحو الأسيرة الأخرى، وهي تقول:

-أشعر أنني أعرفكِ.. كما أنني أحفظ اسمكِ عن ظهر قلبٍ وكأنه اسمي أنا.. فمَن أنتِ؟

وقبل أن ترد "حياة" هتف "عبدالرحمن" في سرعةٍ:

-"جهاد".. دعكِ من هذا العبث الآن.. لدي شيءٌ مهمٌ للغاية لابد أن أخبركِ إياه.. أنصتي إليَّ جيداً.. في جيب سترتي الأيمن بعض الأوراق والوثائق الهامة لابد أن تأخذيها وتخفينها في ملابسكِ.. استندي على الحائط، وحاولي أن تأخذيها في أقرب وقتٍ.

-وما فائدة ذلك؟

-ستخرجين من هنا بعد دقائق.

-أنت تمزح أليس كذلك؟!

-كلا.. أنا أتحدث بجديةٍ بالغةٍ.. كل هذه الوثائق يتحتمُ عليكِ إيصالها للقائد "ياسر الصاوي" بأي شكلٍ وبأي طريقةٍ، وهدأ صوته قليلاً ثم هتف، وهو يتبسم:

-علمتُ أن أيامي الجميلة في انتظاركِ، وعلمتُ أنكِ تستحقين أن يعوضكِ الله عن كل ما عانيته في طفولتكِ وشبابكِ.

هتفت "جهاد" في عدمِ فهمٍ:

-هل علمت شيئاً عن طفولتي وشبابي؟

-أعلم كل شيءٍ.. ولا يتسع المقام لذكر هذه الأشياء الآن.. هي انهضي وخذي هذه الوثائق.

وبينما هي تفعل سألته "جهاد":

-مِن أين لك بكل هذه الأوراق؟ إنها مهمة للغاية.

-حاولتُ أن أفعل شيئاً ذا قيمةٍ قبل أن أموت.. على أية حالٍ، ليس هذا وقت شرحٍ أو استفسارٍ ثم أتبع ضاحكاً:

-يا "جيسي".

وعقدت "جهاد" حاجبيها، وهي تهتف في عدمِ فهمٍ:

-"جيسي"!!!

-نعم.. "جيسي" الفتاة الصغيرة التي تركت مصر قديماً هي وأمها وأخاها الوحيد "يوسف".. هل اقتنعتِ أنني متأكدٌ أن أيامكِ الطيبة قادمة؟

قاطعتهما "حياة":

-"عبدالرحمن".. أعد ما قلته.

وفي نفس اللحظة، لمع في ذهن "جهاد" شيءٌ ما.. شيءٌ قديمٌ محببٌ إليها.. لمع في ذهنها صورة لجارةٍ طيبةٍ تمنح أمها مصحفاً؛ ليحفظها هي وأبناؤها، وعادت بها الذكريات إلى الوراء كتصوير فلاش باك، عادت بها إلى قلب الإسكندرية حيث الترام

الأزرق وصديقة ثالثة تدور حولها هي وأخاها.. حيث المسجد الكبير وحلقات تحفيظ القرآن التي يمتنع عليهم الدخول إليها!

وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ لم يستفق من وقع المفاجأة:

-"حياة حمدي" ابنة الخالة "صفاء".. أليس كذلك؟

وهتفت "حياة" في شبه صراخٍ:

-هل فعلاً التقينا مجدداً أم أنني أحلم؟

وفتح الباب، ودخل "إيلان" يتبعه "ألبرت" و"جان" وهتف "إيلان" بصوتٍ أجش:

-تذكرين يا "حياة" أنني وعدتكِ بمفاجأةٍ ما.. أليس كذلك؟

ولم ترد "حياة" فتقدم "إيلان" إلى "عبدالرحمن" ونزع الغطاء الأسود الذي يغطي وجهه ثم هتف:

-تعرفينه جيداً.. أليس كذلك؟

وسالت دمعةٌ كبيرةٌ من عين "عبدالرحمن".. واستدرك "إيلان" موجهاً كلامه إلى "حياة":

-هل تعرفين مَن ساعدنا في أسركِ والتنكيل بكِ؟

وصمتت ولم تجب.. فأتبع "إيلان":

-إنه هو.. هذا الخائن وأشار إلى "عبدالرحمن".

وهتف "عبدالرحمن" بصوتٍ يقطر أسى:

-سامحيني.

ووجمت "حياة".. وأعاد "عبدالرحمن":

-أرجوكِ سامحيني.

وقبل أن يتم جملته استقرت ثلاث رصاصات متتالية أطلقها "إيلان" في جسده، وبدون شفقة أتبعها قائلاً:

-الآن..انتهت مهمتك.

وانحنى جسد "عبدالرحمن" وصرخت "حياة".. وتقدمت "جهاد" إليه، وقالت بصوتٍ يخنقه البكاء:

-هل سترحل سريعاً هكذا؟

-وددتُ البقاء حتى أوصلكِ إلى بر الأمان.. لكن الله لم يقدر لي ذلك.

ومر شريط ذكرياتها أمام عينيه.. وهتف "عبدالرحمن" بصوتٍ متقطع:

-سامحيني.. تركتكِ في منتصف الطريق.

وهتفت "حياة":

-استرح يا "عبدالرحمن" لا تجهد نفسك في الحديث.

-لاتقلقي.. سأستريح للأبد.. لكن هلاّ سامحتني؟

-سامحتك.. سامحتك حتى لو كنتَ سبباً في موتي.

وهتف "عبدالرحمن":

-الحمد لله.

تمايل جسده واقعاً على الأرض لكن الحلقة منعته من السقوط تماماً، فأخذته "جهاد" بين ذراعيها ونظر إليها "عبدالرحمن" نظرة عتابٍ ثم هتف:

-عديني أن تتوقفي عن البكاءِ أيتها الفارسة الجديدة.

فأجهشت "جهاد" بالبكاء أكثر.

وصمت "عبدالرحمن" برهة يحاول أن يتمالك قواه ثم قال:

-لم يمنحني القدر الفرصة؛ لأحقق ما تمنيتُ تحقيقه.

وقالت "جهاد":

-أنت بخير.. وسيأتونك بالطبيب الآن كما فعلوا معي.

-لم يعد في العمر متسع.. لكن عديني أنكِ ستذهبين إلى أمي وتخبرينها أن السيدة قد سامحتني، وأنني رحلتُ شهيداً.. وأن حياتي لم تذهب سدىً، وأنني لم أجدُ أعز من عمري أدفعه لها كي ترضى عني.

وصمت برهة ثم أغمض عينيه وضغط على ضروسه؛ ليكتم صيحة ألمٍ كادت أن تفلت من بينهما ثم أتبع:

-هناك مظروفٌ تحت وسادتي بالمعسكر به الكثير من المال أعطيه لليلى وأخبريها أنني لطالما حلمتُ أن أراها عروساً.. ولكم تمنيتُ أن أزفها إلى زوجها.. وأنني كنتُ أموتُ في اليوم ألف مرةٍ؛ لأنني عجزتُ أن أحقق لها ذلك.. أعطيها المال، وأخبريها أنني أطلب منها أن تسمي أول ولدٍ لها "عبدالرحمن".

وصمت لحظة ثم أتبع:

-حتى لا ينقطع ذكري من هذا العالم.. وإلى جانب المظروف ستجدين خاتم خطبة لطالما حلمتُ أن أضعه في يد "آسيا" أخبريها أنني أحببتها أكثر من أي شيءٍ أحببته في حياتي.. عديني أنكِ ستذهبين إلى بيتنا وتفعلين كل ما طلبته منكِ.

-سأفعل يا "عبدالرحمن".. اهدأ حتى لا يتفاقم الألم.

-لقد ذهب الألم وذهب العمر معه.

ونظر إلى "حياة" وهو يكرر:

-سامحتيني.. أليس كذلك؟

وهتفت "حياة" من خلف دموعها:

-اشفع لي عند ربك.. ثم رددت بصوتٍ يخنقه البكاء:

-" ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً "

وابتسم "عبدالرحمن"، وألقى نظرة وداعٍ على جهاد مردداً

-"هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً"!

وشاعت السكينة في قسماته، وهدأت ملامح وجهه المتشنجة، وفاضت روحه إلى بارئها.. وانفجرت "حياة" و"جهاد" باكيتين.

******

تحدث "ياسر" بعنفٍ قائلاً:

-لابد أن في الأمر خطباً ما.. عقلي سينفجر من التفكير، وهتفت "جهاد" بهدوءٍ ممزوجٍ بأسى:

-وأنا كذلك.. لابد أن اليهود يدبرون لشيءٍ ما.. أنا لم أستسغ خروجي من الموساد بهذا الشكل المريب، والغريب جداً بعد أن ضُبطت في غرفةِ أهم ضباطه، ولا أكاد أفهمُ كيف اعترف "عبدالرحمن" أنه هو مَن كتب الخطاب الذي وجدناه في غرفتي؟ وأنه هو مَن احتال على الضابط؛ ليسرق بطاقته المعدنية؟ هناك العديد من الحلقات المفقودة والتي لا أستطيع فهمها حتى الآن وتساءل "ياسر":

-ألم ينطق "عبدالرحمن" شيئاً آخر قبل استشهاده.

-الذي حكيته لك فقط.

-ماذا كان يقصد بقوله " أن أياماً جميلة تنتظركِ "، ولماذا لقبكِ باسمٍ آخر ليس لكِ.

وقالت "جهاد" متنهدة:

-هناك شيءٌ يخصني أخفيته عن الجميع، وقد آن الأوان أن أعترف لك به لكن المهم الآن هل الأخبار التي تداولتها صحف الصباح حقيقة أم مجرد تمويهٍ لكل العرب؟ هل فعلاً ستتزوج السيدة "حياة" من هذا الأحمق الذي يدعى "ألبرت"؟ إنها كارثة، أنا لا أعلمُ كيف سنقدر على مواجهة كل هذه الكوارث؟

-الصحافة تقول إن الزفاف سيتم غداً ونحن لم نرتب أمورنا بعد.

ودخل أحد الجنود، ووضع أمام ياسر مظروفٌ مغلق، وهو يهتفُ:

-القائد الأعلى أرسل هذا الخطاب يا سيدي.. لكنه أرسله بطريق آخر غير الطريق المتعارف عليه.

وفتح "ياسر" المظروف ولم تمضِ بضع دقائق حتى هتف :

-القيادة أرسلت خطة ما؛ لإنقاذ "حياة" ولكنني أراها خطة بدائية جداً، إنه يقول أنه سيقوم بتهريبها فجراً في الخامسة صباحاً بعد أن يحلق شعرها ويلبسها زيّاً رجالياً، وإن كان الأمر كذلك فكيف سيدخلون الموساد مرةً أخرى في ظل هذه الرقابة المشددة؟ تعتقدين سننجح في إنقاذها من براثن هذه المصيبة التي أطبقت علينا؟

ورفعت "جهاد" بصرها إلى السماء، وكأنها تستنجد بها، وبعدما انتهى "ياسر" من شرح الخطة والاتفاق على ما سيقومانِ به في الغد أبلغته "جهاد" أنها ولا بد أن تبادر بزيارة عاجلةٍ وسريعةٍ لأهل "عبدالرحمن".

-كنتُ سآمركِ بفعل ذلك.. تصحبكِ السلامة.. لا تغيبي كثيراً.

****

الطريق إلى عكا، والفجر قد أوشك أن يؤذن له، وحملت الرياح نسمةً باردةً رطبةً فضمت "جهاد" معطفها إلى صدرها.. وبعد برهةٍ، ظهرت القمر بأنواره الفضية من وراء بعض السحب التي أخفت أنواره لمدةٍ ليست بالقصيرة.. وظلت السيارة تنهب الأرض إلى أن وصلت إلى الحي المقصود.. وتحاملت على قدميها رغم آلام كتفيها، وحاولت أن تهبط من السيارة بحرصٍ ، وبينما هي تفعل ندت آهة من شفتيها فهتف السائق:

-يمكنكِ أن تظلي هنا ريثما أذهب أنا إليهم، وأخبرهم ما تريدين يا سيدتي.

ونظرت "جهاد" إلى السائق نظرة لومٍ وهتفت:

-إنه "عبدالرحمن" يا "عمر".. ألا يستحق أن نكرمه في أهله؟

-أعتذر ما قصدتُ إلا راحتكِ.

وقبيل فجر ذلك اليوم، كانت قوات الاحتلال قد أفرجت عن بعض المعتقلين، والذين كانت منهم "ليلى" توأم "عبدالرحمن" وأخته الوحيدة، والتي عادت إلى الحي للمرة الأولى بعد مرور أكثر من تسعة أشهرٍ ، وطرقت الباب ولم يفتح لها سوى "آسيا" والتي بمجرد أن رأتها حتى علت زغاريدها؛ لتجوب كل أركان المنطقة.. فخرجت والدة "عبدالرحمن" من الداخل وهي تهتفُ:

-ماذا هناك يا آسيا؟ لمَ كل هذه الجلبة؟

ولم تكد المرة تتمّ عبارتها حتى هتفت:

-إني لأجدُ ريح "ليلى".

وارتمت "ليلى" في أحضان أمها وهي تهتف:

-وقد عدتُ ثانيةً يا أمي.. لم أصدق أنني سأراكِ مرةً أخرى.

وتوافد عليهم أهل الحي فور سماعهم لزغاريد آسيا، وأصبح البيتُ كأنه فجر يوم عيد.. جلست النساء للترحيب بليلى، وذهب بعض الرجال لصلاة الفجر.. الأم مستغرقة في الحمد والتسبيح وقد ملأت الطمأنينة قلبها، و"آسيا" منهمكة في توزيع الشربات على أهل الحي الذين جاؤوا؛ للاحتفال بخروج "ليلى".

وهبطت "جهاد" من السيارة، وسارت في نفس الشارع الذي يسكنه "عبدالرحمن" ورغم الظلام الذي ينشر أركانه على الحي، شعرت "جهاد" أنها تزور مكاناً مألوفاً، ولم تشعر أن المكان غريبٌ عليها فلقد عاش هنا "عبدالرحمن" معظم أيام حياته ولكنها أحسّت أن عيون المتوافدين على المسجد الذي يقبع في أول الشارع يرمقونها في حذرٍ شديدٍ، ومن الواضح أنهم توقعوا أنها غريبةٌ عن المكان.. فلقد أحست أن أعين المارّة تحاول أن تطلع إليها مستفسرةً عمّا تريد فتاة ترتدي زيّاً عسكرياً يحمل شعار المقاومة في حيّهم البسيط.

وعبرت "جهاد" بعض المنازل الموجودة على جانبي الطريق حتى وصلت إلى البيت المقصود والذي يحمل رقم ١٣ فوجدت أن الفرح ينير ظلام الليل وأمامه أناسٌ كثيرون وبه حركةٌ غير طبيعية، وبعد وقتٍ ليس بالقصير علمت أن "ليلى: قد خرجت من المعتقل منذ سويعاتٍ قليلةٍ.. ولم تدرِ هل تعود من حيث جاءت فلا تخبرهم بنبأ استشهاد "عبدالرحمن" حتى لا تكسر فرحتهم بعودة "ليلى" أم أنه من الأفضل أن تتقدم، وتجعل فرحة الأم فرحتيْن واحدة؛ لخروج "ليلى" والأخرى؛ لاستشهاد "عبدالرحمن"؟

وفي النهاية، قررت إكمال الرحلة، واخترقت زحام الواقفين، واستأذنت أحدهم في الدخول إلى الخالة أم عبدالرحمن فنظر لها الشاب في شكٍ قائلاً:

-اسمها الخالة أم ليلى!!

وهزت "جهاد" رأسها موافقةً على كلامها في أسى، ودموعٌ كثيرةٌ تكاد تطفر من عينيها.

ودخلت "جهاد" إلى حجرةٍ فسيحةٍ أحيطت بالآرائك ووُضعت في جانب منها منضدة، رصّت عليها الصحاف والأطعمة وبعض أكوابٍ من الشربات.. وجلست "جهاد" مع المهنئين على الأرائك ينصتون إلى صوت تواشيح الفجر الذي يعلو من راديو وُضع في أحد أركان الغرفة.

سلمت الأم تتبعها "ليلى" على جميع الموجودين.. وعادت الأم للجلوس بجانب "جهاد"، وبعد برهةٍ قصيرةٍ دخلت فتاة جميلة تحملُ أكواباً من العصير وزعتها على الموجودين، وتطلعت إليها "جهاد" فإذا هي فتاة رائعة الجمال، غضت الشباب، نبيلة المنظر.. وتبادلت الأمّ عبارات الترحيب مع "جهاد" ثم قالت:

-اعذريني يا ابنتي.. لم أعرفكِ.. لقد رحل الأحباب ورحل معهم البصر وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا ما يستحق أن يُرى بعدهم.

وردت "جهاد":

-لكنكِ بالفعل لا تعرفينني.. هذه أول مرةٍ آتي لزيارتكم.. ولكنها لن تكون الأخيرة بإذن الله.

-تشرفتُ بكِ يا ابنتي.. لابد أنكِ أتيتِ للمباركة على خروج "ليلى".

-نعم.. أتيتُ للمباركة لكن على شيءٍ آخر لا يخصّ ليلى.

وتساءلت الأم في ريبةٍ:

-ما هو؟

لم تعرف "جهاد" كيف تبدأها بالحديث؟ ورغماً عنها امتلأت عينيها بالدموع.. فزاد الشك في نظرات الأم، والتفت الجالسون إلى الحديث الدائر بين الأم وجهاد.

وتقدمت إليهما "ليلى" وهي تهتفُ:

-كيف نستطيع مساعدتكِ؟!

وقالت "جهاد" بصوتٍ مختنقٍ:

-لقد أتيتُ بشأن "عبدالرحمن".

وأحسّت الأم أن هناك خنجرٌ يغرس في قلبها، وتساءلت "ليلى" في جزعٍ:

-ماذا به؟

فصمتت "جهاد".

وعاودت "ليلى" سؤالها في لهفةٍ:

-أين هو.. ماذا حدث له؟

وأتت "آسيا" من المطبخ؛ لترى لمَ كل هذه الضوضاء؟

وتساءلت الأم بصوتٍ متهدجٍ:

-هل رحل "عبدالرحمن"؟

وأطرقت "جهاد" ولم تجب.

وأعادت الأم:

-رحل شهيداً فنزغرد أم رحل خائناً فنأخذ العزاء فيه؟!

وقالت "جهاد" بصوتٍ يخنقه البكاء:

-بل زغريدي يا خالتي.

وأطلقت الأم زفرةً حارةً وهتفت من قلبها:

-امنح قلبي الصبر يا رب..

وعلت زغرودتها تجوب أركان الغرفة، وانطلقت خلفها زغرودة "ليلى".. وهتفت "آسيا" في ذهولٍ :

-رحل سريعاً هكذا.. ألم يخبرني أنه سيكافح من أجل تحرير الأرض.

وقالت "جهاد":

-حدثني كثيراً عنكِ وأوصاني أن أعطيكِ هذا الخاتم، وأن أخبركِ أنه كثيراً ما تمنى أن يعود إليكِ ودائماً كان يحلمُ بكِ زوجةً له.. لكن القدر آثر إلا وجعيته.

واستدارت "جهاد" إلى الأم، ولقد أوصاني أن أقول لكِ إنه لم يجد أعز من روحه؛ ليدفعها ثمناً لرضاكِ عنه.

وتقدمت إلى "ليلى" وهي تهتفُ:

-لقد أرسل لكِ هذا المظروف حتى تستطيعين أن تجهزي نفسكِ بما فيه ويستحلفكِ أن تسمي أول طفلٍ لكِ "عبدالرحمن "حتى لا تنسونه فيضيع ذكره في هذا العالم.

وصمتت "ليلى" كأنما تعالجُ غصةً تعتلج في صدرها ثم لم تلبث أن انفجرت باكيةً فهيج بكاؤها بكاء جميع الموجودين.

الفصل الخامس عشر
من وراء الأستار

وتساءل "ياسر" في أسى:

-هل رأيتِ يا "جهاد" إعلان زفاف "حياة" من المدعو "ألبرت".. لقد تصدر هذا الخبر جميع شاشات الأخبار، ويقولون أن الزفاف سيُقام في نادي "لاس كابناس" بتل أبيب.. ويا له من عارٍ سيلحقنا إن لم نستطع إنقاذها.

القيادة لم تضع لنا خطةً كاملةً، ولم تأمرنا سوى بالوجود عند الباب الخلفي للنادي فجنود الحراسة يعملون لحسابنا هناك.. لا أفهم كيف تضع القيادة خطة بهذه السخافة؛ لإنقاذ شخصية على قدرٍ عالٍ من الأهمية مثل السيدة "حياة".. لابد أن اليهود قد استعدوا لحدوث عملية اختطاف مثل هذه.. ولابد أنهم قد قاموا بتأمين مخارج ومداخل تل أبيب؛ لذلك تقول القيادة إنه بعد أن ننجح في تهريب "حياة" من النادي سنقوم بإخفائها في إحدى الأبنية الموجودة في أول الشارع.

ومن الطبيعي أن يقوم الأمن بتفتيش كل الأبنية الموجودة كإجراءٍ طبيعي من المفروض أن يحدث في مثل هذه الحالات.

-وربما لأن القيادة قد استبعدت فكرة وجودها بهذا المكان القريب وغير المتوقع، ولربما أيضاً قد قدروا خطورة الهروب من تل أبيب وسط هذا التأمين المكثف.

-لا أدري لكن يليق بالمقاومة أن تضع خطة محكمة؛ لإنقاذها لقد كان "عبدالرحمن" سبباً في أسرها و"عبدالرحمن" منا ويجدروا بنا تصحيح خطأه.

وتحدثت "جهاد" بهدوءٍ قائلةً:

-إن الحكومة المصرية بالتأكيد قد أعدت العُدة لمواجهة ذلك.

ونظر لها ياسر حانقاً، وهو يهتفً:

-ما هذا الهدوء؟ كنتُ أظنكِ ستقيمين الدنيا ولن تقعديها حتى تخليصها مما هي فيه.. ولكن يبدو أن أمرها لا يشغلكِ كونها مصرية، ولم تجمعكِ بها ساحات العمل من قبل، ولم ترتب لكم الأقدار لقاءً ما.

وابتسمت "جهاد" في مرارةٍ وتنهدت بعمقٍ ولم تعلق.. وظل "ياسر" يغدو ويروح حتى فوجئا بصوت طائرات يتعالى في السماء وصوت جنازير دبابات تقترب، وتبادلا نظراتٍ تنمّ عن الدهشة والقلق.

وانطلقا خارجين إلى غرفة القيادة وارتفع صوتٌ عبر مكبرات الصوت ينطق بالعربية الفصيحة آمراً الجنود بإخلاء المعسكر وإلا سيتم تفجيره وهم بداخله.

ووجم الجميع ولم يتحرك أحد، وعاد الصوت يكرر نداءه:

-"على جميع الموجودين بالمعسكر إخلائه خلال دقائق وإلا سيتم تفجيره بما يحويه.. حتى مخزن الطعام ومخازن الذخيرة وذلك عقاباً على الشغب الذي أحدثه الفلسطينيون أمام مبنى الموساد احتجاجاً على زواج السيدة "حياة" من أحد ضباطهم، ومهددين أن أي شغبٍ سيحدث فيما بعد فلن تدفع ثمنه المعسكرات وحدها بل المدنيون هناك في المدن والقرى".

فريقان يتبادلانِ إطلاق النيران أحدهما مجهزٌ بأحدث الأسلحة والآلات الحربية، والآخر يجاهد ببعض الأسلحة البدائية وبكل ما يملك من إيمانٍ بالقضية وحبٍ

للأرض.. فريقٌ استعد للمعركة أتمّ الاستعداد، وفريقٌ فوجئ بها وسيق إليها دون إعداد.

وتساقط الكثير من الشهداء، والكثير جداً من الجرحى وأوشكت الذخيرة على الانتهاء والجنود على التسليم ورفع الراية البيضاء، ونظرت "جهاد" حولها في ذعر، وعلمت أن نتيجة المعركة محسومة من البداية مجرد إطلاق النيران لن يفيد لابد من خدعةٍ ما، ولابد من طُعمٍ يبتلعه الإسرائيليون الآن حتى ينقضي هذا العناء.

وخطر لها خاطرٌ، ولمعت في ذهنها فكرة ما، وتوقفت لثوانٍ؛ لتتأمل ما هي مقدمةٌ عليه وبعد دقائق ألقت سلاحها، واتجهت خارجة من أحد الأبواب السرية للمعسكر، وبعد دقائق أحسّ ياسر بالمأزق هم الخاسرون لا محالة، والتفت إلى جانبه باحثاً عن "جهاد"؛ لأخبارها أنه لابد من الانسحاب فلقد أوشكوا على الانتهاء، ولم ترسل المعسكرات المجاورة إليهم المدد حتى الآن، ولكنه لم يجد "جهاد" فأكمل إطلاق النيران وكلف أحد الجنود بالبحث عنها وإتيانه بها؟

ولسوء الحظ، سرى خبر اختفاء "جهاد" بين الجنود.. ونادى أحدهم بصوتٍ عالٍ:

-لقد قتلت السيدة "جهاد".

وتناهى صوته إلى مسامع "ياسر" الذي شعر أن نيران المعركة قد اشتعلت في جوفه.. سيحارب حتى يستشهد هو الآخر.

وظل الجندي يردد نداءه:

-"لم يعد هناك ما يُخشى فقدانه فلقد فقدنا السيدة "جهاد" فاشتعلت الحماسة في نفوس الباقين منهم، ودفعهم للقتال رغبة الثأر والانتقام لجهاد، وظلوا يرددون قول الرجل في صوتٍ جماعيٍ يبث الرعب في نفوس الكافرين

" لم يعد هناك ما نخشى فقدانه فلقد فقدنا السيدة "جهاد".. جاهدوا حتى آخر رمق".

وسمع الأطباء والممرضون بالخلف هذا النداء، وصرخت "سلمى" وحاولت التقدم إلى المعركة يدفعها الشعور بالفقد والعجز المرير، ولكن يد "حسام" حالت بينها وبين ذلك.

وفجأة، ارتفع صوتٌ غليظٌ من آلالات اللاسلكي الخاصة بالعدو قائلاً:

-السيد "إيلان" يدعوكم للانسحاب من المعركة، هذا القتال جرّنا إليه الفلسطينيون كمحاولة؛ لتشتيت انتباهنا عن محاولة اختطاف السيدة "حياة"، وانسحب الجنود الإسرائيليون واحداً تلو الآخر، وتعجب "ياسر" وفريقه من هذا الانسحاب المفاجئ.

وبعد برهةٍ قصيرةٍ قال أحد الجنود هاتفا بالعبرية:

-هناك خدعةٌ ما إنهم يحاولون تشتيتنا.. لقد أذاع أحد الفدائيين النبأ السابق.. حينها كانت "جهاد" تتسلل من بينهم عائدة إلى فريقها، ولم تكد تلمحُ "ياسر" من بعيد حتى فوجئت بفوهة إحدى أسلحة العدو توجه نحو رأسه.. فحاولت تحذيره لكن صراخها لم يصل إليها فلم تجد بداً من أن تندفع إلى حيث يوجد هو واستقرت الطلقة في

صدرها على مرمى ومسمع من الجميع.. واندفعت سلمى إلى قلب المعركة في محاولةٍ أخيرةٍ؛ لإنقاذها.

****

تعالى رنين الهاتف داخل شقة "جان" الخاصة، وبعد ثوانٍ كان "جان" يهتف:

-ألو.. "جان ميشيل".. مَن المتحدث؟

-إنه أنا " ألبرت ناعوم " يا "جان".. هل ما زلت في شقتك حتى الآن؟

-دقائقٌ قليلة وسأتواجد في قلب الموساد.. لا تقلق بشأن "حياة" إن أمرها يخصني حتى ينتهي هذا الزفاف.. سأشرف على كل فرق الحراسة الخاصة بالزواج من لحظة خروجها من الموساد وحتى وصولها إلى النادي المقصود.. انتهِ أنت من عملك في تدمير المعسكرات الثلاثة تبعاً لخطة "إيلان" في القضاء على المقاومة الفلسطينية فكما قال "إيلان"

" إثارة الفلسطينيين للشغب بسبب زفاف "حياة" دفعتنا لتدمير المعسكرات الثلاث.. لن نجد مبرراً كهذا نستطيع التعلل به أمام أفراد المجتمع الدولي".

-بالفعل لقد قضينا على اثنين منهم والثالث كاد أن يقع.. الأخبار تصلني هنا أولاً بأولٍ .. كما أمرتك بشأن "حياة" فلا بد أن أنهي الحوار معك الآن من أجل مهاتفة "إيلان".

-هل حدث شيءٌ ما؟

-لا.. فقط أردتُ إرسال السيدة المصرية إليه كما طلب.. إنها تحتضر وتوشك أن تموت.. يبدو أنهم بالغوا في تعذيبها، وهي في لحظاتها الأخيرة الآن.

ولم تمضِ دقائق حتى كانت السيدة بين يدي "إيلان" الذي أمر بإرسالها إلى مكان آخر غير شقة والدته التي إن رأت المرأة في حالتها هذه سوف تموتُ هماً وجزعاً.

******

-جهاد.. إنكِ هنا يا حبيبتي.. لا تقلقي إصابتكِ ليست بالخطيرة، وقد نجحنا في استئصال الرصاصة، وأكد الأطباء أنكِ في أحسن حال، وستعودين إلى ساحات المعارك بمجرد انتهاء فترة نقاهتكِ.

وابتسمت "جهاد" في وهنٍ، ولم تنجح عيناها في رؤية "سلمى" التي تتحدث.. لا زال تأثير المخدر يسري في أوصالها، ويغيم على عينيها.

بعد دقائق، استطاعت "جهاد" أن تميز صوت "ياسر" و"حسام" وهما يهتفان" أنهما نجحا في الفرار من السيارات الإسرائيلية التي كانت تراقبهما خلال مجيئهما إلى هنا، والتي بعد ثوانٍ تحولت مراقبتها إلى مطاردة، ولكنهما أخيراً نجحا في تشويشهما، والوصول إلى هنا بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بقصف مشفى "الجلاء التخصصي"؛ لحرمان الفلسطينيين من العلاج وخاصةً جرحى ومصابي القصف الأخير في المعسكرات، فما كان من قائد المقاومة إلا أن أرسل إعلاناً يعلم فيه جميع الفرق أن المكتب السري لتوزيع المنشوراتِ وعقد اللقاءاتِ قد تحول من الآن إلى مشفى خاص بأفراد المقاومة، وأنه حاول تجهيزه ببعض الأجهزة المدخرة منذ مدة لمثل هذا الظرف.

ولم يكد "حسام" يُتم حديثه حتى صرخت "سلمى" بابتهاجٍ وهي تهتفُ:

-"جهاد".. انظري لقد أعددتُ لكِ مفاجأة.

وحاولت جهاد النظر بصعوبةٍ حيث تشير أصابع "سلمى" ، ولم تكد تلمح الواقفيْن هناك حتى شهقت من هول المفاجأة، وهي تهتفُ في بكاءٍ واضحٍ :

-سامحاني.

واقترب منها العم "محمود" تتبعه الأم؛ لتضمها في لهفةٍ وحنان وكأنها تضم وليدتها التي فقدتها منذ زمن، وأمسكت "سلمى" بالكاميرا الخاصة بها وهي تهتفُ:

-لابد من توثيق هذه اللحظة.. وضغطت زر تصوير الفيديو.

وفي نفس اللحظة، تناهى إلى مسامعهم صوت همس إحدى الممرضات آتية؛ لتغلق باب الغرفة وهي تهتفُ:

-لقد وصل للتو أحد أهم أفراد المقاومة بعد أن أجريت له جراحة عاجلة في لندن.. الرجاء التزام الهدوء؛ لأن حالته غير مستقرة، وسيرقد في الغرفة المجاورة.

وزاد الفضول لدى "حسام"، وتقدم خارجاً من الغرفة يدفعه الحسّ الصحفي؛ ليرى مَن هذا الذي يقولون عنه إنه أحد أهم أفراد المقاومة؟

وفي الطرقة الخارجية لمح امرأةً تبدو في منتصف الخمسينيات من العمر لكن حالتها يرثى لها، ويبدو أنها تعرضت للتعذيب الشديد فلم يجد فرصةً أفضل من هذه؛ لإجراء حوارٍ صحفي مع المرأة.. من المؤكد أنها ستفارق الحياة قبل أن تكمله لكنها فرصةٌ لن تعوض؛ لإخبار العالم ما تفعله إسرائيل بمعتقليها من النساء.

وعاد مسرعاً إلى غرفة "جهاد" والتي ساءت حالتها بعدما علمت بنجاح العدو في تدمير المعسكر.. اطمأن عليها "حسام" وأخبر "سلمى" بما يود فعله، وبالفعل

خرجا إلى السيدة.. وفي منتصف المسافة إليها مرّا بالغرفة المجاورة فألقيا نظرة على الراقد فيها، والذي تدعي الممرضة أنه أهم رجال المقاومة، ولم تكد "سلمى" تلمحه حتى ندت من بين شفتيها شهقة تعجبٍ وهتفت:

-"طارق محمود دراز".. كيف ذلك؟!

****

لم يَعُد "إيلان" إلى شقته تلك الليلة.. ظل ساهراً في أحد المقاهي القريبة من مقر عمله.. شرب كوباً من عصير البرتقال، ثم أكل بعض التوست الطازج، وشرب بضع أقداحٍ من القهوة حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثانية صباحاً فترك مقعده، وتحرك في هدوءٍ نحو الباب الخارجي للمقهى.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى كان "إيلان" أمام غرفة الأسرى الخاصين بالموساد.. توقف أمامها لثوانٍ فسمع أصوات همهماتٍ بالداخل توحي بأن "حياة" ليست بمفردها، وعندما حاول فتح الباب وجده مغلقاً فأدخل بطاقته المعدنية من خلال الفراغ الذي بين الباب والإفريز وحركها إلى أعلى وإلى أسفل، وبعد ثوانٍ كان الباب مفتوحاً، ولم تكن "حياة" وحدها بالداخل بل يقف إلى جانبها "جان" شاهراً مسدسه في وجه "إيلان" وتساءل "إيلان" في عنفٍ:

-ماذا تفعل هنا يا هذا؟

-أنا المكلف بمهمة تأمين هذه الأسيرة.. ودعني أسألك:

-ماذا تفعل أنت هنا؟

-إذا كنتَ مكلفاً بتأمينها فالطبيعي أن تكون خارج الزنزانة لا داخلها.

-الأمر يخصني وحدي.. فلا تحشر أنفك فيما لا يخصك، وإلا فرغت هذه الرصاصات في جمجمتك.

قال "إيلان" ساخراً:

-ولكنك أجبنُ من أن تفعل؟

-أتراهنُ؟

-ليس هذا وقتٌ للمراهنة.

-إذن لماذا أتيتَ إلى هنا يا "إيلان"؟

-سأجيبك الآن.

وفي سرعة البرق، انقض "إيلان" على "حياة" وكانت بين يديه موجهاً مسدسه الصغير إلى رأسها.. واضطرب "جان" ولم يدرِ ماذا يفعل؟

وحاول أن يتكلم بهدوءٍ قائلاً:

-هل جئتَ لاختطافها؟

-ليس بالضبط.

-إن أمرها يخصني، بناءً على أوامر "ألبرت".. وتحت توجيهات الرئيس.

وفجأةً سقطت من بين ملابسه ورقةٌ صغيرةٌ وتذكرة سفرٍ كُتب عليها بضعة أحرفٍ بالعربية.

واقترب "إيلان"؛ ليلتقطها لكن رصاصة "جان" كانت أسبق.. وحاول "إيلان" أن يتفادى الرصاصة المتجهة نحوه فمال يميناً فاستقرت الرصاصة في كتف "حياة" والتي صرخت بشدة، وكادت أن تسقط أرضاً فحاوطها "إيلان" بذراعه

محاولاً منعها من السقوط.. واستقرت رصاصة "جان" الثانية في ساق "إيلان" اليسرى.

وقبل أن يستوعب "إيلان" ما يحدث حاول "جان" حمل "حياة" بين يديه ولكنها هتفت في وجيعة:

-اهرب أنت يا "جان".. سأموت بالتأكيد، وتهريب جثتي لا يستحق كل هذا القدر من العناء.

فقال "جان" في تأثرٍ بالغٍ:

-إياكِ أن تتفوهي بمثل هذا الكلام ثانيةً يا سيدتي.. لابد أن أعيدكِ إلى مصر حتى لو كلفني هذا حياتي.. هذا ما وعدتكِ به منذ البداية.. هيا تماسكي واستندي عليّ.

وقبل أن تستند عليه، نظرت "حياة" إلى "إيلان" في تساؤلٍ فأمسك جان بمسدسه وصوبه تجاه رأس "إيلان" وضغط الزناد.

****

عاد "حسام" إلى الغرفة مسرعاً، وهو يهتفُ:

-لقد عاد "طارق" إنه في الحجرة المجاورة.

واندفع الجميع إليها، وعلا صوت أم طارق وهي تهتفُ:

-لا تعذبني بالوهم يارب.

وبعد ثوانٍ كانت في داخل الغرفة منكبة على "طارق" تحضنه وتشمه وتقبله وكأنها تحتضن أغلى شيءٍ لديها.

ووقف العم "محمود" إلى جانب الفراش يراقب ما يحدث وابتسامة جميلة هادئة تزين مبسمه.. وعلى مسافةٍ منهما تقف "سلمى" وإلى جانبها "حسام" وهما يقومان بتوثيق هذا المشهد الذي تبثه المحطة الخاصة بهما بثاً مباشراً الآن كنوعٍ من بث الأمل في نفوس فاقديه بعد أن تم تدمير المعسكرات الثلاث.

وبعد دقائق، أدخل الممرضون المرأة المعذبة التي رآها "حسام" في الممر قبل دقائق يتبعها ثلاثة من الأطباء، وتحدث أحدهم قائلاً:

-إن حالتها خطرة، ويُفضل خروجكم من هذه الحجرة فهي خاصة بالمرضى أصحاب الحالات الحرجة.

وطلب "حسام" إجراء لقاءٍ معها، فرفض أحد الأطباء معللاً بأن حالة المرأة لا تسمح بالحديث مطلقاً، وأثناء هذه المداولات طرقت "جهاد" باب الغرفة وهي تجلس على كرسي متحرك تجره بها إحدى الممرضات، ونظرت "جهاد" إلى "طارق"، وحاولت جاهدة أن تخفي قلقها ولهفتها عليه.. والتفت "طارق"؛ ليرى "جهاد" ملفوفٌ صدرها بالضمامات البيضاء والتي تتوسطها بقعة كبيرة حمراء.

نظر إليها نظرة هادئة ثم هتف:

-سامحيني.. لقد أسأتُ الظن بكِ ونسيت أن " بعض الظن إثم "!

وأشارت "جهاد" إلى الممرضة كي تقربها من فراش "طارق" الذي هتف:

-لقد عاقبني الله أشد العقاب جزاءً على ما فعلته بكِ.. نعم غادرتُ الغيبوبة لكن الشلل قد استوطن قدماي.

هتفت "جهاد":

-لا تجهد نفسك في الحديث يكفيني أنك ما زلت حيّاً وموجودٌ أمامي الآن.

-هل أنا مهمٌ إلى هذ الحد؟

-وأكثر من ذلك.

وصمت "طارق" للحظة ونظراته تتحسس وجهها بينما هي صامتة ترقب جسده الطويل الممدد على الفراش وأخيراً هتف:

-عندما قرأتُ الخطاب انتابني شعورٌ مروعٌ لم أعرفه من قبل.. شعور الذي يفقد ابنته من بين يديه.

-ابنته!!!

-نعم.. ابنتي.. أنتِ ابنتي يا "جهاد" قبل كل شيءٍ لقد كبرتِ وترعرتِ أمام عينيْ.

هتفت "جهاد":

-عندما عرفت ما حلّ بك تيقنتُ أنك لم تكن شخصاً عادياً بالنسبة إليّ كما كنتُ أشعرُ دائماً لأول مرة أحسّ أنك شخصٌ عزيزٌ، يروعني أن أفقده.. لأول مرةٍ أشعر أنك لم تكن مجرد رجلٍ تربيتُ معه.. كنتَ بالنسبة إليّ خليطٌ من الأب والأخ والابن.

وفرح "طارق" لقولها وأصابه شعورٌ عجيبٌ.. شعورٌ بالمتعة واللذة الخفية التي كادت أن تنسيه أنه فقد قدميه.. ولم يعد يهمه وجودهما بعد الآن ما دامت هي هنا.. هي سنده ومتكئه بعد هذه اللحظة.. صحيحٌ أنه لم يكن يتوقع أنها تكنّ له مثل هذا الشعور لكنه يشعر بالأمانة والصدق في كل ما قالته.

والتفتت "جهاد" إلى الموجودين، وكست وجهها حمرة الخجل، وقبل أن تتكلم قال "طارق":

-لكنني مندهشٌ أشد الاندهاش من تصرفكِ.. لماذا أخفيتِ علينا كل هذه المدة وجود أخاكِ بيننا؟

وتساءلت "جهاد" في عدم فهمٍ:

-أخي؟!

-نعم.. أخاكِ الوحيد.. لقد قرأتُ خطابه الثاني بنفسي، وجئتُ مسرعاً كي أخبركِ، وأعتذر منكِ لكن حدث ما حدث.

وهزت "جهاد" كتفيها في عدمِ استيعابٍ وهي تهتفُ:

-أيُّ خطابٍ؟

-تعلمين أن سبب آخر نزاعٍ بيننا كان هذا الخطاب الذي وقع في يدي، والذي أرسله لكِ أخوكِ.. حينها لم أكن أعلم أنه هو المرسل، وظننتُ أنكِ مرتبطة برجلٍ ما وتخفين عنا ذلك.. وبعدما رحلتِ وقع في يدي خطابه الثاني والذي فهمتُ من حديثه فيه أنه أخاكِ الوحيد.

وشرد ذهن "جهاد" وركزت بصرها في زاوية الغرفة تحاول أن تفهم ما يتفوه به "طارق"، وجذبها من شرودها فجأة صوت تلك المرأة الراقدة في جانب الغرفة وهي تأن أنّاتٍ متقطعة ثم هتفت بصوتٍ واهنٍ :

-يوسف.. جهاد.. الملتقى الجنة.. وصرخت "جهاد".

******

فتح الباب، وتشتت تركيز "جان" فطاشت رصاصته في الهواء ودخل "ألبرت" وهو يهتف حانقاً:

-ماذا تفعلان هنا؟

وتحدث "جان" في سرعةٍ وتوترٍ قائلاً:

-لقد أتى "إيلان" إلى هنا محاولاً قتل "حياة" ولم يعتد بقولي أن موت "حياة" ليلة زفافها سيشكل فضيحة كبرى إلى إسرائيل فاضطررتُ إلى إصابة ساقه حتى أتمكن من الفرار بها إلى مكان آمن فلقد منح "إيلان" إجازة لكل أفراد الأمن الذين يعملون هنا في هذا القبو السري.

ونظر ألبرت إلى "إيلان" الذي لم ينفِ إهانات "جان" الموجهة إليه، وأشار "ألبرت" إلى "جان" أن يكمل ما كان يفعل، وأن يضع "حياة" في مكانٍ آمنٍ.

وتساءل "ألبرت" موجهاً سؤاله إلى "إيلان":

-هل ما نطق به "جان" صحيحاً؟

ونظر إليه "إيلان" في عدم اكتراثٍ قائلاً:

-إنه دائماً ما يهذي بكلامٍ لا صحة له.. ألا تعرف أنت ذلك؟ إنه مخبولٌ ولا هدف له إلا الصعود إلى قمة المجد حتى لو كان الصعود على كتفي.

-دع الحديث جانباً الآن، وهيا إلى المشفى.. إن جرحك ينزف ولا بد أن نخرج الرصاصة قبل أن تتفاقم حالته.

-إنها إصابة سطحية.. أعتقد أن الرصاصة اخترقت اللحم فقط، ولحسن الحظ لم تصل إلى العظم.. سأضمدها مؤقتاً برباط عنقي حتى لا أفقد الكثير من الدماء فلابد أن

أعود إلى المنزل أولاً حتى أتابع أمر السيدة فكما تعلم إن حالتها خطرة، ومن المحتمل أن تفارق الحياة قبل أن تقابل والدتي.

واتجه "إيلان" إلى الخارج تاركاً لألبرت أمر إعادة الأمن والحراسة كما كان.. وبمجرد خروج إيلان قلّب "ألبرت" شفتيه في شكٍ وهو يهتفُ:

-لابد أن هناك لغزاً ما لا أفهمه، ولابد أن أعمل جاهداً على حلّه.

****

ظلت "جهاد" تصرخ بهستريا مفرطة وسط ذهول الجميع إلى أن جاء بعض الأطباء محاولاً تهدئتها، وهو يتساءل جزعاً:

-ماذا هناك؟ لماذا ساءت حالتها هكذا؟ هل حدث شيءٌ ما؟

ودخل طبيبٌ آخر يهتفُ بعصبيةٍ واضحةٍ:

-كفوا عن هذه الضوضاء.. لقد جاء الرئيس في زيارةٍ فريدةٍ من نوعها.. كما أنه مصابٌ في ساقه ولابد من استخراج الرصاصة، وتضميد جراحه.. فضلاً التزموا الهدوء.

وتساءل "ياسر" في تعجبٍ:

-الرئيس بنفسه؟!

-رئيس المقاومة الفلسطينية بشخصه يا سيدي.. إنه مصابٌ بالخارج.

-إنها فرصةٌ لا تعوض.. هلاّ سمحتم لي بلقائه؟

جاءهم صوتٌ من الخلف قائلاً:

-لقد جاء بنفسه؛ ليلقاكم يا "ياسر".. فكما قلتَ إنها فرصةٌ لا تعوض.

والتفت الجميع إلى مصدر الصوت.. ونظرت جهاد إلى الواقف أمامها في دهشةٍ وعدم تصديق وثبتت عينيها على وجهه وهي تتمتم:

-يا إلهي.. هل ما أفكر به صحيح؟

وفي نفس اللحظة، دخل إلى الغرفة أحد الملثمين يحمل جريحة بين يديه، وهو يهتف بصوتٍ فزعٍ:

-أغيثوها إنها السيدة "حياة حمدي".. لقد أصابها الوغد في كتفها.

وبتر عبارته بغتة رؤيته لإيلان الذي يقف قبالته تماماً.. فشهق "جان" في دهشٍ وهو يهتفُ:

-"إيلان"!!!

وصرخت "جهاد":

-رحماك يارب.

وتكلمت "حياة" بصوت واهن عندما سمعت صوت "جهاد" قائلة:

-هل التقينا ثانية يا "جهاد"؟

وتلعثم "جان" في ضيق قائلاً:

-إن "إيلان" هنا.

وجاء صوتٌ من آخر الغرفة قائلاً:

-بل قل" يوسف هنا ".. إنني أحسّ به وأشمّ رائحته.

وحاولت "جهاد" التقدم إليه فانقلب بها الكرسي المتحرك، وركض "إيلان" محاولاً إنقاذها وضمها بين ذراعيه.. ونظرت "جهاد" في عينيه بعينين تملؤهما الدموع، وهي تهتف بصوتٍ تخنقه العبرات:

-هل حقاً التقينا؟

وطبع "إيلان" قبلة على جبينها دون أن ينطق.

وتقدمت إليهما "حياة" تمشي ببطءٍ.. وما إن وصلت إليهما حتى ابتسمت في وهنٍ قائلة:

-لا أصدق أنني معكما الآن.. عاد بنا الزمان إلى حارة بالإسكندرية.. عادت بنا الأيام واجتمعنا مجدداً.

وتساءل "ياسر" في عدم فهمٍ:

-أنا لا أفهم شيئاً من هذا.

ورد "جان" بابتسامةٍ مشرقةٍ:

-ولا أنا.. لكن الذي أعلمه أن هذا هو "إيلان كوهين إيرائيل".. أهم ضابط مخابرات إسرائيلي.. لكن على ما يبدو أنه شخصٌ آخر أكثر أهمية.

فأتبع "إيلان":

-شخصٌ فقد والدته وأخته الوحيدة، وتربى في بيت السيدة التي قتلتهما بعد أن تبنته، وأقسمت أن تجعل منه يهودياً عظيماً بعدما جذبها إليه حماسته وذكاءه المتقد.. فأقسم هو أن يزداد إسلاماً على إسلامه.. وأن يمتلئ عروبة على عروبته.

فأكمل "ياسر" فأصبح قائداً لقوات المقاومة الفلسطينية، والمسؤول عنها بكل أقسامها.. من قسم المناوشات وحتى قسم التبرعات.

وتشبثت "جهاد" في ملابسه أكثر ونظر إليها "إيلان" قائلاً:

-كنتُ أراكِ أمام عيني كل يومٍ، ودون أن يكون لي الحق في احتضانكِ أو تقبيلكِ، نشأتِ يتيمة بدوني، ونشأتُ يتيماً بدونكِ.. كثيراً ما قررتُ الذهاب إليكِ وإخباركِ بحقيقتي لكن المراقبة الشديدة منعتني كلما حاولتُ التقرب منكِ وإخباركِ بهويتي.. منعتُ نفسي من ذلك خشية على المقاومة أن تندثر من بعدي إذا علموا عني شيئاً.

كنتُ تماماً كمن يضغط على البنزين والفرامل في سيارته فالسيارة تحترق دون أن تتقدم شبراً واحداً.. وكثيراً كثيرا ما قاومتُ اشتياقي إليكِ واحتياجي لكِ، اعذريني ياجهاد وسامحي فظاظتي معك كنت مضطراً لذلك، مراقبة ألبرت الشديدة علي اضطرتني لإطلاق الرصاص عليك، إن لم أفعل شكوا في أمري وقضوا علي، لم أتعلق بالحياة من أجل هواً في نفسي، فلقد فقدت لذة الحياة منذ أمد بعيد منذ أن ألقى الرجال بأمي وأختي أمام عيناي.. من وقتها وأنا بقايا إنسان أجبرته ظروفه أن يعذب أحبابه كل يوم.. أن يطعن قلبه بنفس السكين الذي يطعنهم به، كنت كالنيران التي لم تجد ما تحرقه سوى نفسها..!

صدقوني أنا المتألم والخاسر الوحيد في هذه الحكاية، كلكم كنتم تكرهون إيلان إيريائيل وتحاولون قتله والتمثيل به والانتقام منه، أما هو فكان يكن لكم كل الحب.. ويتمنى لكم كل الخير، ويخشى أن يصيبكم ضرر فيصيبه ضعفه.. لم أكن أتمنى من هذه

الدنيا شيء سوى أن تجمعني بكم ولو لمرة واحدة قبل أن أموت لككني في كل مرة كنت أردد على مسامعي:

-عليك أن تتقبل فكرة أن ثمة أمور لن تحدث أبداً وهذا لا علاقة له بمدى شغفك بها، وعدد محاولاتك لها، أو مقدار جهدك المبذول!

كلكم يعرف من هو إيلان إيريائيل القوي المتغطرس ضابط الموساد العظيم، لكن لا أحد يعرف من أنا، ما هي حقيقتي، ماذا أحب ما الشيء الذي أكره، لا أحد يعرف كم مرة خذلت وثقبت روحي.. لا أحد يعرف كم مرة شعرت بالوحدة رغم مجاورة الجميع، أنا شخص مؤثر في حياة الجميع لكن لم يغامر أحد ليصبح مؤثراً في حياتي!

ونظر إلى "حياة" ثم أكمل:

-كنتُ اعتبر ذكرياتنا معاً رصيداً من المتعة ألجأ إليه كلما استبد بيَ الضيق، واجتاحني الملل وغلبني الشوق واستهوتني الأماني.. كنتُ أتوق إلى حديثكما، ولطالما رسمتُ الخطط للقائكما لكنني في كل مرةٍ كنتُ أتراجع في اللحظة الأخيرة.. سامحيني يا "جهاد" على تقصيري في حقكِ فقد كنتُ كالقريب البعيد.. قريبٌ منكِ إلى أقرب حد.. وبعيدٌ عنكِ إلى أبعد مدى.

وأنتِ يا "حياة" سامحيني على ما فعلته بكِ لم يكن ما حدث ضمن خطتي التي رسمتها لكِ.. لكنها الدنيا التي صممت على كسري في كل مرة صممت فيها على الانتقام منها وكسرها، ثم أتبع حاولت جمعكما بزنزانة واحدة علكما تعرفان بعضكما فيهون هذا عليكما ماكنتما فيه.

وعادت المرأة الموجودة على الفراش تأنّ أنّاتٍ متقطعة، وهي تهتفُ:

-الحمد لله.. التقينا قبل أن أموت.

وترجل "إيلان" ووضع جهاد إلى جانب أمها وربت بيده على يدها، وهو يهتفُ:

-لقد كنتُ أنا السبب في اعتقالكِ.

-لا تقل هذا يا بني.. أنا من كنتُ السبب.. بعدما وضعتُ "جهاد" في بيت أولئك الطيبين، عدتُ ثانية إلى البحر؛ لأنادي عليك حتى تُخرج الأمواج لي جثتك كاعتقادٍ مصري قديمٍ.. لم أكن أعلم أن المرأة قد تبنتك واختارتك لها.. وفي ذلك الوقت، كانت السيدة قد أرسلت عيونها؛ للتأكد من غرقي حتى لا أفسد عليها خطتها فأسروني وأساموني سوء العذاب.

ونطق العم "محمود" في تأثرٍ:

-المهم أنكم التقيتم بعد كل هذا الفراق.

وهتفت "حياة":

-لكن هناك جزءٌ ناقصٌ من الحكاية.. ويجدر بي أن أحكيه الآن.. هذا الجزء جئتُ إلى فلسطين بسببه.. وسافرتُ خصيصاً مع "إيلان" بحثاً عنكم؛ لأخبركم إياه.

ونظرت إلى المرأة قائلة:

-لقد زارنا زوجكِ يا خالتي بعد رحيلكِ مع "إيلان" و"جهاد" وبعدما تركتما مصر بثلاثة أيامٍ فقط.. كان لا زال حيا يرزق.. ووضع على عاتق أمي إخباركما بأمرٍ ما إذا عدتم إلى مصر ثانية، وطلب منها البحث عنكم حال عدم عودتكم لكن أمي ماتت قبل أن توفي بوعدها لكم.. وتركت عبء إخبار السر على عاتقي أنا.

ونظر إليها الجميع في ترقبٍ فهتفت:

-لقد أخبر أمي أنه لم يكن أردني الأصل كما قال لكِ.. لقد كان يعمل ضمن الجيش العربي المشترك ولم يقم بإخباركِ بذلك خشية أن يحنث القسم الذي أقسمه عندما انضمامه إلى هذا التحالف العربي واكتفى بإخباركِ أنه أردني لكنه في الحقيقة كان فلسطينياً.. ولد ونشأ وترعرع في غزة واسمه العم "علي دراز".

وشهق الجميع وتمتم طارق في دهشةٍ:

-ابنة عمي!!!

واقترب العم "محمود" من "إيلان" و"جهاد" يضمهما إلى صدره هاتفاً رغم دموعه:

-أنتما أبناء أخي الوحيد.. أيعقل؟!

وفي تلك اللحظة، دخل "ألبرت" بأوداجٍ منتفخة، وعروق بارزة يتبعه ثلاثة من الحراس وبدون إنذار صوب مسدسه تجاه "إيلان" وضغط الزناد وهو يهتفُ:

-هذا ثمن الصداقة يا صديقي العزيز.

وصرخت "جهاد" واندفعت صوب الرصاصة تتلقاها بدلاً عنه فاستقرت الرصاصة في قلبها فتعالى صراخ الجميع.

انكب عليها "إيلان" يقبلها، ويتحسس شعرها برفقٍ وهو يهتفُ:

-لا تتركيني.. إياكِ أن تغادري سريعاً هكذا.

وشدت "جهاد" على يديه برفقٍ دون أن تنطق.. ونظرت تجاه "طارق" الذي أغرورقت عينيه بالدموع عاجزاً عن التفوه بأي شيءٍ ثم حولت بصرها إلى "حياة" وهي تهتفُ:

-كنتُ أتمنى أن نمكث معا لمدة أطول.. وكنتُ أتمنى أيضاً أن نعيد ذكرياتنا معاً، وأن أعود إليكِ في الإسكندرية، وأوفي لكِ بوعدي الذي قطعته على نفسي.

وربتت "حياة" على يديها، وقد كست ملامحها شبح ابتسامةٍ وهتفت:

-سينجكِ الله؛ لتفعلي كل ما تمنيتي فعله.

وألقت "جهاد" نظرة على جميع الموجودين، وحاولت أن تنظر إلى "سلمى" و"حسام" و"ياسر" لكن عينيها زاغت وتحشرج صدرها، ولم تستطع أن تسحب الهواء إلى رئتيها فلم تستطع الحديث وأغمضت عينيها، وعادت إلى الأنين الخافت المتقطع فاقتربت منها "سلمى" مبهورة الأنفاس، مرهقة الأعصاب، وهتفت بصوتٍ يعلوه النشيج:

-لن تذهبي يا "جهاد".. كلنا فداءٌ لكِ.. حياتكِ الذاخرة بالعطاء لا يمكن أن تذهب سدىً هكذا.

ونطق "ألبرت" في حقدٍ بالغٍ :

-سنبيدكم كلكم.. لن ندع منكم أحداً على ظهر هذه الأرض.. وأطلق رصاصته الثانية والتي استقرت في ظهر "إيلان".

ونظر "إيلان" إليه نظرة لومٍ وعتابٍ ثم حوّل بصره مبتسماً إلى "جان" وهتف بصوتٍ متحشرج: قبل أن أموت أود ان أخبرك أنني أحبك ياجان ليتني علمت

حقيقتك من قبل، ليتك اخبرتني من تكون.. وتساقطت أدمع جان دون أن ينطق بحرف لكنه انحنى وطبع قبلة حانية على رأس إيلان الذي هتف سامحوني جميعكم، سامحوني على ماسببته لكم من عناء وحول بصره ناحية جهاد قائلاً

-سنرحل سوياً يا "جهاد" لا قلق ولا فراق بعد اليوم.

وشد كل منهما على يد الآخر في رفقٍ .

وسكنت "جهاد" و"إيلان" إلى الأبد، لم يخرج منهما أي صوتٍ لا أنين ولا صوت متقطعٍ ولا حتى حسيس أنفاس.

رحلا في ألمٍ ووجيعةٍ كما عاشا في ألمٍ ووجيعةٍ.. أبت الدنيا أن تجمعهم وعز على القدر أن يسعد قلوبهم ولو بلقاء خاطفٍ سريعٍ فكان الموت بهما أرحم من الحياة.. لقد فرقتهم الحياة وجمعهم الموت ولم يبق منهما سوى ذكرى سنرددها للأجيال القادمة كما أرددها أنا لكِ اليوم حتى تتعلمي منهما معنى التضحية ومعنى الصبر على الابتلاء .

انحدرت دموع فاطمة على وجنتيها وهتفت متسائلة:

-هل لازلت تحبها بابا طارق؟

-ولن أحب أحداً مثلها.. لقد عاشت وحيدة وجاهدت وحيدة ولم يرحمها في حياتها أحد حتى أنا كنتُ شر أقربائها لكن عزائي الوحيد أنها قد سامحتني قبل أن تموت.. لا زلت أذكر نزاعاتي معها وهي طفلة.. لا زلت أذكر وصفي لها باللقيطة والخائنة .. لا زلت أذكر ابتسامتها ودموعها وضحكاتها وبكائها وحتى آلة تصويرها.. كانت طيبة وجميلة وطاهرة.

السلام عليها يوم ولدت ويوم ماتت ويوم تبعث حية!

-وماذا عن ابن عمك إيلان.. هل كان طيباً كما أظن؟

-نعم .. كان أطيب مما تظنين.. لا أتخيل أنه كان لي ابن عمٍ في هذه الحياة ولا أتخيل أن ابن العم هذا كان هو إيلان إيرائيل الذي لطالما خططتُ لاغتياله أنا وياسر وزملائنا في فرق المقاومة.. عجيبٌ أن يصدمني القدر أن ابن العم هذا الذي كثيراً ما حاولتُ قتله هو رئيس المقاومة الفلسطينية نفسه.. فالسلام عليه أيضاً يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

هذه هي يا فاطمة حكايتي كما طلبتي أن أحكيها لكِ.. أعلم أنها أحزنتكِ لكن الجانب المشرق منها عظيم يكاد نوره أن يضيء ظلام هذه الأرض.. احكيها لأبنائكِ من بعدي ولكل مَن عرفتي ومَن لم تعرفي.. وأخبريهم إن " بعض الظن إثمٌ".. وأن معظم ما نراه صحيحاً قد يكون خاطئاً.. وأن بعض ما نراه خاطئاً قد يكون غير ذلك.. وأن لله في تصريف أمورنا حكمة، وأن الله قد يبتلينا ليصلح في قلوبنا شيئا لن ينصلح إلا بالابتلاء!

تمت بحمد الله

الفهرس